الطّاهر بن جلّون

نزل المساكين

رواية



ترجمة: يوسف شلب الشام

نُزُل المساكين

* الطاهر بن جلّون
* نُزُل المساكين
* ترجمة يوسف شلب الشام

* الطبعة الأولى 2000
* موافقة وزارة الإعلام رقم 48658 تاريخ 2000/9/6
* الناشـــر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشـراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخـراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـوزيـع : دار ورد ☎ 3321053

الطاهر بن جلّون

نُزُل المساكين

رواية

ترجمة يوسف شلب الشام

عنوان الكتاب الأصلي:

L'AUBERGE DES PAUVRES

1

هذه قصة رجل محارَب. وهذا ليس له مظهر حقير، بل إن الرجل المحارَب هو واحد يتألم. يقوم بأعمال غير متوقعة، لايُضبَط، قادر على أن يفقد الرشد، أن يصبح عنيفاً وجباناً أو أن يحفر نفقه الخاص ليختفي.

يوجد نموذجان من الرجل المحارَب: ذلك الذي يتجرع الإهانات، يدمدم ويسبب لنفسه الألم (في الرأس، في الظهر، في البطن)، يتحمل، يحقد على نفسه لأنه لايملك القوة على المقاومة ويبعث بكل شيء إلى الشيطان. ثم هناك ذاك الذي يردّ المعاكسة إلى وجه المعتدي، يتخلص منها، يطردها، ولايبقى منها أثر لمزاج خبيث، وهو مستعد لتوقع كل عدوان جديد.

أنا من النوع الذي يتحمل ويتألم بصمت. سميت نفسي «بدون» من ذكرى رحلة مزعجة قمت بها في خريف 1975 إلى الكويت. اكتشفت فيها على بعد خمسة عشر كيلومتراً من العاصمة معسكراً تزرب فيه الحكومة الكويتية المهاجرين غير الشرعيين والذين هم بدون جنسية، رجال أتلفوا وثائق هويتهم لكي لايُطردوا. يسمونهم «بدون»، كائنات من لامكان، ظلال رجال يعملون في النهار ويختفون في الليل في مغاور أو تحت خيام بالية.

يحدث لي أن أتذمر وأشتكي إن لم أجد عملاً.

فما الذي يغيظني؟ أهي الريح الشرقية، تلك التي تقتلع الرمال وتلقيها في العيون، القهوة بحليب الباردة التي تقدم في قدح مثلوم، لهجة صعبة الفهم، تخلف مفرط، تأجيل ليس له مسوغ، سوء النية، الحماقة العلنية أو السفيهة، الخيانة تحت كل الأشكال في الصداقة كما في الحب، البوليستر، النايلون فوق الجلد المبلل بالعرق، ضجة الحضارة، الخسة، الشك، التأكيدات المتباهية، القسوة المجانية، الحسد، النمل، الأرق العنيد، عدم الاهتمام بالشعر، كراهية الموسيقى، الهندباء، أعياد نويل، التعرُّق الممزوج بعطر رديء، النساء ذوات الشعر المفرط على البدن، ذوات الأثداء المحمولة في صداري الزينة (حتى ولو كنت أعرف أنها ليست غلطتهن)، الدعوة إلى نيل المرأة حقوقها التي تكافح في كل اتجاه، المضغ تحت جميع أشكاله، النظرة المهددة، السماء الرصاصية، سوء النية مرة أخرى وعلى الدوام، رسائل البواب، قبضة يد رخوة، الأيدي الدبقة، الحساب وعدد آخر من أمور الحياة الخاصة التي أفضل السكوت عنها وأحتفظ بها إلى خلواتي الباكية...

يمكنني القول: إنها قصة فنان ضُرب بصاعقة الأهواء، ذهب إلى نهاية الحلم ولم يعد منه قط، على الأقل ليس في حالة إنسانية مقبولة.

أو كذلك: إنها قصة رجل حزين، حزين جداً حتى إنه غدا المؤتمن على حزن مراكش الكبير. إنه حزن اتخذ له ألوان المدينة الإمبراطورية، أحمر بلون المغرة، أحمر بلون الدم، أحمر قرميدي، أحمر بلون الغسق، أحمر بلون زهر الخشخاش، أحمر قرمزي، أحمر شديد الاحمرار مثل سهرة في آخر رمضان، أحمر مثل جرح مفتوح، مثل ليلة معتمة، مثل نهر صبغته شمس الغروب، مثل صمت أولئك الذين تركونا واستمروا بالحديث إلينا موجهين لنا إشارات من الضوء الأحمر، مثل نار تنطفئ لأنها فقدت كل مايذكيها، أحمر مثل الكلمات التي استهلِكت على عتبة الباب القديم، كلمات صحيحة لا

رأفة فيها تؤلم في النهار كما في الليل، لون ناصل في عزلة الصمت الذي يغوص في غضب الدموع الأخرس، في استنزاف المادة، غضب الحجر الذي ضاع فيه الزمان، أثر الحديد الذي عانى التجارب على الأسوار التي تسهر على المدينة دون أن تنجح في إيقاف الحزن من أن يتقدم وينخر جسد الرجل الحزين وعقله، الرجل ذي الأسرار المشوشة والنظرة المنكسرة الذي ينتظر أن تهدأ النار فيه كما لو أن حمية الانتظار ستفرغ مرآة الضياء الذي يتلألأ في رقصة خفيفة.

أتساءل كيف أن رجلاً حزيناً بهذا المقدار ومحارَباً مثلي تمكن من أن يعيش هوى عظيماً، ركاماً من المشاعر المتناقضة، بين سحر وضيق، في فيض من الضياء والجنون. الهوى هو عاصفة هوجاء، نوع من السمو يهلك البلوى. إنها قصة تنتهي دائماً نهاية سيئة. كنت أعرف ذلك بصورة غامضة لأنني عُنيت بصديق ضربته صاعقة الهوى وأوشك على الموت.

ساخطاً وفريسة لقلق الخمسين عاماً التي بلغتها تمكنت من أن أتابع حياتي الصغيرة الهادئة بعض الشيء، وأن أمارس التدريس في كلية الآداب وأنا أكتب كتباً صغيرة متواضعة، أن أنام إلى جانب ابنة عمي المباشرة، زوجتي. التي هي الأخرى مدرّسة للتاريخ والجغرافيا في ثانوية محمد الخامس في مراكش، وكان يصلنا نحن الاثنين أجر محترم ولكن بدون زيادة مما سمح لنا أن نراكم الأحلام بصمت، أحلام برجوازيين صغار عقلاء، أناس هادئين ينتبهون للمصروف ويسألون عن ثمن الأشياء قبل أن يقرروا شراءها، أو يغضوا الطرف عنها حاسبين الحسابات في أن يأخذوا قرضاً لمدة خمسة عشر عاماً أو عشرين. أناس محدودون في لباسهم كما هم في عقلهم، يهتمون بالأخلاق، بالأعراف الاجتماعية، ساعون لأن يكونوا ضمن القانون، أي أن يكونوا جزءاً من هذا الوسط المرعب لأكثرية خاضعة تسمح لنفسها عندما لايكون ثمة خطر كبير بأن

تنتقد الحكومة بقولها إن الفساد قد استشرى في البلاد والناس، وأن الملك رجل ذكي لأنه وحد البلاد ولكن الذين حوله هم الفاسدون. آه! هذه الأكثرية التي تدندن باستيائها بدون نتيجة! التي تقول إن المراكشيين أناس ذوو خصال حميدة ولكنهم مع الأسف مأخوذون بخناقهم بصعوبات الحياة اليومية، بخوفهم من أن يصبحوا يوماً معوزين، أو أن يشي بهم بواب العمارة الذي يكوِّر خواتيم الشهر معطياً كل المعلومات الممكنة إلى الشرطة. آه، الخوف حتى البطن من أن يأتي يوم يقعون فيه بين أيدي هذه الشرطة المتوحشة مع الفقراء والمداهنة مع الأقوياء، هذا الوسواس في المحافظة على النظام. آه! من هذه المغرب! كما كان يقول محمد خير الدين، هذه المغرب التي نحبها والتي تؤلمنا، هذه المراكش التي تنقصها الجرأة والجنون، حيث يوجد تقليد في أن يعيش المرء في ترتيبات معينة، باستثنائي أنا الذي لم أتمكن قط من إجراء مثل هذه التسويات، هذه التوازنات التي تتحقق في إطار من البرودة التي تسبب لي الصداع والأرق. آه! هذا المغرب! كان بإمكاني أن أستمر في النوم إلى جانب زوجتي الشجاعة ذات البشرة الناصعة البياض، ذات الجسد المتعب بعد ولادتين وإجهاض، وأن أنتظر ساعة التقاعد من التعليم الوطني لأتفرغ تماماً للكتابة، أو ربما أباشر في تدبيج الكتاب الذي حلمت بكتابته منذ أن كنت فتى يافعاً. أقول لنفسي: (تستطيع أن تسخر مني، ولكن عندما يحلم المرء يجب أن يكون حلمه كبيراً): ستكون هذه أوديستي الخاصة؛ أوديستي الصغيرة، أقل ضخامة ولكنها معقدة وغريبة مثل أوديسة «عوليس» جيمس جويس، أوديسة مغربية صغيرة، ستكون جديدة وليست سيئة أبداً، يومية لاربي بينيا، أو ليوبولد بلوم ولكنها مغربية، في قلب فاس، في المدينة، بلدة متاهة من القرن الحادي عشر حيث تتوالى الأحداث في حركة متواترة من أجل إعداد ملحمة عامة للمغرب الذي هو القسم الغربي من المشرق، وليس أقل من ذلك! من حسن الحظ أنه لم يسمعني أحد، ويبقى هذا بيننا، مشروع كبير جداً حتى أن أرقي المتمادي أفقدني

الصبر، وأصبحت على بعد بضعة كيلومترات من الإعياء ومن المكابرة والإصرار، ومن التعب ومن لاشيء، بلى، إن اللاشيء يجب أن يُهمل، إنه يرزح بثقله غير المرئي، بخفته المدَّعاة، ولكن الواقع أن اللاشيء هو ذلك الذي يأكل الكثير من الحيوات. أخيراً، طموحي واسع. ولكن لكي أكتب مثل هذا الكتاب الكبير لابد، كما يقول جان جينيه، من أن يخالطه شقاء كبير. إذن، حتى لو أنني كنت مهيأً ظاهرياً لاستقبال مصائب كبيرة فإنني أفعل كل شيء لتجنبها، وهذا طبيعي، تلك غريزتي في البقاء. أن أتألم، أريد ذلك، ولكن ليس كثيراً. والواقع أنا مثل كل الناس وهذا ما يقلقني، وأنا لاأستطيع أن أتغير بين يوم وآخر لمجرد أنني اشتهيت كتابة أوديسة عن فاس. أعرف أن علي أن أغير شيئاً في طريقة حياتي، فأنا لن أقضي حياتي في تعليم الأدب المقارن لطلاب يضجرون ويضجرونني، والذين يجدون أنفسهم غالباً عاطلين عن العمل وشهادتهم في جيوبهم، ولا أن أكتب قصصاً صغيرة بدون عمق وأنا أحلم بأن أُعدَّ نفسي يوماً لتأليف الكتاب الكبير. لن أقضي حياتي مع امرأة لم أعد أحبها منذ زمن طويل، والتي تملأ بطنها بالشوكولا في كل مرة أضاجعها حتى أن قضيبي يرتخي عندما أدخله فيها. زوجة سليمة النية ولكنها تستسلم لرغائبها كثيراً، حتى أن مؤخرتها أخذت أبعاداً مذهلة، وجلدها انتفخ تماماً بالتهاب متورم. امرأة تتذمر وتشتكي طول الوقت، تبكي غالباً، تعبد وصفات السعادة المذكورة في كتاب أمريكي لابد أن يسمى شيئاً مثل «طرق السعادة السبع للمرأة ذات الأربعين عاماً متبوعة بنشرة عن معرفة الإغواء بعد انقطاع الطمث»، وأخيراً قراءات توقف شعر رأسي، ولكن لابد من القول بأنها لم تكن دائماً بلهاء إلى هذا الحد، وذلك غلطي، لقد أهملتها قليلاً، تركتها تعتني بالأطفال الذين لم أرهم وهم يكبرون. واليوم هم كبار، ذهبوا للدراسة في كندا. وجدنا أنفسنا ثانية وحيدين رأساً لرأس، وحيدين، آه، الضيق في هذه الأمسيات التي لاتنتهي حيث أقرأ بينما هي تنظر إلى التلفزيون، أو أحياناً تصحح وظائف

تلاميذها، بينما أتطلع أنا إلى التلفزيون المغربي حيث تتوالى مسلسلات مصرية ومسلسلات مكسيكية مدبلجة إلى العربية الفصحى، وفي النهاية مغامرات حب ممنوع بدءاً من المطبخ حيث نسمع من خلال الباب الذي تركناه نصف مفتوح ونرى جزءاً من الصور، وهنا اكتشفت أننا غريبان ليس لدينا شيء نقوله بعضنا لبعض، أناس يعرفون بعضهم بعضاً بالنظر ولكنهم لم يعودوا يذكرون أنهم تقاسموا أي شيء، أناس ما، لاصالحون ولاطالحون، سوى أنني كنت أغذي طموحاً صغيراً. كان لي على الأقل هذا الحلم المصبوغ بألوان مفرحة، أي أحلام كتابة مُلِحَّة جديدة ومغرية، لماعة ومقلقة، أسلوب يدل على العصر. كنت أريد تماماً أن أدمغ بطابعي موسماً أدبياً، أن أبتعد عن هذا البيت الذي لم يعد يجري فيه شيء، آخذاً طريق الهرب في متاهة الجُمل الطويلة السحرية وأن أكشف عن قلب مدينة فاس، أدفعها وأفاجئها، أعطيها قليلاً من الجنون المستمر في أعصابي، قليلاً من الجرأة السجينة في زوايا الكبت الذي أعانيه. أن أحلم هو شيء حلو لايكلف شيئاً، ثم إنه يبعث الثقة، ولكنني أريد فعلاً أن أُفلت، أن أترك هذه الحياة الضيقة، أذهب لأضيع في مجالات داخلية حيث لاربي بينيا أعاد صنع العالم، مقدماً بذلك رداً على نظيره الإيرلندي، وقائلاً له إن الحياة هي في جوهر التاريخ نفسه، إنها في داخل مايحدث لا في خارجه أبداً. إلا أن ذلك بعيد عن اهتماماتي الحالية، بعيد عن فطومة زوجتي التي أدعوها توما «ثومة في العربية». وأنا أعبر عن نفوري وكذلك عن قلة تقديري واحترامي وأدبي... إنها لاتستحق أن تعامل كهذا. هاأنتم ترون، أحاول ألا أكون ظالماً، إنه أثر طبيعي من آثار الخوف، أعرف ذلك، ولكن ماالعمل إذا فسد كل شيء، إذا زالت طية المكواة. ماالعمل لإنعاش جذوة هي في الأصل ضعيفة الاشتعال؟ كلانا أصبحنا مثل «حذاء عفن، أخضر بلغمي، أزرق فضي، صدئ». آه! الشعور بالإثم! أية تعاسة! إنها تأكلني وتلتصق بجلدي. أحقد على نفسي لأنني وصلت إلى هذه الحالة، حالة النقد الذاتي، وحتى إلى تأنيب الضمير.

ماذا فعلت حتى أكون هنا؟ أو بالأحرى ماالذي لم أفعله وكان علي أن أفعله لأتجنب هذا الشعور بالانحطاط الشخصي؟ بعد كل شيء فطومة غريبة عن قلقي. هي هنا لتنميه، لتحيله إلى إخفاق. زواجنا كان سوء فهم، مصادفة سيئة الترابط. ماكدت أنهي دراستي حتى كانت ابنة عمي جاهزة، عرفتني عليها والدتي وأخواتي. فطومة كانت ذات فتنة، ممتلئة الجسم. لم يكن لنا الحق في المغازلة إلا بعد إقامة عقد للزواج. تلك هي القاعدة في تلك السنوات. لم أملك الوقت للتفكير. ارتمت بين ذراعي مثل ثمرة ناضجة. في البداية وجدت في الزواج مزايا مسلية. كانت تتملكني فكرة إنشاء عائلة، أن أخلف أولاداً وخاصة أن أكون ضمن القاعدة والمعايير، أن أكون مثل كل الناس. مريح أن يكون المرء مثل الآخرين، هذا مطمئن، هو محزن بوجه أخص. بسرعة فائقة استقر الروتين في المنزل. قامت المحبة بين العائلتين وقامت بينهما الزيارات في كل وقت وهيؤوا لنا المشاريع. تركت الأمور تجري بسبب كسلي أكثر من مما أكون أريدها أو أرغب فيها. كانت فطومة مبتهجة، تزور أمها مرة كل يوم على الأقل. لم يفرغ بيتنا قط. كنت أبحث عن مكان، عن مكان صغير لي، سجنت نفسي في غرفة خادمة نستعملها للأشياء المهملة. تدبرت أمري لأجد مكاناً أكتب فيه على طرف طاولة فلم أجد، عندئذ استعملت دفة الكوي التي لم يكن علي أن أستند عليها فتدبرت أمري كي أحافظ على توازني. ربما كنت أستطيع الاعتراض، أن أفرض قانوني وأمنع هذه الزيارات المتكررة جداً، أن أقاوم وأكسب طرفاً من أرض في هذا المنزل الشبيه بالسوق. فطومة محتاجة لعائلتي وليس لي أنا. أعترف بأنني لم أملك الحزم وأنني تركت الأمور تجري على عواهنها. اعتمدت على ذكاء الآخرين، على نزاهتهم، على قدرتهم بأن يروا أنني لاأستحسن طرائقهم. كنت ساذجاً وغبياً. عندما فاجأت في أحد الأيام إحدى أخوات زوجتي تنبش في حوائجي ربما وجب علي أن أعترض، ولكنني خجلت منها ولم أقل شيئاً. لم تكف الأمور عن الفساد لأنني لم أعترض عليها. من الجنون

أن يكون الناس بحاجة للعنف وحتى للظلم كي يحترموك. يجب القول إن الفرد في المغرب ليس له وجود، لايعترف به أحد. الأرض الخاصة، الحرية الشخصية نادراً ماحسب لهما حساب. لقد قام النضال من أجل احترام حقوق الإنسان من قبل الدولة، ولكنهم نسوا أن يناضلوا لكي تحترم هذه الحقوق فيما بيننا، في حياتنا اليومية، في جيراننا، في اختلاطاتنا. في نظري إن حقوق الإنسان تبدأ من البيت وتتابع إلى الشارع وإلى مكان العمل وبطبيعة الحال إلى مراكز الشرطة. لكي تحترم فرداً ألا يجب الاعتقاد بأهمية ذاتيته، بهذه الحرية المشروعة التي نحملها فينا والتي تعطينا الحق بأن نوضحها ونظهرها. مع فطومة ليس ثمة أزمات كبيرة سوى موضوع هذا الغزو العائلي. آه! العائلة! تتزوج من فتاة رقيقة جداً، فاتنة ومحبة فلا يلبث أخوتها وأخواتها أن يغزوا بيتك بكل بساطة وسهولة. إنهم على راحتهم. يشربون ويدخنون على هواهم، إنهم سعداء، في بيوتهم، وأنت، أنت تجعل نفسك صغيراً جداً مخافة استياء محبوبتك العزيزة، مخافة أن تنفّرها أو بكل بساطة لتظهر نفسك مسكيناً، نوع الرجل الذي يفضل عزلة صغيرة عن هذا الحشد.
تستطيع أنت القول: هذا أمر عابر، سيفهمون أنهم يزعجونني وينتهي بهم الأمر لأن ينتظروا حتى ندعوهم لكي يشدوا إلينا الرحال. كلا، أنت مخطئ، نحن مغاربة فلماذا نهتف إليكم قبل وصولنا، أية قصة هذه أن نأخذ موعداً، حتى إلى الطبيب يذهب الناس دون إخبار، إذن أنت تريد أن نتصرف مثل الأوروبيين، أناس يحسبون حساباً للوقت، نحن مختلفون، علاقتنا مع الوقت واهية جداً، وأخيراً نحن جميعاً أخوة وأبناء عم. بيتي هو بيتك كما أن بيتك هو بيتنا، هذا هو الوضع فما الذي يدهشك؟ لم تعد مغربياً؟ أصبحت فرنساوياً صغيراً! نعم، كنت أتحدث عن فطومة وعن فشل رابطتنا. الغزو العائلي (أكياس ضخمة من الرمال على رأسي) كشَف عن أشياء أخرى: تنافر الطباع والعادات، غياب السحر والشرارة، مستوى التطلع إلى المستقبل وأحياناً إلى النزول، عدم الاهتمام

بالآخر، لم تعد تراه، غدا شفافاً، حتى ولامزعجاً، إنه هنا ولكن لم نعد نلاحظه، لم نعد نقول بعضنا لبعض مساء الخير أو صباح الخير عند الاستيقاظ، لم يعد أحدنا يتمنى للآخر مايتمناه لنفسه، لم نعد نجلس أمام المرآة ليقول أحدنا للآخر «صباح الخير ياصديقي العزيز، هل نمت جيداً؟ هل كانت أحلامك سارة؟». كلا لم يعد ثمة علامات حنان، اعتدنا على ذلك ثم صرنا نقول لأنفسنا لابد أن الأمر كذلك في كل مكان، أصبحنا نغلق أعيننا وننسى. كنت أرجئ إلى المستقبل لحظة النقاش، ولكن كيف تتحدث إلى شخص لم تعد تراه، لم تعد تعيرني أي اهتمام، لم أكن شخصاً آخر بل أصبحت جزءاً منها مثل العضو الطبيعي في جسدها، العضو غير المرئي الذي يجعلها تتألم، وذلك مثل الجندي الذي يحس الألم في ذراعه الوهمي ومن العبث تذكيره أنه أضاع ذراعه في الحرب، فهو يتشبث ويتألم حقاً. لم أكن في البداية الزوج الوهمي بل جاء ذلك شيئاً فشيئاً. أدركت أن شيئاً في داخلي تنسَّل فهو يذهب قطعة بعد أخرى حتى أتى اليوم الذي لم تعد فيه المرآة تعكس صورتي، لم يعد لي وجه ولاجسد، أصبحت تعبيراً، وهماً ضوئياً، تنهيدة تصنع غبشاً على الواجهة الزجاجية، تلهث وتضيع في ضجة الحنفية، تفر نقطة نقطة. عندئذ لم أعد أنوي القيام بمظاهرة في الشقة وحدي لأعلن عن «تمثال الزوج الذي يوجد في حد ذاته في ديمقراطية زوجية!». لسان من خشب وذهن مراوغ. «افتح عينيك» قال لي أصدقائي الذين ليسوا أصدقاء حميمين، طبيبي الذي يصر على أن أقوم بتحليل فظ وهو يدخن الغليون بطريقة سيئة. حلاّقي الذي حدث أنه أحد أبناء خالات فطومة قال إنه لايشغل نفسه بما لايعنيه، لكنه لايفعل غير ذلك مقلداً الهيئة الحزينة التي أحملها على وجهي. جاري في الطابق نفسه بتعليم من البواب، هو محام عديم الاستقامة، عازب متصلب، يدعي أن له امرأة في كل يوم مما يسمح له بإعطاء الدروس عن الطريقة التي تُتبع مع النساء، قال لي: «لاحاجة بك لأن تثير أعصابك ولو أنني أفهمك جيداً ولكنك لاتريد أن تفتح عينيك». ربما في هذه

اللحظة المحددة قرر رجل أن يفتح عينيه فغرق في أزمة من الشقاء لأنه رأى مارفض دائماً أن يراه. ولكنني أنا أعرف مايجري، لست أعمى، أعرف أنني لست بحاجة لأن أفتح عيني فهذا لايخدمني بشيء إذ لم يعد لدي أي شك عن الإنسانية بشكل عام وعنا نحن الاثنين بوجه أخص.

ولاشك أن هذا الوضوح القاسي هو الذي أنقذني ودفعني للرحيل. كنت جاهزاً، حراً، مستعداً لأن أعيش أخيراً، أن أولد من جديد في عالم آخر، أن أعود إلى الشباب وأنام مبتسماً للحياة في الليل، للحب. آه! الحب، الهوى الذي طالما حلمت به، هذا الشعر الرائع الذي يتدحرج حول جسدي، هذه الطحالب الندية خضراً أو رمادية أو حتى زرقاً تنساب بين أصابعي، هذا الضياء الساطع الذي يناديني باسمي ويدعوني لأن أجلس على مقعد من رمل، هذا التمهل اللذيذ للرغبة الذي يعرف باسمها كل الفوارق الدقيقة في جسدي، يدفئها من جديد، يخترعها من جديد كما كان الأمر في زمن الطفولة. لقد قوضت هذا البيت الذي ضجرت فيه. بيت مليء بالذكريات التي لاتشبه شيئاً، فارغة من كل شيء وخاصة من السنين التي حملتها على ظهري، على وجهي، في قلبي، في عروقي، سنوات لافائدة منها لم تنقطع قط عن حفر أثلام في جلدي، أنهارٍ من المرارة. أجساد مقفرة، قبضات ماء مرمية في وجه الشمس لكي يومض شيء ما فيَّ أو انطلاقاً مني، يصنع ضجة وشكاً، شيء مضيء مثل الحباحب يهدئ الكذب والانتظار والانحطاط. في الوقت الحاضر لم تعد عيناي تنظران إلى الأمام، هما مشدودتان إلى ما أمارسه من حياتي، إلى ماكان والذي لم يعد له وجود. إنهما لاتتقدمان ولا أنا أيضاً. إنني أدفع عني الماضي، القديم، ذلك الذي جرى في مراكش بيديّ المقفّزتين، نعم، من أجل هذا ألبس قفازات حتى في الصيف، لم أعد أريد أن تكون لي علاقة مع الماضي القديم، شيء ما توقف، هذا لابد منه، حي، أنا حي، أفترس وأجترّ سحر ماضٍ آخر عشته خارج بيت الزوجية بعيداً عن المغرب، ماض حديث، لأنه جعلني

أرقص على رأسي مثل بهلوان في فرط حماسته. أفرغُ ثم أمتلئ من جديد مثل بطن نجم ضائع، منعزل في الطبيعة. أما أنا فضعت، أعني أنني انتهيت. لقد أنهيت تجميع جسدي مرقماً الأعضاء التي سأقدمها للعلم، لقد هيأت في ذهني كل شيء ورتبته ويكفيني أن أتخلص من هذه القصة وأن أرويها دون تزوير حتى ولو كنت أحب أن أبالغ بعض الشيء. مثل أحد الأفلام سأبدأ من النهاية. نهاية بالأسود والأبيض مع أزرق من حين إلى حين. سأذهب من وضعي الحالي دون أن أهز الصورة، دون طرفة عين، كما في السينما عدا أن الكلمات أحياناً خائنة قليلة الاصطبار وخطرة، بئس الأمر، اتبعوني، نحن نترك أرض مراكش الحمراء لنستقر في يوم ممطر على شاطئ البحر المتوسط. نعم تجرأت أن أترك كل شيء، قفزت، لم أعد الرجل الذي يسمِّره الخوف، الآن أنا في مكان آخر: سأذكر لكم نابولي وأحياءها الشعبية، محطة نابولي في يوم ريح ومطر، محطة واسعة ووسخة مثل كل المدينة، مكان للعجائب مع ألوان متغيرة وروائح آتية من بعيد، بهارات من أفريقيا ممزوجة بعرق الرجال الذين لايعرفون أين يستقرون، حيث يستطيع المرء أن ينسى. سأذكر لكم الضجة التي تنقلها الريح، صرخات الأطفال الغجر وهم يركضون وراء الإنكليز الخائفين. سأذكر لكم العجوز، جلد صغير مغضّن، منتفخ ومحشو بالطيبة، شخصية روائية، ذاكرة تحس بالألم إذا لزمت الصمت، ذلك بسبب الربو، بسبب خداعات الحياة، سأذكر لكم مومو السنغالي المخالف للقانون، عملاق ذو دماغ صغير، يبيع سقط المتاع على الأرصفة. سأذكر لكم قصة إيدي وجينو، إيزا وأنا، نعم أنا أيضاً أضعت نفسي في قصص الآخرين، أنا أيضاً لي قصة. أنا ذلك الأنا الذي سيختلس يوماً كاملاً من الزمان، يضعه في طي الكتمان ولايحدّث عنه أحداً، يؤطره في ذاكرته كسرٍّ مطلق، السر المخصص ليهيم في بلد مجهول، فوق أرض خيالية، هناك حيث أنا، بديلي، القناع والرعب، أنا الوحيد الذي يتخلى عن أوهام التعويض، أنا البطل الرئيسي لملحمة نسجت من الحزن مع إضاءة تأتي من

وقت لآخر، مع تجميل يجعل الأدغال تغني. سأتجاوز التقاليد والأعراف، الأنظمة والممنوعات لأروي قصة حبي الضائع في نُزُل المساكين، مكان لجميع الدناءات، أكبر بناء بعد المستشفى الرئيسي Hotel - Dieu في باريس، الذي كان في عام 1860 ملجأ لخمسة آلاف وستمئة بائس، أنشيء بدافع شعور بالإثم على يد أحد الملوك الذي جعله ملجأ للمساكين لينسي الناس بذخ قصره الصارخ. ولكن ماذا يفعل المساكين في نُزُل ذي نوافذ واسعة وجدران سميكة ورطوبة ترشح خلال تسعة أشهر من العام. مساكين نابولي أو طنجة أو برشلونة أو تومبوكتو هم جائعون لشيء آخر، أعرف ذلك، تكلموا لي عنه في يوم كنت فيه فوق موقع نابوليّ أبحث عن الوسيلة التي أفهم بها كيف غدا هذا النُزُل ركاماً كبيراً، مخطوطاً منسياً أو بالأحرى تائهاً تحت أرض ذاكرة مليئة بالثقوب، بالخرق البالية، بالأوراق الدهنية، بالملفات التي أصبحت لاتُقرأ، بجرار الشيلم والشعير، بأكياس التراب لحساب الزمان، غدا نادياً للاعبي كرة متقاعدين، مجمعاً للجرذان ولمشردي المدينة، نُزُلاً لعزلة يضمخها كحول صرف ونبيذ رديء، لأعضاء جمعية من الشواذ ربما تحب أن تكون سرية ولكنها ليست إلا تجميعاً لكائنات دمرتهم الحياة فأصبحوا أنقاضاً قبل الأوان تخلى عنهم المجد والحب والمال. كل ذلك يشكل مجتمعاً لافروق فيه، لارأفة فيه، أناس يتشاتمون أو يحيّون بعضهم بعضاً بوفرة وفيض، بحركات كثيرة كما يحدث في المسرح عندما يكون في التمثيلية سوء تفاهم. لاأكف عن مساءلة نفسي كيف قادتني قدماي إلى عتبة هذا النُزُل الذي لايتحرك فيه أحد أو يرسم أحد على صدره إشارة الصليب، حيث الشاذ ارتدى ثوب الضحالة. جدران مفسّخة، أنسجة العناكب في كل الزوايا، رائحة الكلاب الميتة أو الجرذان اليابسة. أنا الذي يعتريني الهلع من هذه الحيوانات الميتة أو الحية، أنا الكاتب الريفي، المدرس الملول، حصلت على فرصة الاشتراك بهذه المسابقة الشهيرة المقدمة من ناشرين إيطاليين ومن عمدة نابولي الجديد أنطونيو باسولينو،

القديس أنطونيو كما يسمونه، وهو شيوعي متحمس وحاذق، ذكي وبراغماتي، شيوعي على الطريقة الإيطالية، أي أنه إيطالي قبل كل شيء، رجل له قدرة ممثل هزلي موهوب نجح في إقناع السائقين بالوقوف عند إشارات المرور الحمر، وعرف كيف يقف في وجه «الكاموررّا»، وأدخل الفن إلى الساحات الكبيرة العامة التي كانت تشغلها قبل ذلك آلاف العربات. قالوا لنا كل ذلك منذ وصولنا. استقبلونا في دار المحافظة في أحد أيام الاثنين صباحاً. كنا بضعة كتاب أتوا من حوالى عشرة بلدان، انتخبنا على أساس أن يكتب كل واحد منا نصاً عن نابولي عن طريق التخيل. كيف ترى نابولي، أنت الذي لاتعرفها، تحدث لنا عن بلدنا انطلاقاً من الإشاعات والأقوال المتواترة التي تدور عن صيتها... كتبت نصاً دون أي أمل في ربح هذه الرحلة. قلت إن نابولي لها أخت توأم هي طنجة. النص كله لم يكن يتحدث إلا عن نابولي، وصفتها وأنا أفكر بطنجة، بمعاناتها الخيالية، بأساطيرها المضحكة، بخرافتها التي حُفظت على يد الشعراء الذين يأتون إليها من كاليفورنيا لتدخين الكيف واصطياد الصبيان، طنجة الصورة المماثلة لنابولي باستثناء «الكامورا»، في جرائم السوق، اجتماعات رؤساء العائلات المشهورة، طنجة التي تكنسها الريح، مكان يقبع فيه سر يستحيل تسميته لأن أحداً لايعرفه، ولكنهم يفعلون هكذا، يتظاهرون بأنهم يعيشون في مدينة رومانسية بدون فرح، بدون حب... يجب غالباً أن يفعل المرء ذلك: أن يكتب عن مدينة لم يكن فيها قط، يكتب الشك، الخيالي عن قصة تحوّم فوق المدينة تحبس الضجيج والأصوات وأنواع الموسيقى التي تهدهد السكان، يحزر ما الذي يثبتهم في هذا المكان دون غيره، يصف الروابط الخفية، التراكيب التي لايشتبه بها أحد، القعر السفلي للمدينة وراء المقابر، يصنع لوحة للحلم، ذلك لأن كل مدينة تملك حلمها الخاص، شيء خاص بها، يشير إليها قبل تسميتها، يقدمها للأنظار، للإحساس بها، يدفعها في الكون الحميم لكل واحد من الناس... حلمت بنابولي في قليل من الكلمات والصور، كما تُنزع عنها ثيابها

بشيء من اللباقة واللطف دون أن تشعر بأن يداً تعبث في ظهرها باحثة عن الفتحة السحرية... حلمت بنابولي مفكراً بستاندال الذي كتب: «منذ أولى أعراض المرض لاينبغي شراء الدواء، يجب الفرار والذهاب لقضاء ثمانية أيام في نابولي أو جزيرة إيشيا...». أنا لاأقدم مديحاً لستاندال ولا لبول دي موسّي شقيق ألفريد، ولا لدوماس، ولالكل هؤلاء الرحالة المشهورين الذين ساقوا المديح لهذا المرفأ المفتوح على العالم وعلى كل الآلام. تكلمت عن انبهاري بنابولي وخاصة عن عدم كفاءتي في أن أقول عنها أي كلام. سذاجتي وصدقي لابد أنهما فتنا لجنة الاختيار التي قدمت مشروعي لسان أنطونيو، وهكذا تلقيت رسالة في أحد الأيام من «نقابة نابولي» (IL SINDACO DI NAPOLI): *«لتدخل في الألف الثالث ستكون نابولي بحاجة لكتاب وشعراء من زوايا العالم الأربع. فكرنا بدعوة كتاب، وشعراء وفنانين لنشهر بإبداعاتهم مدينتنا. مشروعك أعجبنا كثيراً وحُفظ لدى لجنة الاختيار التي أترأسها أنا بنفسي. تستطيع أن تمضي في نابولي أسبوعين أو ثلاثة. بطبيعة الحال سيكون السفر والإقامة على نفقة المدينة، وسيُمنح لك تعويض يومي وستكون حراً تماماً. ينبغي أن تعيد لنا، ويحسن أن يكون ذلك قبل رحيلك عنا، النص الذي ستوحيه لك المدينة، أو على الأكثر بعد شهر من عودتك إلى بلادك...»* وتبع ذلك التحيات المعتادة.

هذا هو مايفسر الانحياز النابولياني. ولكن لو أنني قدرت على أن أتوقع كل شيء، لو أنني علمت أن نابولي سترميني بالحب الكبير لما قمت بهذه الرحلة. كلا، هذا لاينطبق على الواقع، طبعاً كنت سأقوم بها، على أن ذلك لن يكون إلا من أجل أن أرى البلد، أن أتخلص من الضجر المراكشي، الملل الذي يفرزه الجسد الذي لايتحرك إلا بكل بطء.

أيجب أن أذكركم بأن حالتي الحالية تستدعي الرثاء؟ إنها حالة امرئ عاد من رحلة طويلة، غريق، جسد ملتصق بالفظاظة التي يعتقد

أنها غريبة عليه بينما هي مسيطرة، حاضرة، جياشة في كل واحد منا، أنا أيضاً ظننت أن عنف العلاقات بعيد عني، أنه لم يبدأ عندي، لأنني قلت دائماً أنا لاأحب المشاجرات، ولكن المشاجرات تنبثق في غفلة عنا، تصل وتقلب كل شيء رأساً على عقب، يجب أن يكون المرء مستعداً لها ولم أكن كذلك قط. أعرف أن المشاجرات بالنسبة لبعض الناس مسألة جوهرية، إنها محرّك الحياة، الدينامية التي تدفع بالأمور إلى الأمام. أعرف في الوقت الحاضر أن من الغباء القول «إنني أبغض المشاجرات» فهذا لايعني شيئاً، هذه جملة زائدة. أن يقول امرؤ «كلا» إنني شرير فإن أحدهم سيقول «إن كلا هي التي تدل»، تفرض، تحدد، تستبعد، تضع المسافات وتعطي للمشاجرات مكانها الصحيح. آه لو أملك سمعة الرجل الذي يعرف أن يقول «كلا» بدون تردد، بدون غموض، بدون أسف ولا توبيخ من ضمير! الرجل الذي يقطع، يتخذ قرارات بطريقة حازمة وهادئة. ما أزال أحلم بذلك. أن يقول المرء «نعم» لكل شيء، لكل الناس، فكأنه ليس له وجود.

لنعد إلى نابولي

إليكم المشروع المرسل عن طريق البريد إلى لجنة اختيار الكتاب الراغبين بالكتابة عن نابولي:

«عندما أفكر بنابولي أرى امرأة عجوزاً تجلس عند تقاطع شارعين صغيرين يصعدان إلى السماء. المرأة صغيرة الحجم. وجهها تعلوه التجاعيد، عيناها يلمع فيهما الذكاء والخبث. إنها تبيع شيئاً، ربما سجائر أمريكية أو أوراق اليانصيب الوطني. على رأسها خمار أسود، تضع إلى جانبها صحيفة يومية قديمة. هي لاتتكلم مع أحد بل تلاحظ كل ما يتحرك.

عندما أفكر بنابولي في الصيف أرى عرساناً صغار السن يجلسون أمام المصور على واحد من حجارة رصيف المرفأ

الضخمة. صورتهم لابد أنها تنطبع بشكل واضح فوق خلفية المدينة الضبابي. قسم من نابولي يختبئ ويخنق الشائعات التي ترحل كنفخة دخان. نابولي لاتَجن أبداً وتقاوم كل من يستخلص منها جنونها.

عندما أفكر بنابولي في الشتاء أرى سوقاً قوي الإضاءة عند المساء حيث تتكدس المنتجات فوق الأرصفة، حيث كل شيء مغلف بالسكر، حيث الألوان صارخة والروائح قوية. كل شيء مبالغ فيه، الوجوه والصرخات والأيدي والأنوار، البدانة والذكرى.

في آخر ليلة من السنة تحتل السماء نيران من جميع الألوان. كل شيء وهم، شرارات، نجوم منثورة على طرف الغيوم العابرة على طريق الشمال.

عندما أفكر بنابولي في أي يوم نختاره مصادفة أرى المحطة التي تحوي شيئاً إضافياً، زيادة في الحياة ولكنها مترعة بالحاجة والعوَز. أولئك الذين يتقدمون وهم يطرقون الأرض بأحذيتهم ذات النعال المفصلة في أُطُرٍ من المطاط المستعمل، أولئك الذين ينظرون إلى المدينة وهي تفتح أبوابها عند مرورهم ولايخرجون من أحلام العصر المزعجة. يأتون من أفريقيا بأكياس مليئة بالرمل وحقائب مليئة بخرائط جغرافية وكتب في التاريخ وصناديق مليئة بالحكايات وقصص الخرافات. يأتون من الطرف الآخر من البحر في قناني عملاقة رماها الجدود. وجوههم عليها قرن أو يزيد. أيديهم طويلة وثقيلة. المحطة وطنهم، أما نابولي فهي الرغبة والنسيان.

عندما أفكر بنابولي في ليلة أرق أرى شوارع ضيقة وجرذاناً تجري وراء الأطفال العراة. أرى هضبة تنحدر نحو المرفأ وتنزل حمولتها من الأحجار العتيقة، أرى مركباً من الضياء يبتعد نحو الجزر.

أسمع ضجة عربة فاخرة من الذهب تجرها أربعة خيول عربية وهي تحمل دانّوزيو الذي هو على موعد مع امرأة تخونه. أرى فيتّوريو دي سيكا يمشي على رؤوس قدميه على طول رصيف الميناء، تتبعه غانيات متدثرات بثياب من الصوف.

أسمع ضجة الليل وهو يرخي سدوله مثل تويجات زهر على الأرصفة التي تنام عليها فتيات صغيرات.

أقرأ في السماء رسالة ملائكة تركوا منذ قليل مآتم وتركوا في المدينة نيراناً لم تنطفئ بعد، ووعداً بالثأر يوم الأحد عند ساعة القداس في كنيسة سان أندريا.

أرى بياض ليلي يتركني ببطء ويمضي ليستقر في أعالي المدينة مثل كفن يغطي ذكريات مكسورة. أشعر بالبرد يستولي على قدميّ ثم ذراعيّ، أتغطى، أجمّع نفسي، الأرق تخلى عني، أستطيع النوم الآن وحتى أن أحلم بنابولي.

أحلم بنابولي. هذا يشبه نفاد صبر عاشق. أنتظر. أنا في محطة أو في مرفأ. لن أذهب إلى نابولي إلا بحراً. أنتظر. لاأعرف ماذا. نابولي تترعني بصورها المشوشة. حقائبي على الرصيف. كل الناس صعدوا إلى المركب ماعداي. شيء ما يمسكني. حقائبي ابتلع نصفها الإسمنت الطري. قدماي مسمّرتان. أحاول أن أصرخ، أن أطلب النجدة. لايسمعني أحد ولايراني أحد. المركب ترك المرفأ ببطء. أيد تتحرك. نابولي هي في نهاية الرحلة، ولكنني أنا محكوم بأن أحلم بنابولي، مسمراً في مكاني، دائماً على هذا الرصيف الذي أوجَد عليه.

أرى نابولي في عاصفة الحب، في عيون الحب حيث البحر يتلألأ تحت شمس الربيع المتأخرة الباردة. أرى نابولي في ضباب الصباح عندما الأفق يبتلعه قربه من السماء. يحزر المرء الجزُر

ويتبع بعينيه ذلك الثُلم الذي تتركه وراءها المراكب والذي يضيع في الضياء اللامتناهي تاركاً المدينة في ضجيجها الصاخب.

قيل لي إن الفنادق بين المحطة المركزية والمرفأ تحمل أسماء كاذبة: عدن، السلام، ولِمَ ليس الحب؟ وحده فندق التيرمينوس الخالد، الذي لامناص عنه، الذي لايصدَّق، يحتفظ بعناية في جدرانه الطابع المشؤوم الذي قامت عليه شهرته، الكآبة في الأوراق الملونة التي تغطي الجدران، المسكنة في السقف الشديد الانخفاض، القسوة في الأزهار البلاستيكية، القذارة في الممر غير المضاء وفي أعين النادل الجشعة الذي يحلق مرة كل يومين.

يبدو أن نابولي لها أيضاً فندقها التيرمينوس، هناك حيث تنتهي الرحلة، هناك حيث ينطفئ الحلم، هناك حيث لايصل البحر، حيث روائح البحر تحجزها نتانة بطن نابولي السمين، ذلك لأن لنابولي بطنين، الصالح هو في مكان آخر.

2

عندما وصلت إلى نابولي كنت قد أصبحت رجلاً آخر. جسدي أصبح خفيفاً، كان لدي شعور بأنه أُفرغ أثناء الرحلة. الأشياء الثقيلة والقيود والعقد، كل ما كان يعذبني كاد أن يختفي. ذاكرتي غدت اصطفائية. هذا الرحيل كان أكثر من ابتعاد جغرافي. كلا، قطعت المسافة وحسب، ولكنني شعرت بأنني حر حقاً. بقي مع ذلك في أعماقي قليل من هذا الشعور بالذنب القديم. كنت أفكر بفطومة وأحس كأنما في قلبي انقباض. لم أكن أستطيع محوها من ذاكرتي. هي هناك، جالسة بكل ثقلها على مقعد من الجلد الأحمر أمام التلفاز بينما عيناها تحملقان في الصور دون أن ترياها، الدموع تجري فوق خديها فلا تجففها ولاتنبس بكلمة. لها هيئة منهارة، كل شيء كان ينهار دون أن ترى حدوثه. كيف كان بإمكانها أن تشتبه أو تتوقع ماجرى لها؟ مجرد واقع أن زوجها سافر في رحلة لبضعة أسابيع وضعها في حالة من اليأس والضعف. هذه الصورة لامرأة مهجورة وتعيسة كانت لي أمراً لايحتمل لم أتمكن من نسيانها. عندئذ قررت أن أرى فطومة تحت شكل آخر (يجب أن أخترع لأتمكن من البقاء): أن أراها مختلفة، أرق عوداً، أكثر جمالاً، وخاصة موهوبة بالعقل. كنت أراها كما أردت أن تكون: مبتسمة، سعيدة بالحياة، صاحبة خيال، مبدعة. الأخرى، المرأة ذات الأربعين عاماً، المقطبة، المكبوتة، السمينة والشقية، المرأة المحتاجة لأمها

ولأخواتها السبع، ضحيتي، ألمي، تلك التي محت صورتي من المرآة، تلك التي كنت أضطهدها بمثابرة وأنا باق على صمتي مدير ظهري، تلك التي تحملت وجودها كما لو أنها عبء من القدر، فطومة نجمتي الصالحة أو الطالحة غدت أميرة في حلم بعيد في مراكش، محبوسة في واحدة من أجمل غرف قصر في المدينة، محاطة بالخدم ومنتظرة رسائلي. امرأتي لم تعد زوجتي بل امرأة أخذت وجهاً آخر، مظهراً آخر، نظرة من ضياء وذكاء، نعمة وسحراً في كل لحظة. انفصلت عن عائلتها ولم يعد ثمة غزوات. لم تعد بحاجة إلى قبيلتها ملجأ لها. أصبحت زوجاً مجاملاً محباً لدرجة أنني أكتب لها كل يوم. أنا لم أكتب قط إلى زوجتي، ربما لأنني لم أكن أنتظر منها شيئاً، أن أكتشف شيئاً، وخاصة لأنني لاأملك شيئاً أقوله لها. هي كذلك لم تكن تكتب لي. حالتي كانت أخطر: كاتب، حتى ولو من الريف، ربما كان عليه أن يكتب لزوجته من حين لحين. أخيراً بفضل هذا الفرج النابوليتاني سألتقط الزمن الضائع، أصلح الأخطاء، أعدل من سلوكي وينقلب كل شيء. كل شيء كان في رأسي. كان ذلك يسليني ويضحكني وأستمر في الضحك. إليك الأمر، المقصود أن أؤثر في الحقيقة غاطساً في الوهم وأنا مطأطئ الرأس! ذلك هو برنامجي الذي آمنت به كثيراً، وهذا لايخصني إلا وحدي أن أجعل من زوجتي شخصية مهمة، كائناً استثنائياً، سكارليت أوهارا من مراكش، نائرة نفسها للحب المشبوب، للجنون، للفتنة والإثارة. العودة إلى الأرض ستكون مأساوية. أعطيت بذلك إجازة لنا نحن الإثنين اللذين ينضح منهما الصدأ أو الرطوبة لمهاجمة أعصابي وتوازني المزعزع الذي أتعلق به بكل قواي.

تلك هي الحياة المقلوبة، الضجر تحول إلى سرور لطيف، الملل إلى حماسة، الصلصال إلى ذهب، الذهب إلى كلمات، الكلمات إلى انفعالات. لم يبق شيء في مكانه الحزين، أية مفاجأة، الغسق تحول إلى فجر لكل الانتظارات، لكل الآمال، لم يضع أي شيء، حتى فطومة ستصل إلى السعادة، وأنا في الفرصة نفسها سأسترد أخيراً حريتي

والخفة والبعد عن القلق والشعر والموسيقى والفرح. بكل بساطة سأولد من جديد، ولكن كيف حدث هذا؟ ماذا جرى؟ لابد أن هذا قصة كاتب. إنه جنون هذا الذي يخترعه الكتاب وينتهون إلى الإيمان بأوهامهم لدرجة أنهم يعتبرونها حقيقة. كنت أشتهي أن أراها بشكل آخر وأنا مقتنع بأن أي كائن لايمكن أن يتغير أبداً، ليس من أحد يشتهي أن يتخلى عن هذا اليقين، عن قلعته، ولكن ليس من شخص معصوم عن خيال كاتب صغير من الريف، وذلك على قياس ماكنت أطمع فيه. بعد كل شيء لقد غيرتها دون أن أقول لها ذلك. أراها كما أشتهي أن أراها. هذا حقي، كل شيء يجري في رأسي، ذلك لأنها لم تصل قط إلى هذا الملجأ. بقيت دائماً في الخارج، ليس في اليد حيلة، لاحاجة لمفتاح، لاحاجة لأقفال، لرمز للدخول، رأسي، حريتي، أرضي الواسعة التي لانهاية لها، هناك حيث أتمتع بكامل عزلتي المترعة، هناك حيث أخترع أحلاماً مجنونة، هناك حيث وضعت لاربي بينيا شخصيتي التعويذة، إيرلنديٌّ الزهيد الثمن، هناك حيث ما من شخص يأتي ليقطع عليّ صمتي. هذا بدون شك بفضل تلك القلعة الداخلية التي لم أقاومها خلال السنوات التي كانت فيها حياتي الاجتماعية والعائلية مدموغة بالضجر والسطحية. غالباً ما تمشي الكلمات فوق الأحداث حتى أنها تزيحها كما لو أنه تكفي الكتابة لتغيير الحياة. أي وهم! ذلك تدبير مريح له مزية أن يضع منديلاً جميلاً فوق الحقيقة.

تخيلت حباً مجنوناً لزوجتي، لذلك كان علي أن أنسى ما هي عليه. اخترعتها من جديد، وفوجئت لإحساسي بمشاعر حقيقية لشخصية روائية، شخصية ليس لها وجود، أو أنها وجدت تحت شكل أقل فتنة بكثير. هذا ضلال، أوافقكم على ذلك، ولكنني أقاوم بكل الوسائل الكلمات والأوهام.

أراها نقية، بدون فكرة سيئة، متخلصة من عاداتها، بدون هذه الكيلوات الزائدة، رشيقة ودقيقة مثل الغزالة التي يتكلم عنها شعراء الصحراء، بدون خضاب، بدون ادعاء، مخلوقة أحلام، سكوتة،

رصينة، رائقة وخاصة مبتسمة، ليست خاضعة ولامستسلمة. كانت حرة بجنون، حرة تماماً، بدون عوائق، بدون تبصّر. وأنا أيضاً تغيرت، أصبحت أكثر أناقة، أكثر كرماً. من الناحية الجسدية كنت أكثر نحافة. لم أعد أستطيع أن أسميها تومة ولافطومة. لابد أن أجد لها اسماً جميلاً، شيئاً متلاشياً، اسم زهرة، عطر، شعر. سأقول لها «عزيزتي وردة»، طريقة تجعلني في حالة افتتان، في حميمية لطيفة، تمس دون أن تزعج.

عزيزتي وردة

أكتب إليك دون أن أنتظر رسالتك. لابد أنك مندهشة، أوافقك على ذلك. ليس اسمك وردة بل فطمة، المسماة فطومة. هي لعبة، مسرة صغيرة أقدمها لك. عذراً، أقدمها لنفسي آملاً أن تجدي أنت أيضاً فيها فائدة. أعرف أنك لست من أتحدث عنها ومن إليها أتوجه. زوج سكوت وليس كثير الحياة يأخذ فجأة بإسلام نفسه للمراسلة. بعد كل شيء لم يكن لدينا قط الحظ بأن نتحادث. كانت الكلمات تدور بيننا دون أن نتقابل قط. هنا، مع المسافة والتبديل، أجد المسرة في أن أكتب. تستطيعين ألا تقرئي رسالتي، أن ترمي هذه الرسالة في علبة القمامة أو ألا تفتحيها. سيكون ذلك مؤسفاً. هذا حقي. أنا سأفعل كما لو أنك تقرئين رسائلي أو حتى كأنك تردين عليها.

ستقولين لنفسك: هذه نزوة كاتب. ربما، ولكنني أملك الرغبة في أن أتوجه إليك كما لو أن الماضي، ماضينا، ليس له وجود. كما لو أننا تلاقينا منذ قليل وأن رغبتي في إفتانك كبيرة. عندي الكثير من الأمور لأرويها لك. أخشى أن أنسى كل ماوعدت به نفسي في أن أرويه لك. إنه نفاد الصبر هو الذي يدفعني للكتابة هذا الصباح حيث البحر جميل والسماء صافية.

أدعوك وردة لأنني أراك زهرة مشعة في حياتي الجديدة. آمل أن تحبي هذه التسمية. هي بسيطة وجميلة. أعترف لك أنني منذ أن

تركت مراكش أشعر بأنني في حالة حسنة. من أجل محبة الآخرين ألا ينبغي أن يشعر المرء بقليل من الحرية؟ امنحيني هذه الحرية وسأحبك كما تستحقين في أن تكوني محبوبة. تستطيعين الشك في جُملي ولاتصدقين ماأرويه لك، ولكن اعلمي أنني في هذه اللحظة المحددة التي أكتب لك فيها صادق كل الصدق. تذكرين أن حياتنا المشتركة كانت رتيبة خالية من اللعب والضحك. الآن نستطيع أن نحاول التخلص من إهابنا الضيق الشائخ. لاتأخذي ذلك على مأخذ السوء عزيزتي وردة، ولكن بفضل قوة الكلمات والصور ربما أمكننا نحن الاثنين أن ننقَذ. تتساءلين عمَ أتحدث. أراك مندهشة حائرة وأخشى أن يتغلب الغضب على الرغبة في الهزء على القدر الذي كما تعرفينه لايملك الدعابة ولا الصبر. ولكن القدر متهَم. فقد أوجب عليَّ أن أبتعد عن البيت، ألا أتنفس الغبار الأحمر المراكشي. كفاني أن أجد نفسي أمام البحر المتوسط حتى أستسلم للإبحار فوق قصة روكامبولية. ذلك أفضل مايمكن أن يحدث لي. اقرئي. وإذا تكرمتِ فوصلت إلى النهاية فإن شيئاً ما فينا سيتغير. أحس بذلك وأراه.

جرت معي البارحة حكاية غريبة. دعاني صوت في التلفون في الصباح الباكر وقرأ لي هذا النص: «نابولي، الحادي عشر من كانون الثاني 1817 . مدخل فاخر: نزلت ساعة نحو البحر على طريق عريض محفور في الصخر الطري الذي بنيت عليه المدينة ـ متانة الجدران ـ نُزل المساكين ALBERGO DEI POVERI ، العمارة الأولى. وهذا مدهش بطريقة أخرى تختلف عن علبة الملبَّس هذه التي يسمونها في روما باب الشعب».

بعد صمت قال لي الصوت: «أعرفك رجل ثقافة وفكر. هذا النص من ستاندال. تواجد في الساعة الحادية عشرة أمام «نزل المساكين، طريق فوريا VIA FORIA. إذا كنت نبيهاً سترى هناك شيئاً يجهله حتى سكان نابولي».

الصوت ـ ربما هو صوت امرأة ـ لم يترك لي الوقت لأن أطرح

أسئلة. قال: «أنا صديقة لمن تعرفه». فكرت أن ذلك خطأ في رقم الهاتف، على أن ذلك لم يمنعني من الذهاب لأرى. بعد كل شيء ينبغي في نهاية إقامتي أن أكتب شيئاً عن هذه المدينة.

سألت في مكتب استقبال ڤيسبوڤيو عما إذا كان يوجد في نابولي فندق للمساكين. الرجل، وهو مغربي من تافراوُوت TAFRAOUT متزوج من إيطالية، نظر إلي بشيء من الدهشة وقال لي بالعربية:

ـ ألست مسروراً من الفندق؟ كما عرضت عليك في أحد الأيام سأكون سعيداً بأن أستقبلك في بيتي. وامرأتي كذلك. لكن إذا شئت التغيير والذهاب إلى فندق أكثر مناسبة... أستطيع نصحك بالماجستيك، أربع نجوم ومنظر على سور رمادي كبير. أو التيرمينوس، مع التأكيد بأن القطار يمر تحت الغرفة وليس فيها...

ـ كلا، أشكرك على دعوتك. لاأريد تغيير الفندق. أطلب منك معلومات وحسب. حدثوني عن نُزل المساكين. الكاتب الفرنسي ستاندال زاره عام 1817 أود أن أراه. ربما أوحى لي بكتابة قصة.

أخرج الرجل دليلاً وبحث.

ـ ليس من فندق يحمل هذا الاسم. ومع ذلك فإن هذه النشرة هي الأحدث لدليل السياحة. نُزل المساكين! ولكن هذا مزاح! أعرف نابولي أفضل من أغادير. كنت فيها منذ أكثر من عشر سنوات ولم أسمع قط أحداً يتحدث عن هذا الفندق. آسف يا مواطني العزيز. بالمناسبة هل تعرف أن لديّ زيت لوز البربر؟ تلقيت ليترين أرسلتهما لي أمي في الأسبوع الماضي عن طريق ابن عم لي يعمل في صقلية. أود أن أعطيك منه قليلاً. هو نادر وجيد جداً.

ـ شكراً يا مواطني العزيز.

ـ أُدعى حسن، ولكنهم هنا يدعونني توني. تعرف... ليس لنا سمعة حسنة... الناس لايشعرون بالارتياح إذا اعتقدوا أنني لست إيطالياً. ولكنك تعرف أيها الأستاذ، نحن المغاربة الآخرين نحتاج

إلى التكيف. الإيطاليون ودودون. تعرضت لقليل من الأذى في بادئ الأمر مع أهل زوجتي ولكن الأمر الآن حسن، على كل حال أنا سعيد لأن أكون في خدمتك.

وجب عليّ أن أقاطعه لأنه كان مستعداً لأن يروي لي قصة حياته كلها. وعدته أننا في أحد الأيام التي لايعمل فيها ربما ذهبنا سوية لنأكل الكوسكوس الصقلي.

أخذت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يوصلني إلى شارع فوريا.

عندما وصلت إلى وسط هذا الشارع القذر البشع أمام محل صغير فيه متسكع تحيط به الكلاب وهو يكتب في دفتر كبير، فتشت بعينيّ عن هذا البناء القديم مأوى المساكين وتوجهت إلى المتسكع. ودون أن يرفع عينيه عن دفتره قال لي:

ـ هل أنت أعمى؟ هذا البناء إلى اليمين. إنه ضخم غريب الشكل بحيث لايستطيع أحد أن يخطئه.

ربما كان هو من هتف لي هذا الصباح. كلا ليس هذا صوته الذي سمعته. إذن أين هو هذا الشخص الذي دعاني؟ ظاهرياً ليس هو على موعد معي. إنها غلطة اتصال. لابد أنني سمعت أصواتاً، حلمت بأن صوت امرأة طلبت مني أن ألقاها في قبو هذا البناء ذي الأبعاد العملاقة. لاتكوني غيورة. ليس عليك أن تبحثي كثيراً لتفهمي. ثقي بي. بعد كل شيء ليس لديك ماتفقدينه أو تعرضينه للخطر. إنها لعبة. أكتب لك وتحملين إلي السرور في تصديقي.

رأيت جداراً على طول الشارع. وراءه عمارة عتيقة رمادية ذات نوافذ واسعة مفتوحة، زجاجها مكسور، وأخرى مغلقة. فوق ذلك الذي لابد أنه كان المدخل الرئيسي، كتبت هذه الأحرف: (ملجأ ملكي لمساكين كل المملكة). البناء يمتد فوق عدة مئات من الأمتار. المدخل مسدود بباب عال جداً كأنه قوس النصر. الحجر أحمر صدئ يكاد أن يكون أسود. على الشرفات تنمو أعشاب برية. البلدية

أحاطت البناء بسور لحمايته علوه متران ونسيت أن تطليه وبقي على لون الإسمنت. يمكن القول بأنها حاولت أن تخبئه كأنه عار على مدينة نابولي الجميلة، وهذا يشبه قليلاً ما نفعله عندنا عندما نريد تجاهل وجود مدائن الصفيح التي يسكنها المعدمون، وخاصة على طول الأوتوروت الممتد بين الدار البيضاء والرباط، عدا أننا، نحن الآخرين، نستر الجدار بالكلس الحي وننتظر لنبني معبراً لتفادي حدوث بعض حوادث الموت في الناس الذين يجتازون الأوتوروت على الأقدام. على بعد بضعة عشرات الأمتار من هناك فتحة كأنها مدخل نفق دلفت فيه منذ قليل سيارة نقل صغيرة. تبعتها. إنه ممر ذو سقف شديد الارتفاع. لم أجد أحداً يقدم لي أية معلومات. تقدمت نحو نور في العمق. ليس من أحد ذي حياة. سرت بخطى بطيئة وأنا أنظر ورائي. ليس من هر أو كلب. ربما ثمة خُلد ثقيل يجتاز ببطء من اليمين إلى اليسار. كما تعلمين أنا أخاف من الجرذان. لمحت رجلاً في لباس رياضي أمام باب عنبر مضاء في العمق. قلت له إنني أبحث عن «نزل المساكين»، فقال لي:

ـ هنا مقر جمعية الموسيقيين الرياضيين السورياليين. إذا أردت أن تمارس الرياضة معنا اذهب إلى هناك إلى اليسار فتجد أرماندو عازف البيانو الأكتع ليقول لك ماينبغي عليك أن تفعل. لاتخطئ خاصة بالباب، لأنك إذا أزعجت م. ألبرتو حافظ أرشيف المدينة فإنه سيعض لك أذنك. إنه متوحش فاقد الرشد، حسن، عندما رأيت التعب على وجهك وجدت أن من مصلحتك الانضمام إلينا... هنا نحن نأخذ الحياة من جانبها الآخر، الحسن، ذلك الذي يخلصنا من كل المنغصات. هذه فلسفة، أنت تعرف.

ليس من أرماندو ولاألبرتو ولا أكتع، لاأحد يعرف هذا النُزُل. تابعت بحثي. الممر يؤدي إلى ممر آخر يكاد ألا يكون مضاء. في العمق وجدت حداداً قال لي إنه ما من شيء يستحق الرؤية. صدقته بطيبة خاطر. توقف عن فرك قطعة من الحديد، نشف جبينه من العرق، وقال لي:

ـ كل شيء يتعلق بما تبحث عنه. أحياناً يضيع بعض السواح ويصلون إلى الجنون وهم يسألونني أين المخرج. ليس هناك من مخرج. إنه طريق بدون مخرج. ليست هذه حالتك. عرفت قبل أن تدخل هنا أن المخرج لاوجود له، هذا باد على وجهك. ولكن إذا بحثت جيداً وجدت ساحة لتجمع اللصوص في هذا المكان اللعين، ذلك لأننا نحن هنا بضعة أشخاص ضربتنا لعنة، ونختبئ لندفع ثمن أخطائنا. ليس هنا مطهّر بل هو يشبهه. تابع طريقك وأنا على يقين من أنك ستلاقي الفرس المجنحة التي نقلت الأنبياء إلى السماء. وراء الأشياء توجد أشياء أخرى. الظاهر خادع. هيا، اِرحل ولاتعدْ فإن ذلك خير لك!

شكرته وتابعت تقدمي وأنا أقوم بدوران في النفق. توقفت أمام باب عنبر مخلّع. نظرت من خلال ثقب كبير كأنه طابة تنس.

تخيلي يا عزيزتي وردة كل هذه الغرابات تجمعت في نابولي هناك، في هذا الدكان الخلفي للشقاء: في الوسط قارب قديم لصيد السمك رُفع فوق برميلين، وطاولة إحدى أرجلها مكسورة. كرسيان مثقوبان، دراجة بدون مقود. سرير معدني مخفوت، خزانة مرآتها مكسورة، ملء سلة من لعب الأطفال. حقيبة من الكرتون مليئة بالقبعات. ركوة قهوة عتيقة من الخزف. عربة صغيرة مليئة بالطناجر، جهاز هاتف مجمَّع، صورة لفريق من لاعبي كرة القدم. أرجوحة ممتدة بين القارب وإحدى الأشجار اليابسة. حافظة أوراق مبقورة. صُوان لم يُمس يعلوه الغبار. إليكتروفون «صوت سيِّدهِ»، كومة من الأسطوانات 33 دورة. معطف مقروض بالعث معلق على غصن شجرة. مجموعة من آنية الحلويات التي فسدت منذ زمن طويل. لوحة تبدي امرأة سمينة مستلقية على طريقة LAMAJA DENSUDA. إعلان لفيلم الرز المر. مقلاة سوداء وضع فيها ذكر حمام ميت. ميقاتية لعام 1961 وقصاصة جريدة تعود إلى كانون الثاني (يناير) 1981 فيها عنوان كبير «الأرض زلزلت أيضاً لعجز السلطات»، شطافة «BIDET» كسرت إلى نصفين. مظلة

مفتوحة وضعت فوق مقعد أحمر. فوق الأريكة شيء، شيء ضخم يتحرك، ربما حيوان، كلا، هو شيء إنساني يشخر، رجل؟ امرأة؟ الشيء يرتدي عدة سترات اسكوتلاندية حول صدره، سروال منفوخ، ومعطف من أكياس قمامة من اللدائن فُصّلت على شكل غندورة (بلا أكمام). هذا الشيء استدار نحوي. لاحظت سحنة غطاها مسحوق أبيض من الطحين بلا شك، الرُعام في أنفه واللعاب الأصفر بين شفتيه. إنها امرأة. امرأة عجوز يسيل لعابها وتلتقط بيدها بصاقها وتضعه بكل أناقة في قدح للشاي. هي تُعنى بأنفها على الدوام، بطنها منتفخ. تداعبه وهي تمسك بيدها اليمنى قضيب رجلٍ من الخشب أو من اللدائن ـ تبصق عليه وتجعل يدها تنزلق، فخذاها منفرجان تتبول وهي تطلق صرخات من اللذة. لم أفهم ماذا ترطن. نهضت بصقت في فنجان الشاي ووضعته على منضدة. جرذان أتت لتأكل مافيه. تلفاز يقبع أمام المقعد. شاشته محزّزة، ولكن يسمع فيه معلق مباراة في كرم القدم. المرأة نهضت، مشت بصعوبة وضربت بقدمها قدح الشاي. الجرذان هربت. نجحت في أن تمسك بواحد منها وتدخله في سروالها وأخذت تقوم بحركات كما لو أنها ترقص على موسيقى تتخيلها. أخذت مقص حلاقة وأخرجت الجرذ من إحدى جيوبها وقطعت رأسه وهي مبتهجة. تعرفين يا صديقتي العزيزة خوفي من الجرذان. منذ أن ضعت كنت أراها في كل مكان. وقفت فجأة ونظرت باتجاه الثقب الذي كنت أراقبها من خلاله. أحست بوجود شخص وراء الباب. استرخت على المقعد وتنهدت، نظرت إلى الباب وقالت: «ادخل! أعرف أنك هنا، ليس عليك إلا أن تدفع الباب بقوة. تعال إنني في انتظارك أيها الخبيث الصغير».

أعترف لك ياعزيزتي وردة أنني خفت. ترددت. ثم انفتح الباب وحده وهاأنذا أمام هذا الشيء ذي النفَس النتن ـ مزيج من الثوم والجعة ـ الذي أمرني بالجلوس على المنضدة. في اللحظة التي أوشكت فيها أن أفعل ذلك غيرت رأيها وأشارت لي أن أجلس على

صندوق التلفزيون. شعرت فجأة بالرغبة بالفرار ولكن شيئاً في داخلي كان يقول لي بأن أبقى. كنت في ساحة العجائب التي تشبه قليلاً سوق جوتيّة حيث الناس الشديدو الفقر يبيعون الأشياء المكسورة والثياب العتيقة والطناجر المستعملة.

ـ من أين أتيت؟

ـ من المغرب، مدينة مراكش.

ـ آه، غريب، أيضاً غريب. عربي، يهودي أم مسلم، ذلك لايهم. أحب الغرباء. أفضلهم على أبناء البغايا الإيطاليين هؤلاء الذين يتحركون كثيراً ولايفعلون شيئاً. ولكن انتبه. الأجانب الذين أحبهم أغنياء وعابرون، تلك هي حالك أليس كذلك؟

ـ أنا عابر. غني، كلا. لست فقيراً جداً كذلك. أعيش عيشة متواضعة...

ـ آه. لاأحب الناس الذين يبقون في الوسط، لاأغنياء ولافقراء. لاأقوياء ولاضعفاء. لابيضاً ولاسوداً. لاضخاماً ولاهزيلين. لاباردين ولاساخنين. لاأحب أولئك الذين ليسوا كذلك وليسوا كذلك. اختر معسكرك، الفاترون يجب ألا يكون لهم وجود...

ـ أنتِ على حق. ولكن لايفعل الإنسان كل مايريد...

ـ أنتَ من النوع الحصيف. قليل من القلق وقليل من التسامح. الرجل الذي يريد أن يقدم السرور إلى كل الناس، لايغضبهم ولايعاكسهم. حسن، لاأريد أن أحاكمك، لم أعرفك بعد. ولكنني قليلاً ما أنخدع. ماذا تريد، لم أنت هنا، أنت مع ذلك لم تأت من جنوبي المغرب لتحدثني عن قصة قلب فاشل؟.

ـ معكِ من المفيد أن يقول المرء الحقيقة. أنا هنا لأكتب شيئاً عن نابولي، ربما كتاب.

ـ كتاب عن نابولي! لست بحاجة لكتابته. أنا كتاب نابولي. كل شيء هنا: الجمال، الشمس، اللوتو (لعبة من ألعاب الورق)، إنهم

أجدادي الذين اخترعوا اللوتو في القرن الثامن عشر، السرقة، الفساد، الجريمة، التجارة غير المشروعة، المحاكم، السجن، النساء، الجنون، اللذة، الذكرى، اللحم، الرذيلة والضحك. أنا ضحِك نابولي. عندما يأخذ المدينة الفرح والغبطة أكون أنا ضحكتها، انفجار ضحكتها. لاتفوح مني رائحة حسنة، هذا طبيعي، أنا المجرور والبستان، صندوق القمامة وأشجار الليمون، القيء واللطافات الممزوجة بالسكّر، أنا رقة الربيع وريح الشتاء، الخير والشر، الذاكرة وتوبيخ الضمير، أنا المكيدة المطلقة التي لم ينجح أي باحث في فهمها. أنا مهرج الرجال الذين أضاعتهم المخدرات والنساء والكحول. آه! ذلك النفس الذي يخرج من فمي الخالي من الأسنان! يجعلني ساخنة. يقولون إنه نتن. أهزأ من ذلك. إنه يصحبني في كل مكان. كلما شعرت به قوياً ولاذعاً كلما عرفت أنني حية. أما نابولي فهي خالدة. خالدة مثل الرذيلة. هل ترى في وجهي أقل أثر للمرض أو الموت؟ كلا. نابولي فتنت الكثير والكثير من الناس. ماتوا كلهم، أما أنا فأنا دائماً هنا.

لقد أدركت ياعزيزتي وردة أنني لم أنبس ببنت شفة. يجب أن أقول لك بأنني كنت مفتوناً بهذه الشخصية التي تستحق أن تعرض في معرض للوحات المتشردين لرسامين أندلسيين. كنت مذهولاً، مشدوهاً، لم أكن أعرف ماذا أقول ولاماذا أفعل. عندئذ غيرت لهجتها وقالت لي:

ـ ينبغي أن أقول لك لِمَ أنا هنا. أشعر أنك تائه، ولكنك شجاع وهذا بادٍ. بصورة عامة أنا أحب الشجعان. ولكن يجب عليك أن تخبئ لعبتي أو بالأحرى يجب أن أساعدك كي تُخرج منك ماهو أكثر أهمية. سنرى ذلك فيما بعد. أما الآن فتابع الإصغاء إلي ولاتعط بالك للجرذان.

ـ أخاف الجرذان.

ـ قلة اعتياد. الأمر هكذا، المرء ينساها، تصبح مألوفة. إليك

الأمر: كنت آخر النزلاء في نزل المساكين، الأخيرة تماماً، آخر القائمة، قائمة طويلة جداً. بعضهم ماتوا من الشيخوخة والحزن. آخرون قتلوا لابتلاعهم سم الجرذان. آخرون وضعوا في ملاجئ للعجائز، أقصد الشيخوخة، القريبة جداً من المقبرة. يوجد شارع لاجتيازه، تذهب من الملجأ إلى القبر. أنا رفضت أن أتحرك، ليس لأنني مسكينة بل لأنهم لايستطيعون زحزحة عمارة كبيرة من مكانها بهذه السهولة. بلى، أنا وحدي عمارة حقيقية. أيدهشك ذلك؟ بؤسي، إنه بؤس مزيف، مجرد وهم. قدري سُجِّل بطريقة أن أجعل من هذا المكان مركزاً لمن يقاوم ويبني شهرة نابولي. هنا أعيش مثل أميرة. ليس من ضرورة لأن أثبت نسبي.

لحظة صمت. فتنتُ بطلاقة اللسان هذه. نظرت إلى قدميّ ولم أعرف ما أقول. قلت لنفسي: هذه المرأة هي شخصية روائية حقيقية. ينبغي أن أؤلف الكتاب عنها أو على الأقل معها. يكفي أن أصغي إليها. أما أنها تختلق ففي هذا مايكفي من الطرافة، أو تقول الحقيقة فهذا أفضل.

قرأت أفكاري:

ـ أنا متأكدة من أنك تتساءل عما إذا كنت أخترع كل ذلك. هذا ممكن. ماهو مؤكد أنني أعيش ما أخترعه. أنا حارسة قصص الآخرين. تلك هي مهنتي: أتلقى وأحفظ وأحرر وأسجل. كلا، إنك لم تفهم عمَ أتحدث؟ هذا بسيط: الناس يحبون أن يثقوا بي وأنا لاأكره ذلك. حسن، لنعد إليك، إذن مراكش. من أية جهة هي، إلى اليمين أو إلى اليسار وأنت خارج؟

ـ مراكش هي بدء الجنوب المراكشي. هي مدينة ذات أرض حمراء. الناس فيها مضيافون، أصحاب فكاهة غالباً، من عناصر البحر المتوسط دون أن يكون لديهم بحر.

ـ كتاب عن نابولي، يالها من فكرة! لم لايكون كتاباً عن مراكش؟

ـ لأنها أقل أسراراً، أقل ضجيجاً ودماً على الأحجار... ثم إنني كسبت مسابقة. انتُخبت لأكتب كتاباً خاصاً عن نابولي. لم أترك قط مراكش. أنا كاتب متمرن. هنا عندي الفرصة لأخرج قليلاً من قوقعتي. بدأت أشعر فيها بالضيق الذي يؤدي إلى الرطوبة والصدأ. وصفت نابولي في نص صغير دون أن أضع فيها قدميّ قط. ولابد أن ذلك كان مقنعاً كي يدفعوا لي تكاليف السفر والإقامة، وذلك بالنسبة لي غير متوقع وميئوس منه.

ـ لابد أن تعرف ذلك: أنت هنا في نُزل القدر. هنا ستتمكن من متابعة طريقك، ستتبعه حتى آخره، حتى آخر سطر. إعلم أيضاً أنك دخلت هنا في عنبر القصص الكبير. إذا كنت قد أتيت لتدلي إليّ بقصتك فقد أخطأتَ القصد. ليس لدي مزاج الإصغاء إليك. اليوم يوم استراحتي، فأنا لاأعمل يوم الثلاثاء. هذا يوم جمعتي وسبتي. على كل حال أنا لست متأكدة من أنك تملك الكفاية من القمح لتسدد حسابك. ذلك لأنه لايوجد هنا شيء بالمجان. تروي لي قصتك فأسجلها هنا في رأسي ثم أتقيؤها في واحدة من هذه العلب الكرتونية وتشعر أنت بالارتياح. كما قلت لك منذ قليل: هذه مهنتي. إنها ليست ذات مردود كبير ولكنني أحب أن أريح الناس وخاصة عندما يكونون تعساء. حسن. أنت قريب إلى قلبي. أسمح لك بأن تبقى في العنبر لكي تتآلف مع غرائب الأمور. هنا في نابولي إعلم أنه لاشيء أخذ طابعاً طبيعياً. لاأحد ينتظم في الصفوف. كل امرئ مستهدف من العدالة، ولكنهم يملكون فن المراوغة، أن يكونوا هنا وهناك، أن يسرقوا وأن يعطوا، أن يغنوا وأن يبكوا. ماذا تريد أن تكتب عن مدينة لها عدة وجوه، أحياناً مجعدة وأحياناً فتية مخضّبة، وأحياناً ترك فيها الزمن آثاره ولم يعد فيها بريق؟ ينبغي عليك أن تتعلم التواجد في عدة أماكن في الوقت نفسه لتلتقط أصغر صورة فوتوغرافية لنابولي. لقد انسحبت إلى هذا العنبر HANGAR حيث الأشياء الأكثر تنوعاً وشذوذاً تكون أصحابي وشهودي. «البؤس

والنبل MISERIA E NOBILTA»، ذلك هو شعاري. ذلك أنا. أنا سيئة مع الجرذان، أبغضهم، ولكنني أفضلهم على بعض الأشخاص الذين يقززني جبنهم وصغارهم. والله يعلم أن نابولي مليئة بهؤلاء الأوغاد.آه! المنافقون والأشرار الذين يتخذون مظهر البورجوازيين بينما هم ليسوا إلا لصوصاً صغاراً! الجرذان أقطع رؤوسهم بسرور وأعطيها للقطط. هل لاحظت مافعلوا بهذا البناء الواسع؟ تحسبه سفينة نقل في وسط المدينة تماماً. أنيق، هائل، مخيف. سقوف رسمت بفن يغطيها الغبار. نوافذ عالية كما لو أن على المرء أن يمر منها ليذهب إلى السماء. أبواب ذوات جلال. كلها حكم عليها بالدمار. هي هنا لتحرس العدم. سفينة النقل هُجرت. لِمَ، إن الأمر هكذا في هذا البلد. لايعطونك سبباً. الجرذان تركت المركب. ليس كل الجرذان. لست أنا. إنني الخُلد الأكثر قِدماً، الأكثر شيخوخة، الأكثر عنداً في نزل المساكين PAUPERUM HOSPITIUM. أحرس مركب البؤس والنبل العظيم. لن أترك مع ذلك هذا البناء الفاخر لصقليين جعلوا منه مكاناً لتجميع سيارات فاخرة مسروقة من هنا وهناك، أو ليصبح ماخوراً مع خصائص زنجية. أنا حارسة في الليل والنهار لأجمل غلطة في تاريخ نابولي. نزل المساكين! ولكن نابولي كلها لن تكفي لإيواء كل المساكين الذين يندسون بين أصابع البحر، الذين يأتون من صقلية وكالابريا الملعونتين، الذين يرتدون ثياباً مثل الصوَر ثم يسقطون في الفوضى. يتاجرون دون حذر. من حين إلى حين ينفتح باب عند مرورهم ويستقر بهم المقام في واحد من هذه العنابر HANGAR التي أنا مسؤولة عنها أمام الله وأمام الشيطان. لاتنسَ أبداً أيها الغريب، هنا يزاوجون المتناقضات، لاشيء حاسم، كل شيء يتغير، مثل الحياة لاشيء يماثل شيئاً آخر.

شلال الكلمات تدفق عليّ بعنف جميل. سجلت كل ماروته لي. أملك تلك القدرة على أن أحفظ كل شيء. تلك هي أفضلية أولئك الذين

ليس لديهم شيء مهم ليقولوه. على الأقل أستطيع أن أدهش الناس بإظهاري لهم أنني أملك ذاكرة جمل. وكأن العجوز قرأت مافي أفكاري. صححت:

- تقصد ذاكرة فيل؟ كلا أنت على حق، تستطيع أن تختار الحيوان الذي تشاء لتقول لنا إنك تملك ذاكرة حسنة جداً. إذن تابع إصغاءك إليّ بانتباه. كتابك نحن في سبيل كتابته، لنقل تقريباً. ولنعد إلى النُزُل. هل لاحظت لدى اجتيازك الممر بأن أحد العنابر استولت عليه الدولة لتضع فيه أرشيفات المدينة؟ سترى عند خروجك من هنا وجود لائحة معدنية كتب عليها: «أرشيفات محكمة نابولي، أرشيفات الدولة المدنية». أنا أمنع الجرذان من الذهاب للنبش هناك في داخلها. هذا لاينفع في شيء. من الذي يهتم بهذه الأرشيفات؟ ليس أنا. أنت ربما، إذا كنت تريد أن تحشو ذاكرتك بأسماء لانهاية لها. سجلات ولادات ووفيات. صفحات واسعة كتبت باليد وليس لها أية فائدة. بمَ تستطيع أن تريحني معرفتي بأن السيدة لويزا دي دونّو التي يبَلغ عمرها سبعة وسبعين عاماً توفيت في العاشر من نيسان أبريل 1962 . رحلت هي وهذا لايعنيني بشيء، وأنت أيضاً ليس بيدك أن تفعل شيئاً حيال ذلك، أليس كذلك؟ لو أن هذه الأراشيف تتحدث إلينا عن النفس! آه، النفس هذه الغابة من الغليان، هذا الرمل الحار في ليالينا الخالية من الحب، هذا الاتساع الذي ينقلنا إلى السماء أو يغطسنا في هُوى بالغة العمق! الأراشيف تجهل ذلك. أما أنا فلدي مايشبه الحدس عندما ألتقي لأول مرة بشخص، إذ أرى في جزء يسير من الثانية مَم صُنعت نفسه. أنت مثلاً، رأيت فيك فوراً وجهاً وراء وجه، النفس وراء العينين. سأقول لك يوماً ماذا لاحظت. لابد أنك قابلت جيدو، ذلك الذي يتظاهر بأنه يعمل بالحديد. إنه أبله ولكن ليس غبياً. عنده مايقوله ولكنه يضجرني، لاأحب الناس الذين يبعثون الضجر، فالضجر من الأمور المعدية.

ماأزال أجلس فوق صندوق التلفاز أصغي إلى العجوز (وهكذا

سأدعوها منذ الآن) وأنا ألاحظ تفاصيل هذا الديكور لفيلم سيء من أفلام الرعب. رنة من الهاتف قطعت حديثها. بحثت عن الجهاز تحت الوسائد والأغطية والملاءات والجرائد وتحدثت على طريقة أهل نابولي، صرخت ثم وضعت الهاتف تحت أريكتها.

ـ الناس مجانين، قالت لي. على كل حال نساء نابولي مجنونات. لايردن أن يكون لهن عشاق، يردن كلهن أزواجاً، أن يكون لهن أطفال، يطبخن ويغنين أغاني مكرورة. يرفضن أن يتركن نابولي، مثل القطط يحددن أرضهن. لِمَ أتحدث عن نساء نابولي؟ آه! تلك المحادثة الهاتفية! إحدى النساء تريد أن أساعدها في رمي تعويذة على خطيبها الذي وقع في حب سائحة ألمانية. هذا أيضاً أعرف أن أفعله. إذا احتجتَ إلى خدماتي سأكون تحت تصرفك. من أجل كتابك، أنت تعرف، يجب رواية حكايات. ليس أفضل لقول الحق من الحكايات الخيالية، حكايات لاتصدَّق. قلت لك ذلك من قبل وهاأنذا أكرره: أنا كيس مليء بالحكايات، أنا مستودع لكل الحكايات التي جرت في نابولي. إنني لاأبحث عنها بل هي التي تضع نفسها في جيوبي، في بطني، أنا أملك بطناً كبيراً، هل يقرفك هذا؟ هذا كرش محشو بالحياة، بالدموع والضحكات. إذا وضعت رأسك على بطني ستسمع نابولي تعيش وتموت. نوع الضجة يتعلق بالساعة التي تختارها لتسمع بطن المدينة. لاتسد أنفك، الحياة تتعفن، كل ماهو جيد وجميل ينتهي إلى التعفن. إذن اقترب واسمع مايرويه الخليج للمدينة، الهضاب للجبال، الشوارع الضيقة للكنائس المظلمة، الأطفال المحتالون للمارة المستعجلين، الغجر للسياح، سائقو التكسي للسيدات العجائز، خدم المقهى لمتنبئي المستقبل الفاسدين، قارئات أوراق اللعب للسذج من الناس، والفقراء للأجنبي الذي اعتقد أنه فهم نابولي وهو يكتب كتابه! هيا، اجمع إليتيك وامضِ من هنا. تلك هي ساعة مسلسلي التلفزيوني المفضل. يمكنك أن تتفرج معي. إنها مذكرات الفرج الذي تلقى أكبر عدد من القضبان، إنه مثير، «عضو أنثوي» يتذكر ويروي كل شيء بدون خجل وبدون عفة. هذا

مايجب عليك أن تكتبه. لاتكن خجلاً، قليل من البهارات بل كثير من البهارات. هذا حسن... هل صُدمت؟ ألا يتحدثون عن ذلك في بيتك؟ أعرف، أنت تفكر منذ البداية أنني مبتذلة، ولكن أيها الكاتب الصغير، الابتذال ليس هنا حيث تظن.

يجب أن أقول لك، عزيزتي وردة، إن الجوع والتعب في هذه اللحظة أصبحا يسببان لي الغثيان. رأسي كان يدور تحت طوفان هذه الجملة التي تقال بحمية. شعرت بالحاجة لأن أخرج كي أستنشق الهواء. نهضت واتجهت نحو الباب عندما أمسك بي من الزنار كلّاب في نهاية حربة خرج من قصبة صيد سمك مقوّاة وقادني بحركة سريعة نحو المرأة العجوز.

ـ ولكن أين أنت ذاهب؟ صاحت بي. لايتركني أحد، لايهجرني أحد ولامن أجل استنشاق الهواء، أتفهم ذلك؟ إذن اِجلس وتفرج معي على التلفاز. لكي تخرج من هنا يلزمك إذن خروج VISA، أجل إذن خروج مع خاتمي وتوقيعي، إذا لم تحصل على ذلك تبقى هنا. تستطيع أن تصرخ أن تستغيث أن تستدعي أمك أو زوجتك، لن يخرجك أحد من هنا، هل فهمت؟ هنا نحن في الجانب الآخر من المتاهة، والمتاهة هي أنا!

كنت كأنني ملتصق بها. أختنق تحت وطأة الكثير من النتن. أمسكت نفَسي ثم أطلقته وأنا أقول لنفسي: «لم آت مع ذلك إلى نابولي لأخاف من امرأة مجنونة ويُغمى عليّ تحت غيمة كثيفة من القذارة!». على شاشة التلفاز لم يكن ثمة صور، ثلج وحسب. كانت تضحك وتنفجر بالضحك وتعطيني ضربات من كوعها، ولكنني لم أكن أرى شيئاً وراء تلك النقاط الصغيرة اللامعة.

مجنونة، هي كذلك بالتأكيد. أذعنتُ وقررت أن أشترك باللعبة. خاطرت بأن أقدم تعليقاً:

ـ ولكن هذه القصة ليست غريبة، وشخصية المرأة ليست قابلة

للتصديق، وكل هذه الأعضاء التناسلية المنتعظة تبعث على الأسى.

ـ ماهي مشكلتك؟ إنه مسلسل رائع، إنها حياتي كلها هي التي تجري على هذه الشاشة، ولِمَ تتصنع الخبث؟ أنت تعرف حق المعرفة أنه لاتوجد صور على الشاشة، ربما تظن أنني مجنونة...

ـ آه! حسن!

ما كان ينبغي معارضتها. إذا كان ثمة كل هذه الروائح فمزاجي سيكون أكثر تسامحاً. أطفأت التلفاز بطرف قصبة والتفتت إليّ وعيناها مبللتان بعض الشيء، ومدت لي دفتراً وقلماً وقالت:

ـ اكتب لي شيئاً جميلاً. شعراً أو نثراً، قصيدة لتجعل هذا الصخب أكثر احتمالاً. اكتب شيئاً جميلاً، كلمات مغلفة بالأزرق والوردي، ضع فيها قليلاً من الأمل والرقة، أحتاج لذلك لكي أحيا...

فجأة تغيرت، غدت إنسانية، أقل تشنجاً، أقل قذارة، أكثر رقة، ولكن دائماً حزينة. تناولت الدفتر وبقيت صامتاً. هي التي قالت لي أن أتذكر أغنية، أغلقت عينيها وتنهدت. ساد هدوء غريب، حتى الأشياء أصبحت جميلة، حتى رائحة البولة والقيء اختفت. أخذت تشخر بانتظام. الجرذان قبعت على الأرض خلف الأشياء. رغبت أن أكتب لها شيئاً جميلاً وأنا أفكر بأمي:

«أمي، أمي المسكينة التي تؤمن بالله وبرسوله، أمي لاتحب الضجيج في الحياة. مثلك هي تحتاج إلى الرقة. في أعماق عيني تبحث عن البحر وقت هدوئه. لاتتخضبي، انزعي هذا الطحين عن وجهك، دعي روحك تستقر في عينيك. عليها أن تكون طيبة، كان عليها أن تتألم، كان عليكِ أن تكوني سيدة جميلة منذ الوقت الذي كان فيه الجمال يعطيكِ الفرح والضحك والخفة البعيدة عن القلق، في العصر الذي كنت فيه ربيع كل الفصول. هل تمكنتِ أن تعيشي في مكان آخر غير نابولي، في هذا المركب الذي لايتحرك حيث كل شيء فيه خرِب؟ ولكن نابولي استحالت إليك. تلك المدينة ذات الرؤوس المتعددة والبطون من كل القياسات، هذه المدينة ذات العين المهددة

في كل لحظة، ذات النظرة الحارقة والأيدي القذرة هي في سبيلها لأن تجعل من نفسها ذات جمال. وأنا، أنا هنا، في هذا الجحر، أسطّر كلمات حلوة لأبعث السرور في امرأة لها عمر والدتي تغرق في نوم عذب، في سلام غريب عندما تنظر حولها وترى هذه الأشياء مكدسة لتروي حياة، لتذكّر بذكريات لاتكف عن فك الخيط الفضي الذي يمسكها مرتبطة بعضها ببعض...».

تركت الدفتر مفتوحاً على المنضدة ونهضت. لاحظت زوجين من المقصات مفتوحين حمراوين من الصدأ وموضوعين إلى جانب أريكتها، اقتربتُ بدون ضجة ومددت يدي لأخذهما، هنا، تلقيت ضربة على كتفي، وبدون أن تفتح عينيها قالت لي العجوز:

ـ لاتلمس هذا! هذان المقصان الصدئان مفتوحان على هذه الطريقة ليؤجج الكراهية والانتقام. يذكرانني في كل يوم بأن حياتي ليس لها معنى إلا إذا وصلت كراهيتي إلى مقصدها. إذن لاتلمس هذا. كلما صدئا كلما كان ذلك أفضل لما يجب علي أن أفعله. عد إلى مكانك وإلى دفترك، اكتب لي شيئاً جميلاً وقل لنفسك جيداً إنني لست أمك.

لم يبق لدي رغبة في الكتابة. أخذت أراقب القارب الموضوع فوق المناضد. قارب فيه ثقوب. يمكن أن يقال إنها آثار اصطدام رصاصات أو ضربات فأس.

ـ لاتقترب من مركبي، إنه مسكون، صرخت فيّ.

وبما أنني فضولي نظرت من خلال أحد الثقوب، ثمة علب كرتونية محزومة.

ـ كل علبة، أضافت، تحتوي على كتاب كبير، مخطوط مكتوب بأيد مجهولة، يتحدثون فيها عن نابولي كما كانت منذ زمن طويل. هناك علبة للصوص، علبة عن الله، علبة المنافقين، علبة الكذابين، علبة المداهنين، وثمة علبة عن النوم والأحلام. هو جنون مايحلم به

سكان نابولي، من حسن الحظ أنهم ينسون. توجد علبة للمطابخ والخمور، وعلبة كذلك تحتفظ بأخبار المواخير السرية. ثم إذا بحثت جيداً ستجد علبة عن الموت والأدوية تجعلك ترحل عن الدنيا بنعومة، تسجيلات عن آخر المداولات بين المرضى، عناوين مغسلي الموتى، عن النصابين الذين يعملون في المآتم، مخططات للمقابر، حتى أنه يوجد دليل لإجراء حوارات مع الأرواح؛ علبة عن الوعود التي أخلفت وهي في اعتقادي الأضخم حجماً أو على كل حال هي الأثقل. علبة عن الأمراض والأوبئة التي تفشت في نابولي عبر العصور، ثم هناك نهاية النهايات علبة فارغة لاشيء في داخلها وتلك هي التي أفضلها. وهنا على الأرض عندي لك دفتر، أوراق آتية من مصنع الورق الصغير في أمالفي، خذه، عليك أن تملأه، سيكون دفترك وسترده إليّ مليئاً بالحكايات وسأقرؤها، وإذا وجدتها جيدة سأجعل منها كتاباً أصنفه في المكتبة، ليس في مكتبة الجرذان بل في مكتبة المساكين.

غدوت فضولياً أكثر فأكثر كي أعرف بأي تحول في حياتها وصلت إلى نزل المساكين هذا. ربما كانت قصتها تضمها واحدة من هذه العلب الكرتونية. كنت مستغرقاً بهذا التفكير عندما قالت لي:

ـ لن تجد شيئاً في هذه العلب، لاشيء يتعلق بي بشكل مباشر.

نهضت مستندة على عصاها وانحنت قليلاً وأخرجت ضراطاً راعداً، ومررت يدها على فلقة مؤخرتها، وأعادتها نحو أنفها لتشمها:

ـ ليس ثمة ماتخشاه، ليس نتناً، إنها مجرد هواء خرج، تصنع ضجيجاً ولكنها لاتملك رائحة أحشاء الحصان...

عادت إلى أريكتها وبعصاها أشارت إلى التلفاز. اتجهتُ لإشعاله ولكنها أوقفتني وقالت:

ـ التلفاز هو أنا هذا المساء، اجلس واصغِ إلي.

أرتني صندوق قمامة مليئاً بالمتلفات والأشياء المكسورة، وأمرتني أن أجلس فوق غطائه. بمنديلي نظفت الغبار والهباب الذي يغطيه. لم يكن مريحاً وقدماي لاتمسان الأرض. رمتني:

ـ أنت لاتجلس جيداً. المرء دائماً لايجلس جيداً في الحياة. ليس هذا خطيراً. أنت تريد أن تعرف كيف لامرأة ذات مكانة مثلي انتهى أمرها لهذا العنبر؟ قبل ذلك سنشرب قدحاً، انهض، ابحث في الصندوق، ابحث جيداً وستجد قنينة جيدة من الخمر. كنت وضعتها جانباً لدى آخر توقيف لي. لاتخف من غمس يدك في هذا الصندوق التالف، لن يحدث شيء، الجرذان ليست فيه، ولكن تنبه مع ذلك، توجد دفوف ذات مسامير صدئة. يحدث لي أن أستعملها لقتل حيوانات الخلد.

أخرجت قنينة ليس عليها بطاقة:

ـ أتحب النبيذ؟

ـ بلى. ولكن ليس على الريق لم أتناول طعاماً بعد.

ربما كان علي أن أصمت. نهضت، فتحت دولاباً وأخرجت منه قطعة جبن مليئة بالديدان.

ـ أتحب الجبن؟

ـ أوه، نعم...

ـ إذن ستستمتع بالأكل.

رغبت بالتقيؤ ولكن اللحظة لم تكن ملائمة. وضعت قطعة من هذا الجبن الأخضر والأزرق فوق قطعة من البسكوت وفرشتها عليها بسبابتها، ثم أخذت الديدان واحدة واحدة، راقبتها بشهية ووضعتها على طرف لسانها قبل أن تبلعها كلها. جهزت بسكوتة من أجلي مع دودتين أو ثلاث ومدتها إليّ. قلت لنفسي: «إذا رفضت أكلها ستغضب العجوز وربما أصبحت عنيفة أيضاً. وإذا أكلتها سأشعر بالغثيان وأتقيأ في بطني. وما الذي يجب عليَّ أن أبتلعه من أجل كتابة كتاب!».

مثلها ابتلعت البسكوتة في لقمتين وشربت نصف قدح من هذا النبيذ الذي تخلل منذ زمن طويل. لفتت نظرها إلى أنه أصبح مثل خمر جزيرة ماديرا ولكنها لم تصدقني، وشربت من القنينة نفسها ثم بصقت على الأرض وقالت: «أفضّل الجعة» وهي تسحب خيطاً، فتحت ثلاجة لم أكن رأيتها لأنها كانت متسترة وراء ستارة رمادية. فتدحرجت زجاجة جعة حتى رجل مقعدها، انحنت والتقطتها وفتحتها بيدها اليسرى.

ـ ألا تحب الجبنة بالدود؟ قل الحقيقة. لماذا أجبرت نفسك على أكلها؟ من أجل إرضائي أم بدافع من خوف؟ أفضل أن تقول لي «من أجل إرضائك» حتى لو كان هذا مجانباً للصواب. يبعث السرور في النفس أن يستمع المرء إلى كلمات رقيقة. أخيراً أعدك، في المرة القادمة لن أجعلك تأكل رأس الجمل محضراً على البخار، ولاعيون البقر مع الخل، ولاكرش العجل بالعسل، ولسان الخنزير مطبوخاً بالنبيذ... أنت حساس لاتحب إلا مطبخ أمك...

ـ قولي، أستطيع أن أستريح قليلاً، ساعة تماماً، ساعة صمت لايتحدث أثناءها أحد. أحتاج إلى الهدوء، خاصة إذا كنت تنوين رواية حكايتك.

لم ترتح لهذا الطلب. ثم، كما لو أنها شعرت بالعطف علي، أشارت لي أن أتمدد فوق سرير من أسرة المعسكرات موضوع في إحدى زوايا العنبر. كنت دائخاً، أرى صوراً عديدة تتدافع أمامي، أذناي تطنّان، ولكنني أعرف أن هذه الشخصية مصنوعة على القياس لتسكن الكتاب الذي أتأمل أن أكتبه. يجب أن أقول لك ياصديقتي العزيزة أنني نادراً ماملكت مثل هذا الحدس. كان يحصل لي عندما كنت أتنزه في ميدان مراكش الكبير أو في المدينة أن أقابل أناساً أقول عنهم: «لقد صُنعوا من أجل أن يكونوا في رواية». هنا ليس لدي شك. وفي الوقت نفسه أشعر أنها مغامرة حقيقية مزروعة بالفخاخ والمفاجآت. إنني في غاية الإثارة.

هذا اليوم الأول عند العجوز بدا لي طويلاً وغنياً ومتعباً بعض الشيء. نمت كما لو أنني سقطت في بئر عميق وشعرت بالراحة. أية رغبة لم تخامرني في الصعود ثانية إلى سطح العالم. هذا النوم ماعرفته قبل ذلك قط. وعند استيقاظي شعرت أنني أصبحت شخصاً آخر. تغيرت، أو بالأحرى غُيّرت، لم أعد الشخص نفسه. لم أطرح على نفسي حتى سؤالاً لمعرفة لِمَ أنا في هذا المكان ولامع من كنت. وجدت كل هذا طبيعياً كما لو أنني كنت دائماً هناك. لم تكن العجوز في العنبر. غُنيت كيفما كان بزينتي وسعيت لتجهيز القهوة عندما رأيتها تنبثق من الظلمة وفي يدها طبق للإفطار.

- فكرت أنك تستحق إفطاراً جيداً بعد هذه الليلة الأولى التي قضيتها في هذا الجحر، قالت لي.

هذا يا عزيزتي وردة ما عندي أرويه لك الآن. أرجو أن أجد منك رسالة، صفحة، ربما تركت فيها بعضاً من جمل جميلة، إنني بحاجة لأن أقرأ كلمات تخلصني من هذه الدوامة التي تعرفت عليها منذ قليل. الآن لن تستطيعي أن تقولي لي: «ولكن أين ستجد كل ذلك؟»، أنت تعرفين كيف تولد الحكايات، تكبر ثم تضيع في النهر.

أعترف لك أنه يحدث لي أن أبذل كل جهد لأستمر في الكتابة إليك كما لو أنني أتحدث إلى صحراء ذات حصى صغيرة. في يوم ما ستحبط همتي وسأتوقف عن هذه المهزلة. كلا، أنا أمحو هذه الكلمة الأخيرة، الأمر لايتعلق بمهزلة بيننا، بل هي لعبة من جانب واحد. أخيراً إذا كان لديك الصبر في قراءتي، حتى ولو لم تردي علي، فإنني سأتابع كتابتي.

3

عزيزتي وردة

أتخيل أنك تتألمين من قبول أنك لم تعودي تريني في المنزل، أنك لم تعودي تجدينني تحت يديك مستعداً لخدمتك، أن ألعب دور الزوج الذي لايقول شيئاً. يجب أن أعترف لك أن هذا الرحيل يشبه الهروب. لقد وصلت إلى حالة من السخط بحيث أصبحت مستعداً لكل شيء. أنت لم تدركي ماكنت أعانيه. بالنسبة لك كان كل شيء طبيعياً: الأولاد يقومون بدراستهم، أنا أقوم مثلك بالتعليم، طبعاً أنا كنت في الجامعة وأنت في المدرسة الثانوية، وأنني أكسب أكثر منك، ولكنك لم تعرفي أنني أكتب وأختبئ من أجل أن أكتب مثل ولد خجول. لم أنشر شيئاً إذن لست موجوداً ككاتب لافي نظري ولانظر الآخرين. لابد أنك كنت تقولين: «إنه مثقف، رجل فكر، واحد لم يؤخذ بالواقع»، حقاً إن المهمات المنزلية فوق احتمالي.

ينبغي أن تسألي نفسك: «ولكن لِمَ يروي لي كل هذه الحكايات؟» أرغب في أن أريك وجهي، وجهي الحقيقي، ذلك الذي لم تشائي قط أن تريه، بذلك فكرت أن المرء يكشف عن وجهه الغطاء إذا تحدث عنه للآخرين. هذا ماأحاول أن أفعله منذ أن حللت بنابولي، منذ أن كتبت إليك مضفياً عليك اهتماماً خاصاً، مسمياً إياك وردة، وآملاً أن تقتنعي بجمال الأشياء عندما يكون المرء حياً، أقصد عندما يكون سعيداً.

أترك المرأة العجوز تروي جانباً من حياتها. يبدو لي أنها قصة زَينتّها بعض الشيء. وأعتقد أنها لم تشأ أن تكشف عن نفسها دفعة واحدة بدافع من رزانة أو بدافع من لعب أيضاً. فالواقع أنني علمت بعد ذلك أن هذه القصة هي من صنع أحلامها. ربما أحبت كثيراً أن تكون قد عاشت هذا الهوى مع ماركو، ولكن هذا الواقع سنجده في القصة الأخرى من حياته، القصة الحقيقية، تلك التي هي أكثر مأساوية بحيث لاتكشف عن نفسها دفعة واحدة.

قصة العجوز عندما كانت جميلة وفتية

ألأنك لم تأتِ مثل الآخرين لتأتمنني على قصتك رغبتُ في أن أقلب الأدوار وأروي لك قصتي؟ كما تعرف أنا تلك التي أحرر الناس من الحمل الذي يرهقهم. يصلون مثقلين ومتشنجين يروون لي ماجرى لهم، يروون كل شيء دون أن يخبئوا عني أي شيء ويعودون من هنا مستريحين وأحياناً في أفضل حال. إنها مهنتي. حذار من أن تخلط بيني وبين كرسي الاعتراف أو المحترفين لهذا النمط من الخداع. أنا أصغي، أتلقى، أطحن، وأخيراً أصنّف في واحدة من هذه العلب الكرتونية. ومايكادون يفرغون من قصتهم حتى ينسون. والواقع أنني أسقيهم مشروباً أتى به مومو من أفريقيا موطنه الأصلي. يشربون هذا السائل الوردي بلون السكاكر ولاتعود لديهم الرغبة في التفكير في القصة التي سممت حياتهم. ليس كلهم، ليس جينو. هو، رفض أن يشرب وأن ينسى. أنا أيضاً، من جهة أخرى، لاأريد أن أنسى، حتى أنني بحاجة لأن أرويها لنفسي. ستأخذ مكاني وستصغي إليّ بما أنك قلت إنك كاتب.

الآن بعد أن احتسيت قهوتك وأصبحت واحداً من أقربائي، واحداً أستطيع أن أوليه ثقتي، الآن بعد أن تعارفنا جيداً، أستطيع أن أسلم نفسي إليك وأقول لك كل شيء، تقريباً كل شيء. الناس الذين يتحدثون إلي يحبون الانتقاء، يختارون مارتبوه وينسون ماليس في

مصلحتهم. أعرف ذلك وأتظاهر بأنني لم أدرك مايفعلون لأن ذلك يسعدهم. أنا أيضاً أميل لأن أنتقي، لاتحقد عليّ، لقد حذرتك. لاحظ أنك لست مجبراً على تصديقي.

استمع إلى قصتي، اصغِ إليها جيداً.

لن تخرج من هنا إلا بعد أن تسجل كل شيء. من ناحية أخرى، إذا تحريت جيداً ستجد بعض الفضلات من حطام السعادة. ولكن هذا الأمر قصة أخرى. عندنا الوقت. قصتي ليست محسوبة، ربما علي أن أقول: لم تعد محسوبة. قصتك؟ لاتهمني، الزمن وهم. كلنا ضحايا. عندما فهمت أن الزمن لاشيء شعرت أنني تحررت. أنت مازلت شاباً. ربما لديك أوهام. هذا حقك. سأدعك منقوعاً في ملحها حتى تفوح منك رائحة الخل والثوم، حتى تبصق غيظك مليئاً بالمرارة ثم تعيد شحنه بهذا السائل المُحلّى الذي تنام فيه أفاع سامة، والذي قدمه لي صديق فيتنامي في العام 1944 ، عام النعمة عندما تحررت نابولي على يد صقور العالم الجديد.

أنت أيها الغريب، المرسل من شبح السعادة، ابن الخنوع المحارَب، المسافر بدون متاع، بدون أحلام، ظل القدر القادم لينزرع فوق جحري، اصغ إليّ، ولتسقط كل كلمة فوق جلدك مثل جمرة، ولتصبح سائلة وترشح في جسدك حتى الأحشاء. ليس لي شيء ضدك، ولاضد عشيرتك، سلالتك، عائلتك، دينك؛ ولاضد الوتد الذي زرعه أجدادك في أحد الأيام في صقلية أو في رمال المغرب، كلا، أريد فقط أن أساعدك على أن تفتح عينيك على العدو الخفي، ذلك الذي لاينفك يتستر وراء المظاهر الكاذبة، ذلك الذي يتغلغل في اللاشعور ويخدعنا، ذلك الذي يمضي ويجعلنا نعتقد بأننا خالدون، هذا العدو الذي لايُمسَك، الصخرة المليئة بالثقوب، الوجه الذي فلحته التجاعيد، ذلك هو العدو: الزمن.

أنا قطعة من باب كبير طواه النسيان في بساتين تدمر. أنا الشجرة التي انكسرت بفعل العاصفة، في اليوم الذي أفرغ فيه

الطاعون نابولي، في اليوم الذي عض فيه أصحابنا الجرذان الأطفال في نومهم. أنا أضل، أضل...

كن صبوراً إذا أردت أن تعرف قصة أنّا ماريا أرابيلّا التي ربما وُلدت من حُمّةٍ قذفها بركان ڤيزوف فحرقت كل من تحب، كل ماضغط على قلبها، على عينيها، كل ماغسلته دموع عينيها السعيدة. كنت ناراً مدمرة يحبها الرجال المجازفون بحياتهم. لم أكن أفعل شيئاً لاجتذابهم. يكفي أن أظهر، أن أكون هناك، في جمالي الطبيعي، في اتساق الأشياء. كانوا يقولون لي إنني أملك أجمل عينين في نابولي. انظر إليهما، إنهما ماتزالان جميلتين، زرقاوين مثل زرقة السماء. أنت تعلم، العينان وحدهما هما اللتان لاينال منهما تقدم العمر أبداً. العمر يمضي ولايلمسهما. كان لي شعر طويل ناعم مثل الحرير. لم ألجأ إلى صباغته قط إلا بالحناء المجلوبة من المغرب. كنت رشيقة القوام، بلى، خبيثة صغيرة، مرنة العود ورشيقة، ذات صدر ثابت، كشحان عريضان، تماماً كما يجب لكي أمارس الحب. جلدي، آه! جلدي يُدهن بزيت خصوصي يجلب إلي من تونس، جلدي بلون العسل الطبيعي! هذا الجسد رعيته بكل سعادة، كنت أحب أن أهتم به وأنا أقول لنفسي إنه غلاف النفس، الغلالة الخفية لأعمق التنهدات.

سكنت بيتاً في أعالي بوسيليبو مقابل خليج نابولي. لم يكن البيت كبيراً ولكنه يقع وسط حديقة كبيرة ذات مسطحات. كانت لي عاداتي. في نحو من الساعة السابعة مساء أجلس في الشرفة الزرقاء مسترخية على وسائد كبيرة، أشرب وأنظر إلى المدينة يلفها المساء وتبدأ أنوارها بالضياء. ليس لأحد أن يزعجني. هذه الساعة من الهدوء مقدسة عندي. انطلاقاً من الساعة العشرين كان عشاقي يستطيعون أن يكلموني بالهاتف. هذا أحد الطقوس. وينبغي عليهم إغوائي من جديد، إقناعي بأنني الأكثر جمالاً والأكثر ذكاء بين النساء... وأنا أختار ليس ذلك الذي يطلق لي الوعود أكثر من غيره بل ذلك الذي يضحكني أكثر من الآخرين. آه! الرجل الذي لايعرف

كيف يضحك امرأة لاينبغي له أن يضاجع! الرجولة لاتكمن في العضلات، إنها في الذكاء. أنا لاأحب إلا الرجال الذين يملكون الذكاء والدعابة وخفة الروح. إنهم سلعة نادرة.

نابولي هي مدينة طبيعية، متوحشة، مفترسة، لاتشفق ولاترحم. الرجال يعرفون ذلك ويتجنبون التباطؤ. لاتثبت علي عينيك هكذا. أنا ضخمة ولكنني لست ثقيلة. لدي القليل من الربو وأتنفس بصعوبة... هواء نابولي مليء بذرات دقيقة سود لهن هوس مغضب بأن يأتين للتوضع في الرئتين. الأفضل أن تنظر إلى عينيّ، هل هما تعبتان؟ هل هما ناعستان؟ أجل أعرف أنك تقول لنفسك: كيف استطاعت أن تفتن كل هؤلاء الرجال؟ اطمئن، أنا أتساءل عن ذلك أيضاً. أنت تبحث بعينيك الصغيرتين، عيني مفتش محتار، عن المخلّفات، مخلّفات جمالي. توقف عن البحث. إنها هنا في أعماق صدري، هنا حيث لايدخل إلا الهواء الضروري للمحافظة على تنفسي في الحياة. أنت تجدني مدعية. هذا مادمرني: الادعاء، العجرفة، التوهم بخلود الأشياء.

كنت غنية وجميلة ومحاطة، محسودة وذات حاشية من حولي. أخي وأنا ورثنا ذلك البيت الجميل. كان لي مدخول أعيش منه براحة ولاأرغب بالعمل. بشهادتي في هندسة العمارة ربما كان بإمكاني أن أبني القصور، ولكنني لم أشأ أن أبني إلا بيتاً صغيراً معلقاً على صخرة تشرف على البحر. لم يطلب مني أحد أن أفعل ذلك. عندئذ نسيت فن العمارة. كانت نابولي تحت أقدامي... حتى اليوم الذي التقيت فيه بماركو ابن ماريليا خادمتي التي كانت دائماً مسربلة بالسواد. كانت تحدثني عن أولادها متذمرة منهم. كلهم في أعمالهم، قالت لي. أية أعمال؟ التجارة غير المشروعة، المخادعات الصغيرة، البؤس اليومي، السرقات، السجن، الحرية المشروطة... على وجه الدقة وجدت نفسي أتدخل لإطلاق سراح ماركو ابنها البكر. كان محكوماً بسنة سجن. ترك السجن في نهاية أشهر سبعة لحسن سلوكه وبفضل محاميّ أيضاً. لم أحتط لنفسي، كم كنت ساذجة!

ومـاركو ماركو الـجميل ارتدى لباس عريس فتي وأتى ليشكرني. قبّل يدي. عيناه السوداوان تلمعان ببريق خفي. كان جماله مفرطاً زائداً عن المألوف. هذا كثير. جلدٌ لوَّحته الشمس الصقليّة، كتفان عريضان، شعر أجعد شديد السواد، فم كثيف وأناقة تبعث الرجفة في الأوصال. حدث أنه لايجيد التصرف، مبتذل بعض الشيء كما لو أنه لايستطيع الفكاك من أصوله الريفية. يتحدث لهجة نابولي مع لكنة خفيفة. والواقع أنه أعجبني لأنه كان مضحكاً دون أن يبذل جهداً من أجل ذلك. فُتنت فوراً، ليس تماماً مايسمونه ضربة الصاعقة، بل رغبة مجنونة في أن أضعه في سريري، أنا التي ربما استطعت أن أكون أمه. هذه الرغبة أصبحت ملحة. كنت أحلم بفمه وأتخيل عضوه في بطني. فهم أنني أشتهيه وأصبحنا عاشقين بسرعة بالغة. لم نكن نتحادث إلا نادراً. حرثني حتى أزهق أنفاسي. وجدت دوائي: عضو ماركو. إنه مختلف عن بقية الرجال. إنه لايتعب أبداً. وجد فيّ مهووسة فاقدة الرشد تماماً تسلم نفسها إليه كل يوم وفي الميقات نفسه، ساعة المغيب التي عينتها الأقدار، في الشرفة الزرقاء. فهمت يوماً أن عليَّ أن أفي بعض ديونه. كنت أدفع دون تفكير ولاحساب. ماركو يأخذ النقود، يركع على ركبتيه، ويضع قبلة شرهة بين فخذيَّ. غدوت عبدة له. والأسوأ من ذلك أنني أحببت أن أكون بعض متاعه. عندما يحدث أن لايطلب مني نقوداً ليدفع لمرابيه كنت أخجل وأشعر أن شيئاً نقصني. حالة المرأة المنتظِرة تفاقمت: ليس فقط لأنني بحاجة إليه في الساعة المحددة بل لأنني صرت أشعر بالحاجة لأن ينتزع مني ثروتي وأملاكي. كان له سيطرة سحرية عليّ. يأتي بدون أن يحلق ذقنه، قذراً، تفوح منه رائحة التعرق وسحنة بحّار، ينزرع أمامي وأطيع الأوامر التي يعطيها لي بالإشارات. ألحس جلده مثل كلبة. يصفعني وأحب ذلك. يضربني وأجد في ذلك لذتي. أصبح جسدي كله مغطى بلطخ زرق. لم أعد أخرج ولاأظهر نفسي. غدوت متاعه وأنا راضية. غدوت امرأة أخرى. بيتي تحول إلى ماخور لأنه يحدث أحياناً أن يأتي مع نساء

أخريات ويمارس معهن الحب أمامي دون أن أعترض. كنت أتحمل، وما أن يمسني حتى أترنح وأصعد إلى السماء السابعة كما يقال. الشيء الوحيد الذي لاأتحمله هو أن يذلني. لم يفعل ذلك، ربما لأنه فهم أن هذا هو الحد الذي لايستطيع له تجاوزاً معي. كنت مترعة بالمشاعر والانفعالات. أما هو فإنه لم يكن إلا ممارساً للحب لاينالة الملل. بدون شعور، بدون رقة ولاحنان.

أمه تركتني وتبعتها خادمات أُخر. لم أقلق من ذلك ولم أسع للتمسك بهن، ولاأن أستبدل بهن أخريات ولاأن أقوم بتنظيف البيت. الصحون تكدست في المطبخ، الغبار غطى المفروشات، أشياء ثمينة اختفت، على الجدران لم يبق إلا آثار الإطارات. عشاقي القدماء لم يعودوا يهتفون. ماركو استغرق أكثر فأكثر في القمار. وعندما لم يعد لدي مال طلبته من أصدقاء، أقرضوني، أعطوني، تصدقوا عليّ. آخرون رفضوا أن يتلقوا مخابراتي الهاتفية، وآخرون نصحوني بأن أذهب لأستشير طبيباً نفسانياً. بالاختصار غدوت مجنونة، مريضة لاشفاء لها. كان معهم الحق. حياتهم، نمط حياتهم لم تعد تعجبني. عرفت أنني أنحدر. عرفت أنني لن أستطيع أن أمسك نفسي وأسترجع رشدي. ضعت ولم أشأ أن أعيش شيئاً آخر. والواقع أنني أنا التي استخدمت ماركو. شيء ما انكسر في هذا الاتساق الذي تعهدته يومياً في فيلّا بوسيليبو. نابولي أفسدتني. بعض الناس يلجؤون إلى المخدرات، آخرون يدمرون أنفسهم بالخمر، أما أنا فاخترت الهوى والإملاق.

وهكذا في عام واحد أضعت كل شيء: أصدقائي، بيتي، أثاث بيتي وعقلي. ماركو انتهى به الأمر بأن جردني من كل شيء. لأحتفظ به بعت نصيبي من البيت لأخي الذي لم يسامحني على نمط الحياة التي أمارسها. كان رجل اقتصاد، حصيف، حيسوب، متزوج، أب صالح لأسرة، ولو أنه يمارس الحب خفية مع رجال.

وهكذا وجدت نفسي في صباح أحد الأيام على باب هذا البيت

الرائع مع حقيبة صغيرة فيها من الأدوية أكثر مما فيها من المجوهرات. ماركو اختفى طبعاً. جررت نفسي في الشوارع وحدي وأنا أهذي مثل مجنونة حقيقية، باحثة عن رجُلي، باحثة عمن يشبهه من الرجال... عبثاً... أصابتني الشيخوخة في بضعة أسابيع. فقدت الضياء في عينيّ. سمنت، كنت أشرب وأتقيأ. احتفظت برأسي، فقدت كل شيء إلا رأسي. تظاهرت بالجنون، هذيت، قلت أي شيء، لم يكن لدي من حاجة لأتظاهر بالإملاق فأنا لم أكن أملك فلساً واحداً.

في اليوم الذي قدمت نفسي فيه لنزل المساكين اشتهيت بكل قوتي أن أموت: اجتزت الشوارع بدون انتباه، كانت السيارات تتجنبني. لم يشأ الموت أن يأخذني. كان هذا عقابي، صليبي ومحنتي: أن أعيش في البأساء على ذكرى نصاب مارس معي الحب بطريقة رائعة.

تلك هي قصتي. ليست عجيبة، هي بالأحرى عادية. أمي قالت لي ذلك بشكل واضح. عندما كنت مراهقة اعتليت الحائط وذهبت للقاء رجل متزوج، مقامر، ولكنه بارع في ممارسة الحب. قالت لي: «سيضيعك الرجال». فهمت العكس مما قالته لي: سأنجو منهم، لن ينالوني! صدقني! كنت دائماً مخدوعة، ماعرفت قط أن أساوم على مفاتني. كنت دائماً عجولة، لست حيسوبة، على العكس من أخي. أحببت الحياة، اللذة، ضياع الرشد... لم أتغير، سوى أنني أضعت أوهامي، أصبحت صلفة ولكن لست قاسية.

بعد برهة وجيزة من الصمت، تمخطت مصدرة ضجة كبيرة وبدأت بالسعال كنت أسمع تنفسها القصير اللاهث. إنها مريضة، نقص في التنفس مثل أبي. رئتاها في حالة سيئة، مثل أبي. إنها ترفض العناية بنفسها وتقاوم رغم كل شيء.

ـ هل سجلت كل شيء؟ تستطيع أن تأخذ رؤوس أقلام، هذا

لايزعجني. أعطني زجاجة جعة قبل أن أروي لك البقية. تبدو مندهشاً لوجود بقية! يجب أن أتحدث لك عن وصولي إلى نزل الشقاء هذا.

بعد أن شربت تجشأت مرتين، أمعنت النظر بالأرض، ثم قالت:

آه، بعد ظهر ذلك اليوم من أيلول (سبتمبر). السماء كانت رمادية، البحر رمادي، وأنا أردت أن أموت في زرقة السماء والبحر ولكن مامن سبيل. قلت لنفسي: «الموت عنيد، لايحب إلا اللون الرمادي». ومع ذلك كان يكفي أن ألقي نفسي بين ذراعيه دون أن أفكر كثيراً بالزرقة وربما كان حملني. على أية حال هذا النزل مخصص تماماً للموت. فما أن دخلت إليه حتى رأيت رجلين قويين يحملان تابوتاً من الخشب رخيصاً ويضعانه في مؤخرة شاحنة صغيرة كانت تفرغ صناديق من الكوكاكولا. وضعت شارة الصليب على صدري لابدافع من إيمان بل من احترام. لست مسيحية. عندما التفتت وجدت نفسي أمام رجل يشبه فيتوريو كاسمان، عجوز وقذر. له وجه حفرته تجاعيد عميقة، ولحية مضى عليها بدون حلاقة بضعة أيام ويد جافة. ما أسميه يداً جافة هي التي لاتعطي شيئاً، يد بدون روح مثل ملعقة من خشب أو من معدن تلتقط، تضرب، تأخذ ولكنها لاتمتد أبداً لتعطي أو لتقدم مساعدة. اسمه جينيروزو! تماماً على عكس ماهو عليه. بواب نزل المساكين هذا له منصب رئيسي إذ هو يتمتع بسلطة، فهو الذي يقبل أو يرفض الدخول إلى البناء. لم أكن أملك أية أوراق بل في حوزتي خاتم وحيد من الذهب أعطيته له قبل أي كلام. وضعني في الطابق الأول، ربما في غرفة المتوفى. الغرفة تفوح منها رائحة المرض والمطهرات ولكن لاتفوح منها رائحة الموت. هنا على الأقل تكيفتُ بسرعة لأن الموت تفوح منه رائحة الجنة. هذا غريب، إنه لاينشر أبداً رائحة سيئة. أما الغرفة فكانت تفوح منها روائح سيئة لنهاية حياة سيئة، الأيام الأخيرة لواحد فاحت منه رائحة نتنة بسبب الوحدة ومفرزات الخروج

والبول. كيف السبيل إلى النوم في ملاءات مثقلة بالمرض؟ في الليلة الأولى نمت على الأرض. استيقظت على ضربات من الرجل على إليتي قدمها إليّ البواب. زمجر لأن خاتمي مزيف وأن عليّ أن أدفع له. خاتمي كان حقاً من الذهب. كنت أحمله دائماً وقد نجا من لصوصية ماركو. قال لي: «انهضي، إنها ساعة الحمام»، دلني على الصالة التي يغتسل فيها الجميع. اكتشفت مشهداً مخزياً لايطاق. الانحطاط الإنساني كان هنا متمثلاً بأجساد في حالة هزال وضعف لاتكاد تتحمل الوقوف، مضطربة، ذليلة لأنهم يغسلونها من نافث ماء كما لو أنها في سجن أو معسكر تجميع. فهمت أن نزل المساكين هو فعلاً ملجأ للحثالات. كنا قِطعاً من الحياة بدون قوة وخاصة بدون كرامة. يجبروننا على أن نكون عراة رجالاً ونساء مختلطين. الماء فاتر لابارد. ثمة رجال يشعرون بالخجل ويضعون أيديهم على أعضائهم، ونساء أرهقتهن الحياة فأطرقن برؤوسهن. هذه الأجساد المعروضة هكذا تحتفظ بجانب من سر: من المستحيل أن يتخيل المرء كيف كانت من قبل، حتى ليمكن القول إنها دائماً مشوهة، إنها مسنة جداً، منحنية الظهور، سقيمة، بدون حياة، بدون فرح، بدون أمل. كنت أنظر إلى نفسي وأقول: «كلا، أنتِ لست مثلهم»، ربما لأنني وصلت من فوري ولأن الإتلاف لم ينجز فعله بعد. كنت إنسانة، ثدياي مازالا ثديين، إليتاي مازالتا إليتين، جسدي مازال يحتفظ برونق الحياة. كنت مدمَّرة من الداخل، الواجهة مازالت جميلة لم يسمها بعد الأذى الذي يقرضني.

بشكل طبيعي، هؤلاء الذين يلجؤون إلى هنا هم منبوذون من الجميع ولم يعودوا يملكون أي شيء. تلك حالتي. عائلتي لم يعد لها وجود منذ زمن طويل. والداي توفيا في المنفى. كانا جزءاً من تلك المجموعة من اليهود الأجانب الذين وُجدوا لسوء حظهم في جنوب فرنسا، أظن أنها نيس، فيما يسمونه المنطقة الحرة. أنت تتحدث عن الحرية! هؤلاء التعساء جرهم إلى هذا الفرار أحد أعمامي المعتوهين الذي ظن أن الإيطاليين سيفعلون مثلما فعل الألمان

وهناك اختفى أثرهم. أما أخي فقد كره محبتي للحياة، شغفي بالرجال والخمر والورود. المشكلة الوحيدة التي تهمه هي المال. عاش تعيساً. زوجته تخونه مع حلاق غدا إسكافياً قبل أن يفتح مقهى. روت لي كيف أن عشيقها أخذها إلى قاعة في عمق الحانة. إنها تعشق الأوضاع الخطرة، وقد تركت الباب نصف مفتوح وهي تسلم نفسها إلى عشيقها صاحب المقهى. أخي لم يشك في شيء لأن البخل حوّله عن زوجته فلم يكن لديه الوقت ليتساءل ماذا تفعل عندما تذهب «لتقوم بنزهة صغيرة». كنت أشجعها على خيانته وحتى أن تسرق ماله.

لاآسف على شيء. عشت. أنفقت مالي. لم أعمل قط. لم أكن مؤهلة لذلك. نسيت كل شيء عن هندسة العمارة. شعرت أن حياتي، حياتي الحقيقية، قد وصلت إلى نهايتها. استمر جسدي في التنفس. ماالعمل؟ أأقتل نفسي؟ خفت أن أخفق. على أنني مازلت أملك في أعماقي شمعة صغيرة جداً بقيت مشتعلة في مكان ما، في كهف، في نفق، في بيت عتيق متروك للوطاويط، للعناكب، للغبار، للرطوبة، لاأدري لماذا، ولكنني رأيت دائماً هذا الضوء. استولى عليّ. رافقني في انحرافاتي.

لن أحيا أبداً تلك اللحظات من السعادة المكثفة في ڤيلّا بوسيليبو. لن أرى أبداً غروب الشمس وأنا مسترخية فوق أرائك ضخمة برفقة أحد عشاقي، قدح من الشمبانيا في يدي، عيني مخضلة ووجهي هادئ رائق. إنه عصر آخر. كيف كان بإمكاني أن أتخيل سقوطي يوماً في جحر تعامل فيه الجرذان بأفضل مما يعامل به البشر؟ كنت أسمعهم يتحدثون عن نزل المساكين كأنه عمارة ذات اتساعات هائلة. ظننت أنه متحف أو ملجأ للممثلين الهزليين العجائز. ربما توهمت أن ألبيرتو سوردي ونينو مانفريدي وڤيتّوريو جاسمان أنهوا حياتهم فيه.

ـ ولكنني أتحدث وأتحدث ونسيت أن أفتح النافذة لأسمح

للوطاويط بالدخول للنوم. ساعدني على النهوض. انتبه. انظر حيث تضع قدميك. إنه فخ رهيب يعض أطراف اللصوص. لايوجد شيء يستحق السرقة ولكنني لاأحب أن ينبش أحد في أغراضي. أحب أغراضي كما هي في فوضاها الجميلة. أنت مختلف، لست لصاً، أنت تعجبني. أوه، ليس لك ماتخشاه! منذ وقت طويل أغلقت نهائياً«فتحتي»، أصبحت جافة العود، عديمة التأثر، مسوّرة بالموت، مالم يعد هذا القذر ماركو إلى الظهور... لم يكن عليّ أن أتحدث هكذا. قل لي، أنت، أيها الشجاع، هل مارست الحب مع عجوز، امرأة مغضنة من كل ناحية، ذات صدر رخو وفارغ، مع إليتين هابطتين؟ هل قبّلت فماً خالياً من الأسنان؟ هل وضعت شفتيك على بطن شعره أبيض ومبعثر؟ آه يا صغيري. أنا لاأسعى لأقرفك من الحب والنساء، اطمئن، حتى أنني لست ساخطة، أبدو دون سني الحقيقية ومامات مني هو الرغبة، الشهوة في أن أنال اللذة، فكرة أن أفتح جسدي لإنسان. هذا هو الأمر ياصديقي، هل فهمت؟ حتى البارحة لم يكن أحدنا يعرف الآخر، والآن أصبحنا رفيقين قديمين متآمرين! أفهم، أنت مفزور، أتعبتك قصتي، أفهم. اذهب، عد إلى فندقك، خذ حماماً، افتح زجاجة نبيذ واشربها على صحتي، على لقائنا، عد إلى عفويتك قليلاً، استرح من العجوز وعد لرؤيتي، فلدينا أشياء وأشياء نقولها بعضنا لبعض...

بعد لحظة من الصمت تابعت:

- قل لي من هو الذي أرسلك إلى هنا؟ هذا مع ذلك غريب. أنا التي لاأثق في العادة بأحد رويت لك كل شيء كما لو أننا نعرف بعضنا بعضاً منذ أمد طويل.

- ربما كان القدر. أتؤمنين بالقدر؟

- هذا يتعلق بالأيام. ماهو القدر؟ سلك من حديد أم سلك من ذهب؟ نحن نملك كلنا سلكاً حول رقابنا. عاجلاً أم آجلاً سيشده أحد: يجرح أو يكسر. الأسوأ ياصديقي هو أن يقتل ببطء.... أخيراً، سلكي أعرف أين هو وسأكون أنا من أشدّه، والزردة ستُزرد...

4

ما من رد فعل بدا من زوجتي. ربما لم تفتح رسائلي وهذا يليق بها. فكرتُ أنني لاأملك شيئاً أقوله وخاصة لها. لقد أخطأتُ، ولكن بما أنني غدوت قليل المبالاة فسأكون أكثر قرباً من الواقع.

إذن لم تعد لدي رغبة في الكتابة إلى وردة. أو أنني ربما سأستمر في كتابة الرسائل التي لن أبعث بها إليها.

لم أكن أشعر بالجوع بل أرغب فقط بالحديث إلى شخص ما وأنا أمشي على طول الخليج. أن أتحدث وحدي في الليل فهذا ليس مستساغاً. أخذت أهبتي للأسوأ: الأرق المرافق بصداع شديد. قد يقول امرؤ إنني أستدعيهما إلى وسادتي. الألم والمرض وضرب الرأس في الجدران، هو ذا ماينتظرني.

أجبرت نفسي على أن أفكر بالعجوز في عنبرها، ولكن الغثيان بلبل أفكاري. حاولت أن أتنفس ببطء عن طريق البطن وأن أفرغ عقلي من كل مايؤلمه.

الصورة التي اخترعتها لوردة وجمّلتها، تلك التي اعتبرتها نور لياليّ، الهوى الذي أحلم به، تلك التي بللتني بالفرح والسعادة بمجرد أن أفكر فيها، هذه الصورة غدت غامضة لكي تختفي في غيمة من

دخان، ذلك لأن نابولي في هذه الليلة على غير عادتها مغطاة بضباب كثيف. كيف يتعلم المرء اليأس في نابولي، مكان الكثير من المهلكات والجنون والهجران؟ لكنني لم آت إلى هنا من أجل ذلك. ليس من أجل أن أغرق في القلق. هذه الليلة لاتخصني. يجب أن أبعد عن عينيّ هذه المرأة المثالية، صورة لاتحتوي على شيء، أن أضعها تحت وسادتي، أن أقبل بألا أدعها تعيش في رأسي وتلفني في عناق أبيض مع الصمت.

جلست على الأرض وثبتت نظري على حافة النافذة. والواقع أن عينيّ كانتا منجذبتين إلى أنوار مركب يترك المرفأ. قصر البيْض كان مضاءً وهم يعرضون على واجهته نسخاً جديدة من أفلام مكبّرة جداً لـ دييغو ريڤيرا و فريدا كاهلو. إنها فكرة سيئة، فالمرء لايرى شيئاً هاماً من الصور طالما أن التكبير عديم التناسق. استغرقت وقتاً قبل أن أعترف بأن صورة هذه المرأة التي قضت حياتها في الآلام أزعجتني. شيء ما أصابني حتى أنني اعتبرتها لاتحتمل. خلال ساعة تابعت توالي الصور مما أراحني وسلّاني. إلا أنني كنت أفكر دائماً بحالة من الفرج، وكان هذا يستولي على كل كياني. ولكن كيف السبيل؟ أهو فطومة، المرأة العديمة الفتنة، أمُّ ولدي الاثنين، التعبة والمتذمرة؟ كلا، الفرج هو امرأة للحب، تلك التي حلمت بها دائماً. كنت معها وسط هذه الليلة الغريبة. أسمع صوتها، ضحكتها، شهيقها البطيء بفعل الحب السعيد، لم أكن أسعى إلى المنطق في هذا الأمر.

تولاني شعور بأن كتابي الذي انطلق بطريقة عجيبة إثر لقائي المرأة العجوز سيتوقف عند هذا الشعور بالخيبة. امرأة الحب لم تكن في اللعبة. ربما لن تكون هناك على الموعد. ولكن كيف سأكون بعد إقامتي في نابولي؟ الكتاب لم يعد له فجأة أي معنى لأن شعوراً واضحاً تملكني بأن تلك التي خصصتها به أغلقت بيتها ووجهها وقلبها.

راودني أمل: الكتاب إذا أكملته يمكن أن يجعلها تغير رأيها. قررت ألا أتوقف عن تقصياتي. انتظرت النهار وأنا جالس على حافة السرير. كنت أول نزيل في الفندق يتناول القهوة.

توجهت باكراً جداً إلى النزل. طفت حوله ولاحظت أن ساحة المدخل قد تحولت موقفاً لسيارات البلدية. الحارس كان يُعد لنفسه منزلاً في أحد المكاتب الذي كان ينبغي له أن يستخدم مكتب استقبال. ثمة غسيل يجفف بين النوافذ وبعض لاقطات التلفاز على الأسطح. تعبت في سبيل أن أجد طريقي. ثمة العديد من المداخل والمخارج إلى القبو. وكانت الممرات التي تحت الأرض تتشعب في رأسي. كنت أدور في حلقة مثل أبله. كنت أبله. ربما ذلك من أثر الهجران. التعاسة تحيل المرء إلى غبي. فقدت كل تمييز. اتخذت لي طريقاً ودرت حول البناء، وقد استغرق مني ذلك نصف ساعة أو يزيد، ولكنني وجدت نفسي ثانية في نقطة انطلاقي. خطر لي أن أسأل الحارس. وضع إصبعه على صدغه وأداره عدة مرات وقال لي:

ـ امرأة عجوز في عنبر؟ ولِمَ لاتكون صوفيا لورين فوق أريكة، تماماً وراء مكتب الاستقبال، وهي تدخن سيجاراً كوبياً وتشرب دموع المسيح وهي تنتظرك؟ كلا لاأحد، أقول تماماً لاأحد يسكن في القبو. على كل حال في حالته الراهنة ليس من كائن بشري يقبل السكنى فيه، لانور، لاماء، كتائب من الجرذان، عناكب، بل وحتى شبح جدتك التي انتقلت من كل المقبرة حتى نزل المساكين المشؤوم هذا! لابد أن الأمر كذلك. فعلاً، إذا قابلت لورين قل لها إن مارسيللو مازال ينتظرها، مارسيللو ماستروواني طبعاً... فعلاً، هل تعرف لِمَ أُغلق النزل؟ ذلك بسبب نماذج على شاكلتك يأتون غالباً بحثاً عن الأشباح يكلف الدولة غالياً وجود شبح! عندئذ سينزل هنا نماذج من المخلوقات لهم هيئة وحشية، ربما قالوا لك إنهم قدموا من كوكب آخر، عيونهم مستديرة، أفواههم فاغرة ثم يسألونك بلهجة مبتذلة:

«ولكن أين ذهبت فلاڤيا؟ وسيلڤانا ألم تترك عندك شيئاً لي؟ وتوني، أنت تعرف الرجل الذي يعرج، أما زال معلقاً على شجرة نويل؟»». الخلاصة أن هذه الساحة غدت ساحة المعجزات. فعلاً، المدينة لم تعد تملك فلساً للاحتفاظ بهذا الوحش. أنت تعرف، يلزم الملايين والملايين للتدفئة والتنظيف وإعادة الطلاء والإصلاح وإعادة الواجهات الزجاجية والأبواب المكسورة والمصابيح المشبكة. وتلزم أموال لدفع أجور كل هؤلاء الموظفين. أنا مثلاً، في النهاية لم يعودوا يدفعون لي، نسوني، قالوا لي: «هيا، اذهب إلى مكان آخر، لسنا بحاجة لحارس». لم تكن لدي الرغبة في أن أنتقل من هنا، لدي عاداتي، فالنزل حتى ولو أُغلق يبقى النزل، أليس كذلك؟

الأرق يجعلك مجنوناً. تركت موقف السيارات القهقرى ولجأت إلى مقهى أستطيع منه رؤية البناء البالغ الضخامة ذي النوافذ البالغة العلو والشرفات المائلة. بلغت أخيراً الميدان الصغير حيث يوجد دائماً المتسكع والكلاب، كان يكتب على ورقة. لابد أنه يعرف إذا ماكانت العجوز امرأة أم شبحاً. اقتربت منه. أشار إليّ أن أبتعد عنه. ألححت. غمغم: «العجوز تنتظرك». جعلته يكرر. كما لو أن معجزة حدثت وجدت من جديد باب العنبر. عرفته من جديد عندما اكتشفت اللوحة الصدئة للجمعية الرياضية. استعدت كل شيء، أصبح كل شيء واضحاً، ركضت إلى باب العنبر ودفعته فوجدت نفسي أمام عملاق أسود ذي عينين لامعتين أخذني من مرفقي وجرني بعنف. قال لي وهو يزمجر: «الآن وصلت أيها الجاحد للجميل! ماكان لك أن تذهب. لقد أسأت لوالدتي. لاأحب ذلك، سأهشّم وجهك...»». لم يكن لدي الوقت لأفتح فمي. من العمق جاء صوت العجوز: «مومو، لاتؤذه كثيراً. أجلسه على الكرسي الكهربائي الصغير، الذي أصلحناه الأحد الماضي، أعطه ضربات صغيرة عادية فإنها ستحسن من حاله، على كل حال هي ستوقظه من جديد بما أنه لم يغلق عينيه هذه الليلة. تنبه، التوتر هنا 110!»».

العملاق جلس على المقعد أمامي وفي يده جهاز التحريك عن بعد. فجأة قفزت وأنا أزمجر: لقد تلقيت من فوري شحنة كهربائية في إليتيّ ضحك وهو يرفس الأرض بقدميه. العجوز بدت في فستان جميل وعلى وجهها منديل رقيق. كنت واقفاً أرتجف وأستعد للفرار.

ـ هذا إنذار. في المرة القادمة سيمرر عليك مومو درجة أعلى. إنه يحب اللهو بهذه الآلة.

ـ ولكن ماذا فعلت حتى أعاقب. لست في مفوضية شرطة...

ـ ولِمَ تريد تفسيراً لكل شيء؟ الأمر هكذا. من يريد أن يعرف نابولي يجب أن يصيبه البلل، يتعرض لبعض الأخطار. لستُ كتاباً تسهل قراءته. أريد تماماً أن أقودك، ولكن ألا أمضغ لك كل شيء. كتاب! أوه! فلنقل أسطورة سقطت أنقاضاً! ليس لدي الرغبة في أن أنهار أمام أنظار الغرباء.

ـ والأفريقي، أليس غريباً؟

ـ مومو هو ابني، ابن الحب، ذكرى الهوى الحية. إنه الابن الذي حصلت عليه من ماركو.

ـ ولكن ماركو صقلي. وأنت لم تتحدثي معي عن هذا الابن في حكايتك...

ـ أنت منطقي، منطقي جداً. ولو أنني قررت أن مومو هو الابن الذي أعطاه لي ماركو فما الذي يزعجك في ذلك؟ وإذا لم أروِ لك كل شيء فإن لي أسبابي. الحياة ليست بهذه السهولة التي تظن.

كانت غاضبة، تصرخ. مومو قبل يديها. رأسه محلوق، والجسد ذو عضلات والقامة مدهشة. مومو كان يتنقل بأناقة مثل راقص قديم. كان لديه مع ذلك شيء ما في نظرته يخون هذه القوة الجسدية. يمكن القول إنه طفل، رجل لينّ أو تائه. كلما ثبتت النظر إليه كلما

غدت عيناه إنسانيتين. إذن لماذا جُعلت أتحمل تجربة الكرسي الكهربائي؟ كان ذلك لتتسلى بدون شك. لم أعد أدري ماأقول، بِمَ أفكر. رغبت في أن أرحل. أن أهجر وجار هذين المجنونين وأنسى نابولي. وفي النهاية ربما أمكنني أن أكتب بطاقات بريدية، نوعاً من انطباعات عن مدينة هي أكثر شراسة وأكثر مرارة وأكثر عصياناً على الفهم مما يظن. العجوز كان لها قدرة مزعجة على قراءة أفكاري.

ـ عندك الرغبة في أن تنسحب... هذا مقروء على وجهك. إنه لايخفي الأسرار، وجهك. أأنت خائف؟ اسمع أيها الصغير، ماعشتَه ليس سوى تعريضاً للتجربة. إذن إنس كل ذلك ولنتابع قصتنا. مومو سيقوم برياضته، سيذهب إلى المحطة ليبيع سقط متاعه.

مومو ركع على ركبتيه، وضع رأسه على بطن العجوز، شمَّ الروائح التي تبعث على الغثيان، وضع يديه على الثديين الضخمين وقال:

ـ باركيني يا أمي. لن أذهب قبل أن أنال بركتك، تعرفين أنني بدونها لاأنجح في شيء. ثم إنني ياأمي لاأبيع سقط المتاع بل هي أشياء رسمها فنانون كبار. أعرف أنها مزيفة، ولكن ماأهمية ذلك؟ في نظري ليس ثمة من فارق.

ـ امضِ، مومو، (الله) الغفور الرحيم، ذلك الذي يعرف ويعطي المعرفة للعلماء، الله الكبير العظيم يحميك ويجعلك ضياء في الظلمات، مشكاة فوق رأس الحاسدين والغيورين والأشرار، أن أموت أنا وتبقى على قيد الحياة وليس العكس لأنني سأموت إن حصل ذلك...

ثم التفتت إلي وقالت:

ـ لابد أن يأتي يوم أباركك فيه أنت أيضاً. لذلك لايكفي أن تؤمن بذلك بل أن تستحقه أيضاً.

مومو نظر إلي وهو يبتسم ومضى وعلى كتفه كيس كبير من اللدائن.

ـ ولكن لِمَ (الله)؟

ـ لأن مومو مسلم. وهو ينتمي إلى جماعة التيجانية في السنغال. هداني إلى الإسلام. إنه جميل، ابني! أنت ترى هذه الصناديق (كلا، ليس صناديق الكرتون التي في القارب)، إنها له، هو يقوم بالمقايضة. ابني ليس لصاً ولكنه يتاجر مع لصوص تافهين. في هذه الصناديق يوجد كل ماتريد: تلفازات، كاميرات، حفاضات للأطفال (الواقع أنها لي. في الليل أتكاسل في النهوض لأتبول فيأتي لي بالحفاضات وأنام مرتاحة. هذا عمليّ)، آلات تصوير، سكاكين، قهوة، وحتى قليل من الحشيش المغربي.

ـ ولكنك يهودية، إذا كانت ذاكرتي لاتخونني.

ـ أيقلقك أن تعرف أنني يهودية ومسلمة في الوقت نفسه؟

ـ ليس هذا ممكناً. لايستطيع المرء أن يكون ذا ديانتين في الوقت نفسه. يجب الاختيار. يمكن ألا يكون البتة ذا دين.

ـ أنت منطقي. ولكن قل لي، هل كل المغاربة منطقيون مثلك؟

ـ كلا! المغاربة منطقيون عندما يلائمهم ذلك، وغير عقلانيين عندما يكون التعقل في غير صالحهم. يقول: «انهبل تربح». تعرفين أنهم يحبون أن يرضوا الآخرين. فهم يقولون لك دائماً «مامن مشكلة، لاتهتم، يمكنك أن تنام بهدوء» الخ. ولكن على المرء أن يعرفهم جيداً لكي يفسر تعابيرهم. بصورة عامة عندما يقول مغربي «مامن مشكلة» فتوقع أن تحصل على ماتبغي. وإن قال لك «إن شاء الله» فهذا يعني «كلا» قيلت بصيغة أخرى مفادها: إن ذلك لايتعلق بي بل بالله. وإن قال لك «لن يحصل إلا الخير» فإن ذلك يعني أنه «في أسوا الحالات لن يحصل شيء» الخ. إذن المنطق ليس من ميزاتهم الأولى.

ـ نعم أنا يهودية. وأنا لم أكن أعرف ذلك قبل أن يتعرض والداي لعدوان على أيدي فرنسيين. لم يكونا يمارسان شؤون الدين. لست يهودية جيدة. أما الإسلام فإنني لاأهتم بأمره، لايهمني أي دين. ما في اليد حيلة، كلما تقدمت بي السن كلما ابتعدت عن هذه المعتقدات. إذن فإنني أرضي ولدي الكبير فأقول له «أنا مسلمة». في الواقع إنه ليس مسلماً أكثر مني، ولكنه يقول إن تلك هي ثقافته. وأنا أرضى بطيب خاطر، وأنت؟

ـ ليس لي ماأقول. هذا حقك.

ـ ولكنك مسلم، أنت؟ أعني: أنت مراع لشؤون الدين. تصلي، لاتشرب الخمر، لاتأكل لحم الخنزير، تذهب إلى مكة وغير ذلك؟

ـ أنا مثل مومو ذو ثقافة إسلامية. وقد رباني والداي وفق القيم الإسلامية وتركاني حراً في أن أمارسها أو لاأفعل. حتى أنني زرت مكة، نعم قمت بالحج، وأنا (حاج!).

ـ هذا حلم مومو. يقول إنه يجمع المال ليذهب يوماً للحج. يبدو أنه سيصبح حاجاً. هذا فرض عليه!

ـ نعم هذا مايقال. أما أنا فقد قمت به على سبيل الفضول. رافقت سيداً عجوزاً، رجلاً يملك المال وليس له ولد. كنت طالباً. دفع عني لأقوم برفقته وخصوصاً لأقوم ببعض الطقوس المتعبة مكانه. تجربة حسنة. ولكنني لم أحب سلوك السعوديين في معاملتهم للناس. هذا لايتفق مع الدين. عندما كنت صغيراً كانوا يقولون لي إن المرء يذهب إلى مكة ليغسل كل خطاياه. كثير من الناس يقومون بالسفر من أجل ذلك. على أن ذلك لايقدم ولايؤخر: أن يغتسلوا أو لايغتسلوا فإن القذرين يبقون قذرين.

ـ أوه! الحج! أنت لست شديد التفاؤل! أخيراً تلك مشكلتك، ولكن إذا حدثك مومو في ذلك لاتقلل من رغبته. لأن الحج في نظره طريق الجنة.

5

قالت العجوز:

في بداية إقامتي في النزل لم أرغب في مقابلة أحد. كنت أرى ظلالاً تمر في الأروقة التي لانهاية لها، القليلة الإضاءة وليست مدّفأة. كان يوجد شيء ما محزن ومثير للشفقة عند هؤلاء الرجال والنساء الذين يمشون محنيي الظهور كما لو أنهم ارتكبوا جريمة وأنهم هنا ليكفروا عن ذنوبهم. لم أكن أرغب قط في أن أشبههم. لم يكن بعضهم ينظر إلى بعض قط. لابد أنهم يشعرون بالخجل لأنهم ذلوا بهذا المقدار، عوملوا معاملة سيئة على يد الحياة وخاصة على يد مدير النزل، وهو موجه قديم في الحزب الديمقراطي المسيحي، محام لمع في سلك القضاء. لم أتعرف عليه لأنه نُقل إلى مصلحة من مصالح السجون في الشمال بعد أن ترك هنا سمعة في غاية السوء. مع الوقت تعرفت على بعض الرجال والنساء الذين لجؤوا إلى هنا بدافع من العوز والوحدة.

هناك فريدريكو، ليس عجوزاً تماماً ولكنه كسيح، عصبي المزاج بلا أسنان، فمه مجرد ثقب، لاتكاد تكون له شفاه. عندما يغلق فمه ينقلب الثقب إلى شطب أفقي، إلى أخدود يظهر تجاعيد وجهه. كان في الماضي بهلواناً بارعاً يمسك بأنفاس سكان نابولي عندما يمشي وعيناه معصوبتان فوق شريط ممدود بين قصر البيْض وشرفة ڤيزوڤيو، يمضي ذهاباً وإياباً برشاقة وأناقة. كنت قد رأيته

في التلفاز، وقد كرر عمله الباهر هذا في أماكن مختلفة من المدينة. كان فناناً شهيراً ومتواضعاً. لم يكن يحب الحديث في التلفاز. وبما أنه يتحدث بالإشارات فقط ظنوا أنه أطرش أخرس. قبل أن يغدو كسيحاً عمل ممثلاً إيمائياً، وفي إحدى الليالي سقط ولكن عن سريره فانكسر عنده عنق الفخذ، أجريت له عملية جراحية دون أن ينال العناية الحسنة فلم يستعد القدرة الطبيعية على استعمال رجليه وفقد القدرة الوحيدة والمهنة الوحيدة التي كان يملكها «مهنة البهلوان» التي انتهت بالنسبة له كما انتهت مهنته كممثل إيمائي لأنه لم يعد يجد الشجاعة للظهور على المسرح. أخذ يشرب دون أن يقبل بأنه عاجز. ربما فضل سقوطاً مثيراً يستحق المشاهدة يتبعه موت فوري على هذا السقوط التافه السخيف. بدأ يطلب الصدقة، غرق في اليأس حتى اليوم الذي التقطته فيه جمعية خيرية وأدخلته إلى هذا النزل.

عرفته بعض المعرفة. لم يكن يتحدث إلى أحد. ينام مع هر وينتظر الموت. في اليوم الذي أغلقوا فيه النزل رمى نفسه من نافذة الطابق العاشر. لم يمت فوراً. تألم، ثم انطفأ بعد أن ابتلع حبوباً منومة كان قد خبأها في سرواله.

حاولت أن أعرف المزيد من المعلومات عنه وأنا أهتم بتنظيف غرفته. كان رجلاً دقيقاً. رتب كل شيء: قميصاه نظيفان مكويان يحملان شعاره «F.D.»، سروال للتبديل ومعطف قديم من الكشمير معلقان على علاقة خلف الباب. في جيوبه وجدت أوراقاً عليها عبارات كتبت بخط صغير وجدت منها حوالي العشرين، لابد أنها يومياته منذ الحادث، وقد حفظت منها بعضها:

«الرجل الذي يمشي في السماء هو طير حالم، طفل ذو أجنحة منشورة اعتبره الإنسان طيراً حالماً».

«الرجل الذي يمشي على رأسه يرى العالم من جانبه الأفضل. الخفة تنبع من الوحدة التي لا عزاء فيها».

«في كل الأمسيات أصارع ضد تقدم الليل الذي لادواء له، مصلياً إلى النجمة أن تلقي بين الظلام وبين عينيّ غلالة تهدئني مثل كفن».

«الإتقان مهنتي. حبة من رمل، نسمة سيئة، صراخ أعلى من المعتاد، وهاهوذا الفنان يصبح إنساناً عادياً قابلاً للتبادل مع اللانهائي».

«الموت لاشيء. ينقذ الفراشة من نسيج العنكبوت الشرير. وما لايحتمل هو النسيج الذي يخترق الجلد والقلب».

«جعلت من صمتي رفيقي اللطيف. جعلني أشعر بالحنان نحو الطفل الباقي فيَّ جالساً على ضفة النهر».

«في النجوم التي تنزل تمر الريح. غبار وكلمات ترزح فوق ساعد التوازن».

«عينتُ نهايتي في دغلة أرقام، مدونات موسيقى ثاقبة وأوراق جففها القمر».

«منذ لم يعد الزمن حزناً لذيذاً يتعفن على شكل قطرات من العرق فوق جلدي لم أعد أرتجف، إذن ماأحسن أن أرحل...».

وهكذا إلى النهاية... لم أجد أي أثر لعائلة أو أصدقاء يمكن أن يأتوا في يوم من الأيام لرؤيته أو يواروا جثته بعد انتحاره. فريدريكو رجل عاش وحيداً ومات وحيداً.

وهاأنت رأيت. مايسمونه نزل المساكين هو فعلاً ملجأ الوحدة الكبرى. ليس من المصادفة أنني هنا وكذلك أنت في هذا العنبر البائس الذي أحاول أن أجعله مفيداً وحيث أحصي قصص محبين قُتلوا. أجل أعرف، كل أنواع الحب انتهت بجروح، ولكن ماالذي أستطيعه في ذلك أنا آخر نزيلة في هذا النزل الشقي؟

حسن، فلننتقل إلى قصة بيانكا. هي أيضاً محزنة. ولكنني لم أستطع فيها أن أفعل شيئاً، لست أنا من يسحب الخيوط.

بيانكا كانت ممثلة في سنوات الأربعينات، نوع من امرأة جميلة ذات جمهور، عرفت شهرة فجائية وقصيرة ثم مالبثت أن طواها النسيان، إلا أن حب الظهور جعلها تدعي أنها قدمت إلى النزل

لتستفهم عن الفقر والسقوط الإنساني، لأنها قالت بأنها تقوم بتمثيل دور هو دور أم مهجورة أثناء الحرب وأنها يمكن أن تجد مأوى في هذا المكان. لم يعارضها أحد. تظاهروا بتصديقها، ولكن ذلك لم ينفع في إخفاء الحقيقة الصارخة. كانت امرأة شجاعة شاخت قبل الأوان، ليست خبيثة بل عنيدة تشبهني قليلاً عدا أنني أعرف أن أضحك من نفسي وأنني لم أعد أملك أية أوهام لا عن الناس ولاعن الحياة. أتت إلينا تطلب منا أن نكون مشاركين لها في حوار تمثيليتها التي تلعب هي فيها الدور الرئيسي على أن تكون الكافيتريا مكان التمثيل. كانت تشرب وتنسى النص وتقول أي كلام، تترنح علىالمسرح وتتوجع عندما تنهض. بعض النزلاء كانوا خبثاء. كانوا يصفرون، يقولون لها كلمات ثقيلة. ولكنها كانت تعيش في حلمها دون أن تدرك أنها لم يعد لها أي حظ في أن تجد لها أي دور.

أضاعت كل شيء. سليلة عائلة من كالابريا، أناس متواضعون وقساة لم يقبلوا قط أن تمثل في المسرح أو في السينما. لِمَ كانت تشرب بهذا المقدار؟ قيل إنها كانت مجنونة بفيتوريو دي سيكا ونالت دوراً صغيراً في أحد أفلامه. كان لطيفاً معها، ولكن بيانكا تعلقت تعلقاً كبيراً بهذا الرجل الكبير اللطيف. وقد أتوا بها إلى هنا على يد مخرج مسرحي لابد أنه قال لها ليتخلصوا منها: «إذا أردت الدور عليك أن تعيشي حياة البائسين، حياة الناس الذين لم يعودوا يملكون شيئاً، وسأعود لآخذك عندما تكونين قد تشربت جيداً هذا الواقع». الرجل لم يعد إلى هنا قط. وهي ليس لها أحد في نابولي. عندما علمت عائلتها أنها أظهرت طرفاً من ثديها في أحد الأفلام نظمت مأتماً رمزياً للمغضوب عليها.

ثم هناك قصة أنطونيلّا، فتاة رائعة، سمراء، طويلة القامة، طويلة الشعر، عينان خطيرتان، شباب يخلب اللب. أمها هي التي جعلتها تُجن. في السادسة عشرة من عمرها أتلفتها أنانية وحشية من أم أكبر سناً من أن تنجب ولداً. فقد تزوجت وهي أرملة من

صاحب مصرف يحلم بأن يكون له أولاد فلجأت إلى تدبير شيطاني: طلبت من أنطونيلّا أن تكون أماً حاملة. وضعتها في سريرهما وجعلتها تحمل من صاحب المصرف. عندما ولد الطفل أخذته منها وقالت لكل الناس إنه منها حملت به في أمريكا اللاتينية من زوجها الجديد. وكان على الصغيرة أنطونيلّا أن تحفظ السر وألا تتحدث عن الطفل إلا على أنه «أخي الصغير». في العشرين من عمرها أصبحت حياتها صعبة وأشرفت على الموت وغدت هزيلة جداً وأغمي عليها مرة في الشارع، هناك، في الساحة الصغيرة أمام النُزُل، فقادها البواب إلى هنا منتظراً أن يطالب أهلها بها. بعد أسبوع طلبت الطعام ومالبثوا أن احتفظوا بها. أعتقد أنها اختفت قبل إغلاق النزل ببضعة أيام، هربت، رحلت تحت سماوات أخرى آملة نسيان هذه السنوات من الشقاء.

كان هناك أيضاً عائلة من الغجر ترحل وتعود. لم يكونوا يعرفون أبداً كم هو عددهم ولاابنَ من هذا الطفل ولاماذا كانوا يفعلون، الشيء الوحيد الذي كانوا يعرفون جيداً أن يفعلوه هو الاحتفال. هم كلهم موسيقيون، مغنون، راقصون، شعراء جوالون، سحرة، لصوص، خبثاء ودائماً فقراء.

أحببتهم كثيراً. وضعوا قليلاً من الفرح في هذا البناء المشؤوم. في يوم الحمام لم يكونوا يختصمون فيمن يذهب إليه. يحبون أن يكونوا على حدة، لايريدون بوجه خاص أن يوطنوهم هنا أو هناك.

قد أستطيع أن أحدثك عن لورانزو حلاق السيدات الذي أفلسه الصبيان. وعن أرماندو الملاكم الذي أصابه الخرف. وعن إيلاريا المغنية التي فقدت صوتها وأبرزت بطاقة انتمائها إلى الحزب الفاشستي، فتاة جميلة ذات وجه ملائكي ممسوسة بكراهيتها للشيوعيين والسود والعرب. كانت تقول: «إنهم لم يفعلوا لي شيئاً

ولكنني لاأحبهم. الأمر هكذا. ورثت ذلك عن جدتي التي قالت إنها اغتصبت على يد مغاربة أثناء الحرب». وعن عائلة رومانو التي ماعادت تسكن هنا منذ الهزة الأرضية...

تعال، اقترب مني، حكَّ لي ظهري، لقد أضعت يدي الصغيرة من الخشب التي تضع نهاية للحكة. هيا حكّ، لاتخف. سدَّ أنفك إذا أردت، لابد أن عندي قشوراً حول الدمامل. إنها الحمى. بعد شيء من النزلة الوافدة تظهر قشور على ظهري وعلى فخذيّ. مومو خبير بالحك. إنه يعرفني جيداً. يقولون في نابولي: «معرفة الحك حيث يجب هي برهان على الحب». لاأطلب منك مثل ذلك. لاينبغي أن تحبني، أخيراً ليس كثيراً، بل بما فيه الكفاية لأستمر في التنفس. مع مومو وقبيلته أتنفس جيداً. أنت تعرف، الأفريقيون الذين يأتون إلى فيلّا ليتيرنو يجمعون الطماطم والذين يبقون بعد الموسم هم كلهم أخوة. يأتون إلى هنا من وقت لآخر يلتهمون الكثير من الطعام ثم يرحلون ليتفرقوا في المدينة. أحبهم كثيراً، أباركهم واحداً واحداً، ليس لديهم أي تعقيد. بعضهم استقروا في عنبر في الجناح الآخر الذي يشرف على الشارع الكبير. لم يعودوا يتخلون عنه. بذل الخبيث الشرير حارس موقف السيارات جهده لطردهم من هناك. وفي أحد الأيام زاره بابو أكبر أفراد القبيلة سناً، لاأعرف ماقاله له أو فعل، من وقتها لم يعد هذا الشرير يتحرك. عندما يرى العجوز يمر يخفض ناظريه.

حسن، حكَّ يا صديقي حكّ، هذا يريحني، ماأزال لاأفهم لِمَ تريد أن تكتب كتاباً عن نابولي. لِمَ تتدخل؟ ماالذي تستطيع أن تفهم؟ آه، بلى، أعرف، ربحت مسابقة الكتّاب الشباب! هذا لايكفي للاعتقاد بأن المرء يستطيع أن يسجن نابولي في كتاب. من حسن الحظ أن صبري كبير وأنني أستمر في حديثي إليك. ولكن، كما تعلم، يجب عليك ألا تثق، ماأرويه لك هو غالباً من باب الاختراع! هذا هو الأمر. نابولي، من المستحيل أن تعرف فيها بصورة مؤكدة ماهو حقيقي وماهو

مزيف أو من وحي الخيال. ذلك كما في الحب: عندما تصبح الأمور مؤكدة لايبقى الحب، أو، إذا أردت: حب ليس فيه مجال للشك والإثارات ليس حباً بالمعنى الصحيح. هو شيء آخر، هو انسجام، عادة، حنو، أما الحب فهو خطَر، مجازفة، شك دائم، عندئذ تكون اللذة أشد. العقل لايصلح دائماً، لايجب الإيمان به فإن في ذلك الهاوية في غالب الأحيان. بعضهم قال أعتقد بأنه مكسيكي: «العقل الذي لاينام أبداً يخلق وحوشاً». عقلي أنا ينام غالباً، على أنه مع ذلك خلق وحشاً، أنا، غول الأوقات الصعبة، المجنونة التي لاتضل الطريق. لدي مظهر مجنونة فقدت حافظة أوراقها، كان عندي حافظة أوراق محشوة بالبطاقات، لا بالكتب، فهي لاتساوي شيئاً، بل بالماركات التي أخذها ماركو، كانت احتياطي الشخصي. كنت أدعوها «حريتي»، وضعتها على حدة في حالة أن تركني الجميع، وقد تُركتُ وفرغ احتياطي. تلك هي الحياة. حسن لنعد إلى هذا النزل الذي شاده ملك. الأبله! أراد شيئاً فخماً من أجل أنفس جريحة. واليوم ليس من أحد يهتم بالناس الذين يسقطون على الأرض. حتى أنهم لايقفون لمجرد الفضول بل يمضون في طريقهم. لعل كتابك، إذا ماستطعت كتابته، أن يجلب انتباه أوناسيس. قد يستطيع أن يزورنا ويعتزم إنقاذ هذا البناء الضخم المهدم. ماذا؟ هل مات أوناسيس؟ وجاك لين الأمريكي؟ كيف حدث هذا دون أن يخبرنا أحد؟ هذا غريب. كنت أعتقد أن هؤلاء الناس خالدون لايموتون. كنت متوهمة. إذن صاحب السفن اليوناني، أغنى الناس أوناسيس، رأس العجل الذي كسرته عند الولادة يد امرأة حكيمة، هذا الرجل البالغ القوة هو تحت التراب طعمة للدود والتفسخ! لابد أن النمول التهمته بشهية. لم يكن يأكل إلا أطايب الطعام فلابد أن لحمه أصبح لذيذاً، علينا إذن أن نجد مليارديراً آخر لترميم هذا الشيء الذي يترنح من التعب. ألا تعرف أنت واحداً على سبيل المصادفة؟ لاحظَ، قد أستطيع الطلب من الأفريقيين ترميم هذا البناء. أنا على ثقة من أنهم يفعلون ذلك جيداً جداً. يضعون فيه بعض اللون، يزرعون

الأشجار، يبنون أكواخاً في الساحة... أعطني منديلاً أو اجعلني أتمخط فيه، أنا أحب أن يعتني بي أحد. يجب علي أن أتهيأ هذا المساء لاستقبال شخصيات في زيارة لهذا النزل. كلهم أجانب: رباني أنقرس الأكبر، مفتي القدس، بطل العالم في سباق الأربعمئة متر. الخياط ابراهيم ب، معلم المعلمين الأتراك، الملّاح الكوني الأسترالي، لاعب شطرنج روسي، إرهابي إيرلاندي قديم، مغني كسول، وربما المونسنيور توتو، وهذا أحبه كثيراً، صادفته مرة في مخزن كبير وكان يرافقه بينيتون الذي أراد أن يبدو في إعلان معاد للعنصرية. أنا نفسي جلست أمام بينيتون أنا تلك المرأة الضخمة البيضاء التي تعطي ثديها لطفل أسود هو ابن أخ لمومو، وعلى فمه حلَقة.

كما أدركتِ ياعزيزتي وردة أنا لم أقدم لك أي تفصيل، نقلت لك بأمانة ماروته لي العجوز. هي تهذر غالباً وأعترف أنني تابعتها باهتمام وسرور، ذلك لأنني حتى بدون أن أخرج من العنبر عرفت الكثير من الأمور عن نابولي ومبالغاتها. ذاكرتها وذكاؤها يهزان المشاعر، والمرء لايضجر معها.

يجب أن أقول لك: منذ أن فكرت بك دون أن أمزج بينك وبين ماضيَّ اكتشفت مناقبك. أيجب الذهاب بعيداً، أن أقوم بمثل هذه الجولة لأرى الإنسانة التي احتلت حياتي في حقيقتها؟ لاأجرؤ على التفكير إلا بأننا كنا زوجين، أرمي بعيداً عني صورة رجل وامرأة عاشا في الضلال والتظاهر والتمزق.

العجوز طرحت عليّ سؤالاً عنك. وعدتها أنني سأجيبها في يوم من الأيام. أما الآن فإنني أصغي إليها. أنا في حالة مضحكة، أنتبه لك لأن المسافة تساعدني، أُشغَل بالعجوز لأنني أعتقد أنها صورة صادقة للمدينة، قليل العناية بنفسي وذلك علاج طيب لما ينتظرني.

هيا، ياعزيزتي وردة، أنا في انتظار رسالة منك.

6

ـ بَهِ! ماذا تفعل أنت هناك؟

ظننت أن العجوز تعنيني. كلا إنها تنظر إلى ظل ورائي تماماً. التفتتُ ورأيت عجوزاً صغير الجسم أصلع الرأس له لحية متبعثرة على وجنتيه المجوفتين، هيئة واحد أخطأ العنوان. كل شيء فيه كان يعتذر، كان مصاباً بالرجفة. لم يجرؤ على الجواب. لابد أنه خجول أو مريض. تمتم ببضع كلمات غير مسموعة. العجوز فهمت ماذا يريد وقالت له إن باستطاعته أن يخدم نفسه. انحنى، فتح صندوقاً وأخرج ثمرات من الليمون واختفى كما ظهر.

هذا الرجل فنان، فنان حقيقي. هدّمته امرأة، ربما يجب أن أقول دمره الحب. النساء لايهدِّمن إلا الرجال... رغم أن... كل شيء يتعلق بالطريقة التي نُسجت بها الروابط. وكلما كان الهوى عنيفاً كلما كان السقوط قاسياً. ليس هناك أجمل ولا أقوى من الحب المسروق، الحب في الخفاء، ذلك الذي يضعنا أمام الأخطار، ذلك الذي يهزنا حتى نمس الموت. بالنسبة لجينو كل شيء أخذ أبعاداً عظيمة: سحر اللقاء وسرعة القطيعة. تلك هي نابولي. إذا وجب في يوم من الأيام إشادة تمثالاً لمجد هذه المدينة فينبغي تكريسه للحب، للحب المجنون. لايحب المرء بالطريقة نفسها أن يكون في نابولي أو في غيرها. لقد اعتادوا أن يعيّنوا البندقية لتذكرنا بالحب. إنه

كلام معاد عن حياة قاسية. الحب في البندقية حزين، لنقل اصطلاحي. في نابولي هو الجنون، على الأقل مرة من اثنتين، أما أنا فأفضّل الجنون على الطريقة الرومانسية الرخوة.

اسمه جينو. لشدة عناده وعمله أضحى عازفاً كبيراً للبيانو. لذلك تخلى عن كل شيء. عائلته وحتى أصدقاؤه غدوا أقل قيمة من البيانو. أصبح موهبة دولية عندما اقتحم الحب حياته وجسده ونفسه. أعطاه كل شيء ثم انتزع منه كل شيء. المسكين! لم يكن مهيأ لذلك. على أنه ليس من إنسان مهيأ لمثل ذلك. أنا لست مهيأة لأي شيء. لاأنتظر شيئاً، ربما الموت، ولكن الأمر هنا هو قصة أخرى.

حسب ماعلمت، كل شيء مضى معه بصورة حسنة. كرس نفسه تماماً لفنه. قدم حفلات كونسيرتو في عواصم العالم الرئيسية. لم يكن في حياته الشخصية ماهو استثنائي. أظن أنه كان له امرأة وأولاد، ولكنه عاش منفصلاً عنهم بدون مشاجرات ولامآس على مايبدو. عرف عنه أنه انعزالي، مستقيم وكئيب بعض الشيء. لم يكن جذاباً ولامغوياً. رجل بدون نزوات. عندما روى لي قصته اعترف لي بأنه مهووس، نوع من عادة غير طبيعية بأن يغسل يديه عدة مرات في اليوم وأن ينظم ويرتب الأشياء في كل مكان يوجد فيه... الخ.

وفي أحد الأيام أتت العاصفة التي تحمل في مرورها كل شيء، لم يعد ثمة نظام ولاهوس. والنتيجة كما ترى: ظل، شبح، نزيل في نزل المساكين. أكرر لك القول: ربما يجب منذ الآن أن نسميه نزل الحب المقتول، أو مثلاً النزل الذي يموت فيه المرء من جراحه. عدني أنك، في أحد الأيام، عندما أرحل من هنا، ستحفر لوحة عليها تسمية جديدة. على كل حال، هنا خراب من الأفضل أن ننساه. هنا، حيث أنا، قبري. لايهمني مايجري في الأعلى، في طبقات هذا البناء لايجري شيء، حتى الأشباح هجرته. حسن، لنعد إلى العاصفة، إلى تلك التي هاجت وأسقطت في مرورها كل شيء. اسمها إيدي، أعتقد أنه عائدة، ولكن ماذا يهم، بالنسبة له هي إيدي. جمال، جمال في الجسم والرأس، عرفتها. هي التي قادته في أحد الأيام إلى النزل.

وضعته عندنا كأنه علبة أو جريح وجدته على الطريق. أذكر جيداً بعد ظهر ذلك اليوم من تشرين الثاني (نوفمبر). قدمت في سيارة أجرة، مستعجلة تبكي. لابد أنها قالت للبواب: «اعتن بهذا الرجل، إنه عازف بيانو كبير». اهتمت بالشكليات الإدارية وتركت مبلغاً من المال من أجله فيما إذا رغب في مغادرة هذا المكان. بعد ذلك أتت لرؤيتي. لاأعرف لِمَ زارتني. لابد أن البواب نصحها بأن تحدثني. امرأة لامعة، ذات عينين كبيرتين خضراوين وشعر كثيف مجنون أجعد تماماً، وثديين كاملين، وقامة غزال، ومظهر امرأة محترمة. كانت أطول منه بقليل وأكثر منه صِباً بكثير. ياله من جمال! ويالها من طبقة اجتماعية! قالت لي: «أعهد إليك بجينو. إنه كائن ثمين، رجل موهوب. ثم هوى، نوع من حادث ليس منه نهوض، ليس بشكل سريع. يلزمه علاج لينام، وخاصة لينسى. أعتمد عليكِ في مساعدته. سأعود لرؤيته بين حين وآخر. أما الآن فالأفضل أن أبتعد. أشكرك للعناية به. إذا حدثك، إذا روى لك قصة خارجة عن المألوف صدقيه».

وفي الواقع روى لي قصته بعد بضعة أسابيع من وصوله. لن أقول إنها خارجة عن المألوف بل هي قصة تقليدية، قصة من قصص نابولي تبدأ بداية حسنة وتنتهي نهاية سيئة. هي قصة حب، جميلة مثل لقاء غريب، مثل ثمرة فيها مرارة ناعمة تأتيك ببطء.

قال لي: «عندما رأيتها فهمت فوراً أن حياتي سترتمي في أمر ليس له دواء». لقد قدمت لتعرض في بهو صالة المعزوفات أسطوانات بيت النشر الذي تمثله. مصادفة، تزامن؟ ربما.

هل هو لقاء، موعد حقيقي، لقاء قاطع؟ شيء أشبه مايكون بالقدر. نحن هناك، نحن لم نكن ننتظر ذلك قط. وهانحن نرى في جزء صغير من الثانية صور حياتنا المقبلة تتوالى في كل مناحيها. انتابنا الخوف، امتلأنا فرحاً، وعرفنا في تلك اللحظة الدقيقة، وبطريقة حميمية، أن حياتنا لم تعد تخصنا، كما لو لو أنه شعور بالموت المداهم، كما لو أنه شعور بحياة مكثفة، مكثفة لدرجة أن جسدينا أصبحا جد محدودين، غير كافيين لاستيعاب كل شيء،

شعرنا، رأينا وصول القنبلة تتدحرج لتسحقنا وهي تعدنا بالحياة والسعادة ونحن لانتحرك، لانفعل شيئاً لتجنبها، ذلك لأننا عرفنا أننا انكسرنا، انتهى أمرنا، هُزمنا، ذلك لأن القدر لم ينذرنا قبل أن يوجه ضربته إلينا، لكان الأمر مريحاً لو أن شيئاً أو أحداً حذّرنا.

قال لي جينو بأنه فهم ذلك على الفور. روى لي كيف أنه غضب غضباً زعزع كيانه. وبخ إيدي لأنها كانت هناك كما لو أنها حضّرت لهذا اللقاء الذي كان إشارة أنيقة ولكن غاضبة عنيفة من القدر. قال لها: «ولكن ياآنسة، ليس مسموحاً لك بأن تأتي إلى هنا مع كل هذا الجمال واللطف لتزدري عازف بيانو عجوزاً لم تكد براعته ينتشر صيتها إلا منذ زمن قليل، ويداه هما ذاكرته وقد بدأت هذه الذاكرة بالاضطراب والرجفان. لقد بعثت فيّ الاضطراب. نورك آذى عينيّ. استغرقت وقتاً قبل أن أصل إلى بعض من صفاء الذهن، قبل أن أثبِّت موهبة بعمل مجتهد لاينقطع، وحياة مستقرة ومصيراً هادئاً».

ابتسمت كما لو أنها تلقت الرسالة بسرور. مدت له يدها برسالة ومضت تهتم بطاولة العرض. لم يفتح الغلاف بل شمّه. عطر خفيف كان يفوح منه. بارقة أمل أُخذت من نفاد صبره الطفولي واجتازت عقله. لم تكد تأخذه أولى مشاعر الفرح مما كان يُحاك أمام عينيه حتى بدأت حمى أو كادت ترتفع في جسده.

الرسالة:

سيدي

استمعت هذا الصباح إلى آخر كونسيرتو عزفتَه. عندئذ، كما لو أنه صدى، فكرت بهذه الجملة لرسام إيراني، وقد سمحت لنفسي بأن أضمها إلى هذه الرسالة الموجزة، وأنا ممتنة لهذه الساعات التي تقاسمتها مع موسيقاك.

بكل صدق

إيدي

«أن تحلم، ربما كان هذا هو الشيء الأكثر ضرورة في أن يكون. أكثر ضرورة حتى من النظر.

لو أنهم قالوا لي يوماً «أنت مضطر للاختيار بين أن تحلم وأن تنظر» لاخترت أن أحلم بدون شك.

أعتقد أن المرء مع الخيال والحلم يحتمل العمى بشكل أفضل»

أ.ك.

لِمَ هذه الرسالة؟ ماذا أرادت أن تقول وراء هذه الكلمات؟ طرح على نفسه مسألة الفنان الإيراني. قال لنفسه إنها افتراض سيء. لو كان له أن يختار لاختار النظر بدون تردد. أما الحلم فقد شغله أمره. عن هذا ربما أراد أن يتناقش معها. ولكن لايمكن النقاش مع القدر. نستقبله استقبالاً حسناً وننتظر مايأتي به. شعر بانقباض في قلبه تبعه دوار خفيف. تذكر أنه شعر بمثل ذلك منذ زمن طويل عندما سقط في الحب لأول مرة. ثلاثون عاماً! ذكرى هذا الإحساس كانت سليمة ومقلقة. أهي ذكرى مُعاشة أم هي انفعال اللحظة الحاضرة عن صور خرجت لأول مرة من صندوق منسي؟ قال لنفسه: «حتى ولو لم نعش الحالات نفسها فيجب أن أتجنب ذلك الذي يوشك أن يتدحرج مباشرة فوقي». ولكن واأسفاه، نحن لسنا أسياد مايحدث لنا. آه! لو كنت أنا، العجوز النيرة الفكر، لاستطعت الرجوع إلى الوراء ومحوت بعض التصاوير! تأخر الوقت. وجب عليّ أن أجتاز الصحاري كي أجد السلام أو مايشبه السلام في عنبر القيامة هذا! عندما أروي لك قصة جينو ألفت نظرك إلى أنها قصة جميع الناس الذين ضربتهم الصاعقة التي أتيت على ذكرها أمامك.

عندما عاد جينو إلى منزله أصابه هياج كبير. كان عليه أن يرد على الرسالة.

آنستي العزيزة

اعلمي قبل كل شيء أن الحلم هو جزء متمم للحقيقة. عندما

أؤلف ينتابني أن أطرح على نفسي هذا السؤال: أأنا في الواقع أم في الحلم؟ ذلك لأنني أود أن أبوح لك شيء، أنت التي لا أعرفها، أنت التي وضعتها السماء أو بعض النجوم في طريقي: الخلق هو امتداد يتخلص كلياً من الأنماط المسيطرة. عندما أعزف أتخيل نفسي في مكان آخر. أنسى أين أنا وحتى ماذا أفعل. أصابعي تتقدم ويتبعها عقلي أو بالأحرى جسمي ويتبع الجميع عقلي. ذلك مثل حالتي عندما أحلم وأنهض لأشرب كوباً من الماء أو أنظر إلى الساعة. أنا فوق جواد بين حالتين المنطق غائب عنهما. أحب تلك اللحظات التي أعطي فيها الحقَ لغياب الوعي. أود أن أتحدث في ذلك معك إذا كان لديك الرغبة والوقت. سأسمح لنفسي أن أهتف لك في مكتبك في بيت النشر هذا الذي يحمل اسماً عجيباً «خبز ومدونّات». أفترض أن هذه غمزة عين تدل على أن الإنسان يحتاج إلى الموسيقى كما يحتاج للخبز.

مع احترامي للطفك.

جينو

جينو كان قد تم امتلاكه. عنده كل أعراض الامتلاك: السذاجة، الوهم، الشِعر في المناسبة، نفاد الصبر، تضخيم الكلام في بعض المناسبات، وخصوصاً فقدان المسافة بينه وبين مايبغيه. عهد إليّ بدفتر أزرق سجل فيه كل شيء. فكر بأنني الشخص المناسب لقبول انفعالاته وتفهمها. مامن شخص يستطيع الادعاء بأنه يعرف نفسه في الحب، ذلك لأن كل قصة متفردة حتى ولو أن بعض الأحداث تكررت أو تشابهت. ولكن إذا رويت لك قصته فذلك خاصة لأحدثك عن نابولي وأهلها.

عرفت منه أنهما تقابلا للمرة الأولى بعد الكونسير الشهير وأمضيا ساعتين يتحدثان في الموسيقى والأدب والفلسفة. هي تعبد ماهلر بينما جينو يفضل موزارت.

قالت له: «موزارت يحبه كل الناس، وهذا شيء عادي، ماهلر

هو المفاجأة غير المتوقعة أكثر من الآخرين». تكلما عن الحلم والعمى، عن القدرة والتخيل، وعن الانفعالات الحاسمة، عن الفرح والألم، عن نكهة أوائل ثمار التين الصيفي، عن الزمان وعن الحرية. هنا قال لي جينو إنه شعر بأنه لم يعد حراً. نظر إليها طويلاً بطريقة خطيرة كما لو أنهما عاشا سوية أشهراً وقال لها:

ـ الزمن، الحرية، هما اللذان ينقصانني أكثر من غيرهما. ينبغي أن أكون لصاً سارقاً أكسر النوافذ والأبواب لأسرق الزمان، لأسرق ساعات لموسيقاي وبيتي...

ـ أنت تتحدث مثل رجل محصور في قصة زواج رديئة! إعلم أنني لن أكون أبداً عشيقة لك، المرأة التي يحبونها ولكنهم يعطونها الفضلات من الوقت. أنا لاأحب السرقة ولا اللصوص. ليس ذلك جزءاً من أخلاقي.

ـ أنت غاضبة؟

ـ كلا، بل أنا أحدد بدقة بعض النقاط. لاحاجة للغضب في ذلك. في اليوم الذي أكون فيه غاضبة سترى أن الغضب هو شيء آخر. وأرجو ألا تراني أبداً وأنا في حالة الغضب.

هوذا ماكتبه جينو عن ذلك اليوم في دفتره الأزرق: «من المستحيل أن أعمل، أصابعي لم تعد تطاوعني، رأسي في مكان آخر. أنا خائف. قضيت حياتي وأنا أشعر بالخوف. أكره هذه الحالة. أشعر أن طاقاتي انتزعت مني. إذا لم أعزف. إذا لم أؤلف فقد ضعت. وأنا أشعر بكل قوة بأنني في سبيل الضياع. وفي الوقت نفسه أجد في ذلك نوعاً من الحلاوة، من اللذة التي لاتكاد تُحَس. أشعر بأنني غدوت شخصاً آخر. أحس بأنني أضعت صوى طريقي وخاصة في البيت. العاصفة أنذرت وأنا غير قادر على إيقافها أو مقاومتها. ماذا جرى لي؟ كنت رجلاً هادئاً، عازفَ بيانو جيداً، عبقرياً في نظر البعض وهزيلاً في نظر الآخرين ولكن عازف بيانو عرف النجاح. حتى أنني نجحت في أن أكون غير مبال تجاه النقد.

لست عبقرياً ولكنني أعمل بدون إهمال. بينما أصبحت فاقد الرغبة في ذلك منذ قابلت إيدي. إنها تسكن فيَّ وأنا سعيد».

جينو أرسل لإيدي بطاقة بريدية من باري حيث كان يقدم حفلة. كتب لها أشياء رومانسية ذاكراً نور عينيها، جمال شعرها وفقدانه الصبر عن رؤيتها مرة أخرى. كان يحب كتابة الرسائل وبطاقات البريد، وتلك طريقته في أن يكون شجاعاً وجريئاً. الكلمات تفتنه بمقدار ماتفتنه المدونات الموسيقية. ومثل كل الخجولين كان يختبئ تحت ستار الكلمات.

وفي أحد أيام الأحد وبعد أن تردد كثيراً هتف إليها في بيتها ودعاها إلى نزهة في حدائق البوسيليبو. كان الهواء منعشاً. وصلت بعد ربع ساعة من التأخر. كانت تلبس معطفاً ظريفاً أخضر بلون التفاح. مد لها ذراعه بظرف ومس يديها. وعند لحظة الفراق وضع قبلة على راحة يدها اليمنى. ظهر عليها التأثر فسحبت بلطف ذراعها وقالت له: «إلى لقاء قريب» ومضت تجري، ثم التفتت وأرسلت له قبلة من يدها وهي تقوم بحركات كبيرة بيديها. لابد أنها كانت سعيدة. أما هو فكان منهكاً. قال لنفسه: «كنت هادئاً حتى أنني تخليت عن الجنس وعن الحب، وهاأنذا أجد نفسي في قصة لن يكون لي فيها إلا الخير. قصة أقوى مني، أعنف من الإلهام والإبداع. ماذا يهم، يجب أن أعيش حتى ولو تألمت. على الأقل أنا رائق الذهن، رائق الذهن بمشقة. لاأستطيع في ذلك شيئاً، أضحيت في مكان آخر وأنتظر لقاءنا المقبل بفروغ صبر».

أصبحا يلتقيان تقريباً كل يوم في ساعة الغداء، يشربان النبيذ ويتناولان المقبلات ويتنزهان مثل مراهقين مبهورين لأول مرة بالحب الكبير. لم يكونا يتحدثان في العواطف بل يتبادلان وجهات النظر في الموسيقى المعاصرة. اتفقا على عدم محبة بوليز. كانا يضحكان من كل شيء ويشعران بأنهما خفيفان بعيدان عن القلق. والأمر المثير للفضول أنه عندما كان يفكر بها لم يكن يشتهيها. إنه

يقدِّرها مثل كائن استثنائي لامثل كائن يثير الرغبات. الأهبل! عندما يراها مقبلة يوثقه الانفعال. يشعر بالسعادة ويرتجف من الفرح. يجف لعابه كأنه في حالة صدمة. ياله من طفل! طفل استيقظ فيه ناسياً عمره وماضيه وتجاعيد خديه. هي أيضاً لم تستطع أن تخفي انفعالها. ولم يكن يكف عن سؤال نفسه: «ولكن ماالذي يوجد فيها زيادة عن الأخريات حتى تضعني في هذا الحال؟ ماهو ذلك المغناطيس الفوري التأثير؟ من أين يأتي؟ لِمَ غدوت هشاً سريع العطب؟ أين سنمضي مع كل هذه العواطف والاضطرابات، هذا الانقطاع عن الواقع، هذه الهيجانات الجسدية والمعنوية؟ هل سأتحمل الضربة؟ في الوقت نفسه أجد ذلك رائعاً سحرياً، وجودها نفسه يغذيني ويعطيني الرغبة في أن أذهب بعيداً جداً، أن أُبدع، أن أفعل أشياء خارقة للمعتاد، أعطتني جناحين، حرية، فرحاً وحياة... على أن كل هذا في يوم من الأيام، أجل في يوم من الأيام، كل هذا سيتوقف وبشكل فظ. إنني أفضل ألا أفكر بهذا المستقبل...». هذا المسكين! كان يشعر بحدوث الأشياء، ومع ذلك، فهذه المرأة ليست إلا امرأة، ذكية وجميلة حقاً، ولكن ماالذي حدث في حياة جينو لحظة اللقاء، أو ماالذي حدث له قبل ذلك بقليل، هو الذي صفق لهذا اللقاء وجعل منه قصة ملأى بالرقة والقسوة والدموع؟

الدفتر الأزرق:

«هكذا وقعت في الحب كما لو أنني لم أحب قبل ذلك قط، بجنون وسعار، أعزل من السلاح، جاهزاً مهيأ، أقصد مهيأ للهجران والدمار. لِمَ بهذه السرعة؟ ما الذي كان ينقصني مما هو أساسي حتى أشعر بهذه الحالة من هيجان الشباب؟ لم أعد أتوصل إلى استرجاع صورة الحبيبة. لقد اختفت في موجة من الصور الأخرى. لم أعد أعرف أن أرسم حدود هذا الوجه. مبهوراً، لم أعد أعرف من أنا ومن أحببت. أهو الحب ماأحببت، أهي المرأة من أحببت، أم هي صورة من نفسي تدور في عيون أخرى؟ أتحدث هكذا لأن الرغبة

ليست يقظة، بل ربما سأتخلى عنها ببطء، أبعدها عني وعن لياليّ. رغبة الحب في جوانحي مثل شر نائم في مشاعري استيقظ فجأة على يد إيدي ولكنني ألتفت باحثاً عن صورتها. أذكر صوتها، عطرها، بريق نظرتها، ولكنني لم أعد أذكر كيف هو تكوينها. وحده كائن مثلي، فنان سحقه التواضع، زوج تنازل عن كل سلطة، أب بدون سيطرة، هو القادر على نسيان وجه تلك التي عن طريقها داهمه الحب. كل شيء تناوله الكسوف وبقيت وحدها فكرةُ الشبق، فكرةُ قصة بدأت في الفوضى، في الغموض وفقدان الاصطبار».

جسداهما كانا يتلامسان. كانا بحاجة إلى الوقت ليستسلما أحدهما للآخر. شربا النبيذ على ضوء الشمعة. داعبا بعضهما بعضاً دون أن يكونا قط في تمام عريهما، كانت تهمس في أذنه: «ليس الجنس ماأبحث عنه»، ويجيبها «إذن الرغبة في الحب تولد الحب».

وتقول: «جسدي يحمل الكثير الكثير من آثار الجروح، أحتاج للرقة والحنان اللذين يبرئان جروحي. لن أحتمل أي كذب، أي ظل منه. لم أشعر بحب أحد لي، حرمت من طفولتي ومن الموسيقى والشعر، من أجل هذا تدور حياتي كلها الآن حول المدونات والكلمات، حول الموسيقى والكتب. أعتمد عليك لتقدم لي كتباً، الكثير من الكتب، الكثير من الأسطوانات، الكثير من العناية. أنا قوية وهشة، طيعة ومتمردة، عنيدة وصادقة. أرغب بك ولاأعرف لماذا. إنني من عصر مختلف، رومانسي إلى أبعد الحدود. أشعر بحاجة ملحة للطفولة، ذلك السن الذي يكون السحر فيه طبيعياً جداً، حيث البراءة هشة. دُمرت على يد رجل كان المفروض فيه أن يكون أبي، رجل عرف دائماً أن يجعلني أخاف، أن يجعلني أبكي، يبعث فيَّ الأرق والسهاد. كنت أنام بعد أن أسد باب غرفتي بخزانة، ضُربت. رأيت مالم يكن عليَّ أن أراه قط. بكيت. لوقت طويل فقدت النطق. هجرتني الكلمات، لم تعد تخرج من حلقي. اتسعت عيناي وغارت إلى حد

بعيد. ذكرياتي تهدمت من تأثير فظاظة البالغين. عيناي امتلأتا بالألم. إذا انحنيت عليّ سترى كم هما حزينتان. تهدمت على يد هذا الوحش الذي لم أصل إلى كراهيته. لم أدعه قط أبي بل دائماً نوتو بدلاً من ريناتو. وجدت ذلك جميلاً. لم يحب هذا، كان يغضب ويهددني، يقول لي إنه سيحرمني من الطعام ليومين. أمي كانت قد رحلت. كثيراً ماقالوا لي إنها فنانة في أمريكا حتى اليوم الذي علمت فيه وأنا أبحث في بعض الملفات أنها أُدخلت إلى ملجأ في مدغشقر حيث كانت عائلتها هناك. عندئذ ألمت بجسدي الآلام مثل أفكاري وذكرياتي. بعد هذه الاعترافات هرب الرجال مني بشكل عام. لم يعودوا يريدونني. الذين بقوا إما أنهم أشرار اهتموا سراً بأن يخطوا في جسدي جروحاً أخرى، أو هم سذج اعتقدوا أنهم يستطيعون إصلاح ماتهدم. ليس لدي شعور بأن الشر موجود في خصالك، وفي الوقت نفسه لاأعتقد بأنك ساذج، ولكنني أؤمن بانفعالاتك، باندفاعاتك.أترك لك هذه الكلمات المكتوبة وأنا أفكر بك:

«متى يبدأ المرء بتذكر اللحظات الأولى؟ أعطيتني قلماً وأنا أكتب. الكلمات تتدافع من رأسي إلى قلبي، عما قليل ستغزو بطني.

منذ زمن طويل، طويل جداً، لم أصغ هكذا للطيور. أحلم ببيت عند قدميه يوشك البحر أن يموت. وأن أتمدد هناك أتجرع الشمس وأقدم نفسي لمداعبات العشيق، ودموع السعادة معلقة في أهدابي.

أين هو السلام؟ في أية أنحاء ضائعة ستستقبلني هذه المملكة في صدرها كما تأخذ الأم طفلها تضمه إليها بشغف وحنان؟

لقد انقضى النهار واقترب الطيور وجسدي يستنشق الراحة والهناءة منك. هنا النار والرمل، ولسان طويل دافئ وبطيء يدعني واهنة وهادئة.

جينو، *إنني أبتسم لك من أعماق قلبي المغرم بك. إيدي».*

كان جسداهما قد تعريا بدون معرفة منهما تقريباً. شدة الضم

والعناق كانت كبيرة ومتناغمة. جينو سيقول بعد ذلك إنه مع إيدي تعلم أن يتخلى عن الأنانية في اللذة. ليست المسألة مسألة تفوق أو انتصار بل هو الحب، الدوار، الدخول في جنة الأحاسيس.

إيدي عرفت الكثير من الرجال من قبل ولكنها لم تعرف إلا القليل من الحب. أما جينو الذي قارب الخامسة والأربعين فكان قد تخلى تقريباً عن الحب بل وعن الجنس ليكرس نفسه كلياً للموسيقى. بعد أن انفصل عن زوجته منذ بضع سنوات لم يشعر في ذاته الشجاعة بأن يجدد حياته. كان يقول: «هذا متعب أن يتوجب على المرء القيام بالإغواء ليحصل من جديد على المشاحنات ويستسلم لانفصال بالتراضي!» إذن لم يعد ينظر تقريباً للنساء. إيدي، بسبب جمالها ورغبتها بالحياة، بسبب ماضيها الذي تسعى لمحوه بكل الوسائل، كانت تتصرف مثل رجل: تغوي، تستهلك، تهجر. لاتشعر بأية صعوبة في أن تضع في سريرها أي رجل ينال إعجابها. كما قالت لي: «تكفي ابتسامة، تعبير بارع في الوجه فما يلبث الرجال أن يأتوا إليها راكضين. حدث لي أنني كنت أختارهم من سن معين. هؤلاء البلهاء كانوا يقولون لي كلهم تقريباً، في لحظة أو أخرى: «هذا غريب! يمكنني أن أكون أباك!» هذا التروي منهم كنت أنتظره، هو بالنسبة لي صوت الفصال، الإشارة بأن عليّ أن أرمي هذا المخلوق خارجاً وأنا أسخر منه. قمت بذلك بعض الوقت ولست فخورة بما فعلت، ولكن لابد من أن يدافع المرء عن نفسه. بعد ذلك تأتي الأريكة والهدوء النسبي. التقيت جينو في الفترة التي بدأتُ فيها بتذوق هذا الهدوء، هذه العزلة حيث كانت تبتعد عني أشباح الماضي وظلاله. ولكنني أدركت بسرعة كبيرة أن الأمور مع جينو ـ الذي يصلح أن يكون والدي ولكنه لم يقل ذلك قط ـ ستكون مختلفة: خفيفة وخطيرة، مكثفة ووحشية، حلوة وقاسية. الهوى وحتمية الهوى كنا بحاجة لهما نحن الاثنان، أنا لأنني أريد الحياة، وهو لأنه كان يتخلى على مهله عن حياة حقيقية، من أجل هذا ارتبط لقاؤنا بنوع من المعجزة والسحر. لاشيء كان معدّاً ولامتوقعاً. ولكن كما في كل

الأفراح لابد من الوصول إلى لحظة يتوجب فيها الانقطاع: عشنا حياة مترعة حتى الثمالة، أعطينا نفسينا بدون احتياط، بدون حساب، بدون اقتصاد. يحدث لنا أن نشعر بالخوف، لم نشعر بأننا قادرون على مواجهة مثل هذه العصفة من الحياة. عند ذلك توقفنا فوراً. هذا ماحدث لنا».

إيدي كانت تعيش مع أخ غير شقيق له مشاكل هو الآخر مع أبيه. رفضت أن يأتي جينو إلى بيتها. قالت له إن بيتها هو سرها وأنها تفضل أن يبقى بعيداً عنه. أعتقد أنها كانت متشددة في مطالبها، فهي لاتتحمل غيابه، الوقت الذي يقضيه في تمارينه قبل الحفلة الموسيقية، الأسفار التي لاترافقه فيها، الليالي التي لايقضيها معها، الطفل الذي يرفض أن يعطيها إياه. وفي أحد الأيام قدم لها مجاملة غريبة. قال لها: «البرهان على حبي لك هو أنني لو قابلتك من قبل لما عرضت عليك الزواج! ذلك لأن الزواج هو عقد اجتماعي يتعارض مع الحب الكبير. أعرف أن ثمة زيجات سعيدة. زواجي أنا كان كئيباً خالياً من السرور. في الزواج يحل مع الوقت شيء آخر مكان الحب. أنا لم أخلق لهذا ومع ذلك فعلت مثل كل الناس. فقدت حياتي شيئاً فشيئاً تألقها. من حسن حظي أنه كان لدي موسيقاي. أخيراً، آمل أن تقدّري مجاملتي!».

يالها من مجاملة غريبة بالنسبة لامرأة شابة تحلم بحب كبير يتبلور في روابط الزواج المقدسة، مع أطفال، في حياة تصخب بالفرح، بالأزهار والمفاجآت السعيدة. إيدي كانت تحاول أن تمحو ماضيها، أن تستعيد طفولة حرمت منها، لقاء جينو كان ضربة صاعقة. وفجأة وجدت الرجل الذي تحلم به، ذلك الذي سينقذها من ماضيها، البطل الذي يأخذها فوق حصانه الأبيض، وجدته هنا، أمامها، مبعوثاً من القدر، موضوعاً في طريقها بيد القدر. على أنه لم يكن بهذه البساطة، إنه رجل ضعيف، ليس حاراً من أجل عقد روابط حاسمة. إيدي هي بحاجة لرجل أقوى منها، رجل لايتردد، يتخذ مبادرات ويقودها في دوامات أخرى. بينما جينو ليس إلا

رجلاً شجاعاً، محباً، مستقيماً ولكن غير قادر على فتنة امرأة، تبحث عن شكل آخر من أشكال الرجولة. عندما يتضاجعان كان جينو يرفض أن يخضع لشهواتها العنيفة. التمست فيه قوة عقلية ليست فيه. إيدي لم تكن منحرفة ولامريضة، ولكنها احتاجت لأن تعجب برجل يعرف اتخاذ القرارات، لايتلعثم ولايغمغم، يعرف أن يقول كلا عندما يجب ذلك.

ومع ذلك فإن حب جينو المفاجئ لإيدي أعاد إليه البريق في وجهه، أعاد إليه الشباب والحياة. يقول إنه شعر بسعادة بالغة مع إيدي بحيث ينام والابتسامة تغطي جسده كله، بعيداً عن تصور كل ماكانت هذه المرأة تتطلب منه. ربما كان عاجزاً عن الفهم. في نظره أن يحب يعني أن يكون ليناً مصغياً مطيعاً وخاصة خاضعاً لانفعالاته. بينما لم تكن إيدي ترغب برجل خاضع. إنها تبحث عن متمرد يفهمها ويخرجها من طفولة مليئة بالمزعجات والذكريات المؤلمة. جينو لم يكن من قماش بطل، هو فنان وحسب يمتلك الموهبة والطيبة.

عندي هنا، رسائل كتبها لإيدي ولكنه لم يرسلها. سأبحث عنها. إنني أحب هذه القصة. المضجر فيها هو أنها تجعلني أبكي في معظم المرات التي أرويها فيها. إنني مثل إيدي رومانسية وعاطفية...

«الحب، حبي، هو النعمة والطل فوق الحب المولود عند الفجر. هو يدي المتشبثة بشعركِ بينما عيناك مخضلتان بالدموع السعيدة مع تلك الخطورة التي لاتكذب والتي تمسني في أعماق نفسي. ياأنتِ التي أتيت لتسقيني من شبابك الجميل، لقد أعدتِ لي الحياة والرؤية بين ذراعيك، في الهوى الذي جرفنا، في الضحكة التي وحدتنا. لقد نسيت هذا الطعمَ الذي يأخذه النهار، هذا البطء الذي يغلف جسدينا في الحب. نسيت أن هذه المشاعر تمكنت أيضاً من التغلغل في جسدي كله. عندما أعزف يحدث لي أن أشعر بشيء من الاضطراب، هذه اللحظة التي يعجز عنها الوصف حيث يشعر المرء بأنه خفيف

جداً، كما هي الحالة عندما عيناك تعرضان نفسهما أمامي خطيرتين ضاحكتين... ولكن أين أنتِ؟ الغياب، الصمت الذي لايطاق... هذا الباب المغلق، هذه الصحراء المنسكبة في حياتي...».

العجوز توقفت عن القراءة. كانت متأثرة. بعد لحظة صمت تابعت:

أنت تتساءل عما جرى. لِمَ كل هذه السعادة التي انقطعت بشكل فظ؟ جينو قال لي إن هذا أشبه بالموت، أشبه بنهر جف، أشبه بصوت انقطع إلى الأبد. إنه لم يفهم ماالذي جرى لقصتهما.

سأشرب كأساً كي أتمكن من المتابعة.

كانت لهما أيام جميلة وحلوة. غالباً كانا ينفصلان في المساء، هو يحتاج للوحدة لتأليف موسيقاه، هي تلتقي بأخيها غير الشقيق صديقها وشريكها. أفاد من حفلة موسيقية عليه أن يقدمها في غرناطة فحجز جناحاً في بارادور حيث اعتزل مع إيدي بضعة أيام وبضع ليال. كل شيء كامل: المناظر الطبيعية، الأماكن، النبيذ، السمك، المناخ. كل شيء كان رائعاً.

إليكَ ماسجله في دفتره الأزرق:

«الوصول إلى غرناطة لم ينبئ بخير. مدير المسرح أخطأ في التاريخ والحجوزات تمّت من أجل يوم آخر. إيدي لم تحب قط هذه الفاتحة. ثارت أعصابها. كانت تقول طول الوقت إنها لاتستحق ذلك. أمضينا ليلتنا الأولى في فندق مركز المدينة. الجو كان حاراً والضجيج كثير. من حسن الحظ أن الحب هدّأ جسدينا. في اليوم التالي أصبحنا في جناح من فندق البارادور يطل على غرناطة كلها. بعد الحفلة لم نخرج. جسدانا لم يكفا عن الالتحام عن المداعبات عن الفرح والحبور. تناولنا العشاء في الغرفة على ضوء الشموع وأُعجبنا بأضواء السماء فوق المدينة. كنا نأخذ حمّامات طويلة وساخنة في مغطس واسع تسكب فيه عطوراً مختلفة. كانت تدعك جسدي وتروي لي قصصاً مضحكة أو تقرأ لي صفحات من آنا

كارنينا. كنا ننام على الأرض تغطينا مآزر الحمام. أول من يفتح عينه يلحس جسد الآخر ليوقظه بلطف. لقد تعب لساني ولكنني كنت أتابع المداعبات. في نهاية اليوم العاشر شعرت بأن شيئاً يدبَّر في رأس إيدي. قبل ذلك ذكرت الرحيل والتوحد. كانت تقول مازحة إنها من أجل أن تنسى ستذهب مع رجل آخر أو حتى عدة عشاق. لم أكن أصدق ماتقول، ولكن شكاً خامرني. يجب أن أقول بأننا تناولنا في إحدى المناقشات رغبة المرأة في طفل وهي في الثلاثين من العمر، الأمر الذي جعلها تبكي. أنا، كنت واضحاً في هذا الموضوع: لاسبيل إلى إنجاب طفل لامنها ولامن أي مخلوق. عندي ولدان كبيران لم أعن بهما العناية الكافية ولن أرتكب مثل هذه الخطيئة أبداً. الدموع كانت تأتيها من بعيد، ربما من طفولتها التعيسة. شربنا نبيذاً وتضاجعنا من جديد، وفي اليوم التالي عدنا إلى نابولي، وبعد ذلك الصمت القاسي.

عودتهما أنبأت بنهاية هذا الحب. إنها إيدي التي قررت ذلك. لقد عاشت سعادة جميلة جداً، كبيرة جداً، ولم تحتمل فكرة أن حبهما في يوم من الأيام يمكن أن يدخل في الابتذال أو أسوأ من ذلك في الروتين. ومن جهة أخرى لم يكن في إمكان جينو إنقاذها. أخوها غير الشقيق الذي قابلتُه بعد ذلك قال لي أشياء غريبة في موضوعها: «إيدي امرأة مجروحة تحتاج لمن يقهرها ويذلها، وأعتقد أن جينو كان لطيفاً جداً معها. يفضل أن يرضي رغباتها، يفعل كل شيء ليسعدها، لم يفهم أن الحب يمكن أن يكون أيضاً في الحزم، في علاقات متينة وقاسية في الوقت نفسه. هي لم تبحث عن الفظاظة، بل عن شخص يمسكها بقوة بين ذراعيه لكي لاتفلت منه، بينما جينو كان يضغط عليها بين ذراعيه ولكنه لم يكن يمسك بها. كان يكتب لها رسائل جميلة ولكنه لم يعطها بطريقة ملموسة ماتأمل به».

جينو استغرق وقتاً ليفهم ذلك. لِمَ تفارقا بينما الهوى كان في ذروته؟ لم يبد عليها شيء. ربما تقررت القطيعة قبل السفر من غرناطة، «سفرة عرس بدون عرس». لم يعد في اليد حيلة. أغلقت

نفسها عن كل شيء. كتب لها رسالة في كل يوم ومامن جواب. لم يعد لها وجود. هتف لها كل صباح ولم تجب. ماتت، اختفت، لم تكن موجودة قط. حاول جينو كل شيء لإيجادها، للتحدث إليها، ليعرف لِمَ هذه القطيعة العنيفة والجذرية. لم يعد ثمة أي أثر للجميلة إيدي. جينو غرق في قلق عميق، حزن حزناً كبيراً، كان يغلق عينيه ولكن بريق الذكريات يراوده في كل مكان. لم يعد يعيش إلا بهذا البريق الذي يتعبه، يجعله يشك في الحياة التي عاشها. كل هذه الذكريات تضطرب في شعور من اللاواقعية. قال له أحد أصدقائه: «بين الجنة والنار يوجد مجرد ستار رقيق شفاف خفيف غامض. مثل هذا الحب الكامل لايمكن أن يدوم. كان لابد من إيقافه لحظة بلوغه الأوج. في رواية أو فيلم ميلودرامي أسلم العاشقان نفسهما للموت لحظة الغسق، في اللحظة التي تتخضب فيها السماء باحمرار الشمس الغاربة. في الحياة يأخذ المرء سبيل الهروب. التفسيرات لافائدة منها. الكلمات لاتُضاف إلى الأمور الخطيرة. من الأفضل النظر إلى الناحية الأخرى وقبول الألم. أخيراً، من السهل القول، ولكن ياصاحبي المسكين المرء دائماً وحيد، لاتنسَ ذلك أبداً».

جينو قال لي إن الأمر كان أقوى منه. هذه النصائح تركته غير عابئ. روى لي كيف أنه قرر أن يترك البيت بسرعة وأن يستقر في فندق كبير وينتظر عودة إيدي. كان يعود إلى الأماكن التي اعتادا أن يقوما بنزهاتهما فيها. الأمل في العثور عليها غدا وسواساً، نوعاً من المرض. فجأة هجر البيانو والتمارين وغضب مدير مسرحه الذي حاول أن يخرجه من هذه الحالة وألغى حفلاته الموسيقية. منذ ذلك الوقت استسلم جينو لليأس وتخلى عن الحياة والكفاح. تاه في نابولي باحثاً عن إيدي. وككل المهووسين كان يراها في كل مكان: في الإعلانات، في الأفلام، في الشارع، في أحلامه. ومن سوء حظه أنه كان قليل الأحلام لأنه لاينام إلا نادراً. أخذ يبحث عن سيلفانا مانغانو، يجمع صورها، يحضر أفلامها مرات عديدة لأن إيدي تشبهها. كل شيء اختلط في رأسه. عندما يرى صورة مانغانو

يستبدلها بصورة إيدي. وأصبح مرتاحاً لهذا الظفر العقلي. هنا بدأ أول الانحراف. أصبح يعرف عن ظهر قلب «الرز المر»، يتلو حواراته، يرقص كما لو أنه فيتوريو غاسمان. اقتنع بأن إيدي ليست أكثر من رؤيا في حياته، صورة تنتمي إلى عالم الصور. فكر أنه يتخلص بذلك من الألم. مجرد وهم. في إحدى الأمسيات شعر بالحاجة إلى قدح من الفودكا. ليس من أحد في الصالة. نظر إلى الساقي، سيد عجوز ذو شعر مصبوغ، ثم قال له:

ـ أكنتَ يوماً عاشقاً، عاشقاً جداً؟

ـ كلا ياسيدي، كنت دائماً ساقياً.

ترك جينو كأسه ومضى، أكثر يأساً مما سبق.

عندما علمت إيدي عن طريق الصحافة أن كل حفلات جينو الموسيقية ألغيت قررت أن تظهر من جديد. وعندما وجدته جالساً إلى طاولة في عمق أحد المقاهي صُدمت. كانت أمام رجل عجوز، رجل مهمل، بدون حلاقة، ذي شعر قذر وعينين منطفئتين ومشية مترددة. كان لها الحق في أن تقول لنفسها: «ليس هذا جينو، ليس جينو الذي عرفته، الرجل الذي أحببته بجنون. كلا هذا رجل آخر، هذا الرجل المهدَّم ليس الفنان الذي عرفته». في عام واحد أمسى خِرقة، عند حدود الجنون. إيدي غطت وجهها لتبكي. بذلت جهدها لكي لاتظهر حزنها الكبير. إنني أفهمها. أظن أنها لم ترغب في أن تشعر بالذنب. بوجه عام هذا ماحصل. هناك قررت أن تأتي به إلينا، ليس فوراً. اعتنت به لبضعة أيام، أخذته إلى بيتها، أدخلته الحمام وحسنت مظهره متجنبة أن يرى حزنها. فحصته عند طبيب ثم عند طبيب نفساني. جينو كان له مظهر الحائر الزائغ لايعرف أين هو خالطاً بين إيدي ومانغانو. فقد عقله ولكن ليس لدرجة أن يدخل مشفى للمجانين. تمر عليه لحظات من الصحو، ينهض ويبحث عن بيانو ليعزف عليه، يقول إنه ربما سيصبح أفضل عما قريب عندما

تأخذه إيدي بين ذراعيها وتجعله يسافر عبر العالم. كان يهذي بلطف، لايهدد أحداً، أو يغرق في صمت عميق. صديقة قديمة لإيدي دلتها على نزل المساكين ولم تكن قد سمعت بشأنه، ولكن فكرة العهدة به إلى نزل خاص لم تكن مطمئنة. على كل الأوجه لم يكن ثمة رغبة لديها في أن تحتفظ به في مسكنها ولا أن تبقيه في أماكن قريبة منها. بالنسبة لها تلك قصة أخذت منحى سيئاً وينبغي التخلص منها. كانت تتألم هي الأخرى وتدفع عنها نزواتها القديمة.

جينو أخذ مكانه بيننا في هذا النزُل في اللحظة التي يتحدثون فيها عن إغلاقه. نزل المساكين أمسى نزل الذين أغرقهم الحب، أو إذا أردت: نزل الذين أغرقتهم الحياة. أما أنا فإنني الاثنان. على أن الحياة والحب هما الشيء نفسه. إنها غارناس من قالت في «أطفال الجنة»: «أنا حية» بدلاً من أن تقول «إنني عاشقة وسعيدة».

إيدي قالت لي أيضاً شيئاً مثل قولها «أنا أحببت، هذا كل شيء. حبي أخذ الطريق الذي أراد. جينو لم يكن في ذلك من أنصار أي شيء، فكيف أقول له: خذني في طرقات الحب، خذني نحو قمم الحب الفريد ولاتنزل من السماء ولامن الجبل. أنا أيضاً غريقة، أقاوم بقدر استطاعتي».

والآن، لقد عرفت أنك هنا لن تلقى إلا المجروحين والمشوهين والعرجان، ووجوهاً صاغها الشقاء والحزن أو أنها صيغت بكل بساطة على غياب ليس له تفسير. جينو لاحق خيالاً، ذكرى، صورة. إيدي أنقذت حياتها، ابتعدت، حافظت على نفسها. ربما يكمن سوء التفاهم هنا. لقد أخذت طريق الفرار في الوقت المناسب لتنقذ جلدها. أما هو فلم يفهم أن عليه أن يأخذ هو الآخر طريق الفرار. وقد تابعت هي حياتها، وظن هو أنه عاش، حتى يوم لقياهما.

جينو مريض لاينقطع عن الهزال. يرفض أن يعتني بنفسه. يأتي إلى هنا من وقت إلى آخر ليأخذ بعض ثمار الليمون. يقول إن

رائحتها تحفظه على قيد الحياة، إنها كذلك ذكرى نزهة في راڤيلّو حيث معظم الأشجار هي من أشجار الليمون. دفتره الأزرق خَتَمه بقصيدة شعر. كم أحببت أن يكتب أحد الرجال هذه الأشعار:

«هل بفعل الحب
تسقط الكلمات في الفراغ
كما يسقط المساء على زرقة المرمر

أبفعل غضب الصمت
تغرق الأغاني في الغياب
أنت، أيها الضياء
الذي خبا فيَّ بسبب اختفاء هذه الضحكة التي تنقصني.

شعر لافائدة منه
أمام نظرة تقاوم
وهذا الجسد الذي يحترق
في مرآة الذكريات

أنت
ماالغريب عنك في هذا الاستسلام
حيث الوجه يتكشف
في خطورة الأعين المخضلة بالحب

ماالغريب عنك في هذا الخلود
ثوب حب يرتجف

تختطفه أجسادنا الملولة ذات يوم

نحن نحتاج
إلى أنوار الزمن الكسولة
إلى الراحة المتأخرة
إلى دموع المسيح
وإلى هذا الارتخاء الجميل
تعبنا السعيد

وجهك يفارقني
عندما تلح أفكاري

ابتسامتك
أحتفظ بها في أحد عروقي
ممنوعة عن الغياب

هذه الابتسامة
هي ابتسامة صوتك عندما يقترب
ابتسامة يديك
التي أقبّلها وأنا أقبّل عينيك.

أنا لم يقل لي أحد البتة أشياء بهذا الجمال مع أنني أستحقها. يجب أن يتجنب المرء بلوغ القمة وخصوصاً في الهوى. أنا لم أعرف قط أن أصون نفسي. تلقيت صفعات ولم أفعل شيئاً لأتجنبها.

هذا بدون شك هو السبب في وجودي هنا. أوه! حصلت على السلام! جسدي أرهقني قليلاً ولكنني خُلقت لذلك. خدعت، اخترعت، استقبلت، ضحكت، وخاصة تعلمت شيئاً أساسياً: ألا أنتظر شيئاً من الآخرين. قضيت حياتي أدقق النظر في هذا الضلال. المقاسمة فخ. هاأنت رأيت أن إيدي حتى عندما أعطت نفسها لجينو كانت تعرف أن المقاسمة مستحيلة. هو، الأبله الكامل في أمور الحب، كان ينتظر كل شيء من هذه المشاركة. في الوقت نفسه هذا جميل. رجل صلف وبدون جاذبية كان معه الحق في أن يؤمن بالحب بطريقة عمياء. هذا مؤثر، ولاشيء حقيقي غير هذا!

تلك هي قصة جينو. حدث له أن يعزف على بيانو من الخشب حفر له ملامسه على طرف إحدى الطاولات. وحده سمع موسيقاه. كان يركِّز، يغلق عينيه ويعزف حتى النهاية. بذل أولاده جهودهم ليستعيدوه ولكنه أصر على ألا يتبعهم. قال إنه ينتظر شخصاً آخر. أعتقد أنه أحس بنفسه هنا جيداً، فقد كان عليه أن يجد السلام ليهدئ جراحه. مالم يقبله قط هو النهاية الفظة لقصته. إيدي لم تفكر في أن تسيء إليه. كان ينقصه شيء لايمكن تحديده. قال لي إنها إنسانة طيبة. ولكنها لاذت بالهرب دون أن تفكر بأن جينو سينتهي أمره إلى ملجأ جرحى النفوس هذا. رأيت من أمثاله الكثيرين، ولكنهم أقاموا إقامة قصيرة على وجه العموم ثم رحلوا. هنا يشبه أسفل مدينة منحرفة، ولكن نابولي لم تكن قط مدينة منحرفة وحسب، فقد حدث لها أيضاً أن غدت بطلة العالم في النشل، في السطو المسلح على المنازل دون ترك أية آثار، لأجمل رقصات العصافير الدورية في السماء فوق المرفأ، لمسابقات صاقلي الجماجم.

دق جرس الهاتف. العجوز بحثت عنه. إنه تحت كومة من الملفات، مددته إليها. تحدثت بصوت منخفض:

«آه، حسن، السنونو لم يعد يصنع الربيع، التم، بلى. العصفور الذي يحب المنارة. كلا، مومو خرج، بلى قطعاً. ولكن ماذا أتى يصنع

هنا بائع زيتون القدس؟ قل لي، هذا العشاء، نعم، هو كذلك، كلا لاشيء، بالتأكيد أنا هنا، لاأتحرك. الشمبانزي أيضاً، هو كذلك، العين لاتعلو أبداً على الحاجب. النقود، لِمَ النقود؟ ولكن أنت تعلم جيداً أنني لم أعد أملك منها شيئاً. السرقة؟ ولكن أنت مجنون. ولكن لماذا تدخل السنونو في هذه المسألة؟ ولكن ماذا تفعل في باليرمو؟ مرة أخرى معارك النفوذ... لن تتغير أبداً. وداعاً، سأغلق الهاتف. هو كذلك، إلى اللقاء. أعرف، نزل المساكين في باليرمو. كلا لاأعرفه. ليس لدي رغبة. وداعاً».

أطلقت زفرة، استرخت في أريكتها العتيقة وساقاها منفرجتان. نظرت إليَّ وعيناها تلمعان بسبب الدموع.

ـ العشاء أُلغي. ابن العاهرة هو الذي ألغاه، ماركو، النصّاب، اللص إنه يلاحقني، يرهقني. لو أن مومو يلقنه درساً. إنه قادر على خنقه.

كم هذا مثير للفضول! آتي إلى نابولي من أجل أن أكتب كتاباً وهاأنذا أتدخل في مشاكل هؤلاء وهؤلاء. والواقع إن مدينة من المدن هي وجوه وأجسام تتحرك، تختلط، تختصم، تتشابك، يمزق بعضها بعضاً. جماهير تتجمع أمام تاجر الأخطبوط، جنازة تمر، غسيل يجف على الشرفة أو بين عمارتين في شارع ضيق، قليل من السناج فوق حجر، مصباح نيون يرفّ، روائح مطبخ، عطر سيدة عجوز، حافلة عامة معطلة في شارع مليء بالمارة، غجر يمدون الأيدي، آخرون يفتشون في حقيبتك. صالة عرض خالية في الصباح ومليئة بالمهاجرين عند المساء. مقهى عند كل مائة متر. أطفال يجتازون الشارع بدون انتباه، إشاعات، دخان يصعد إلى السماء، عشاق يعتقدون أنهم وحيدون في هذا العالم، غيوم تتجمع، عربة إطفائيين تسد شارعاً صغيراً، بائع كتب يغني، شحاذ يعزف على الأكورديون، ضوء ينزل ببطء من السماء، امرأة تبكي ورأسها على الحائط. حافلة كهربائية واقفة. مصعد سلكي يصعد وآخر يهبط،

ممثلة التوى عرقوبها بينما ينظر إليها آكل بيتزا، شاعر فقد صوابه، فراش عتيق مغطى ببقع الدم والمنيّ على الرصيف، تلفاز ميت، ثلاجة مكسورة، إعلان عن فوط صحية وأخرى عن حفاضات للأطفال، شرفة تنحني وسيأتي يوم تسقط فيه دون أن تقتل أو لتقتل بعضاً من المارة، ساحة بليبيسيت مفتوحة للفنانين، القصر الملكي يتبرَّم، الكنائس تكتظ بالسياح، رائحة القهوة الصباحية، رائحة الخبز المحمَّص، وأنا الذي استيقظت بعد سهرة طويلة من نوم عميق... تلك هي مدينة حية...

ـ هيا أيها الصغير، استيقظ، هل رحلت؟

ـ اعذريني، تركت نفسي محمولاً بين يدي أحلامي...

ـ حسن. أرجو ألا تكون قصة جينو هي التي جعلتك تحلم؟ بعد كل شيء، هو حب قوي، حتى ولو انتهى على صورة سيئة فإنه ليس بسيء، يثير بعض الفوضى والكثير من الحياة في الأوعية الدموية. هذا مثير للفضول، لقد شعرت بالراحة لأنني تحدثت إليك ورويت لك القصص أنا التي فقدت شعري وسمعي، أنا التي ماكف الجمال عن أن ينطفئ فيَّ. أنا التي تشعرني رجلاي بالأوجاع، التي كل جسدي يشعرني بالأوجاع. أشعر أن المقرفات في نابولي تسري في عروقي. أنا تلك السياقات التي تجري فيها المياه القذرة والفضلات. لقد حررت نفسي من كل ماتفوح منه الروائح النتنة، غسلت نفسي من الداخل، أصبحت نقية وإنسانة، إنسانة جداً، غطيت جراحي بعجائن ممزوجة بالخمائر، طليت وجهي بالمساحيق، أغمضت عينيّ ورأيتك، هناك، وأنا أعد نفسي لتسجيل مدونات، كما لو أن حياتي يمكنها أن تكتفي بدفتر التلميذ التافه هذا. أغمضت عيني فعدت لأرى الشرفة، الصيف في بوسيليبو، البحر المتلألئ، نابولي صامتة وعشاقي ينتظرون. أوه، أيها الرجل الصغير، لاتكتب شيئاً عن عشاقي، قد يغضبون ويأتون ليَفْروا جلدك. كل مارويته لك حقيقي، ولكن الحقيقة تفلت منا، إنها هناك حيث لاينتظرها المرء.

قلت لك في البداية إنني النزيلة الأخيرة في هذا النزل، ربما كذبت عليك، لاأعرف ذلك أنا نفسي، وقد عرفت أنت مع ذلك أن المساكين ليس بهم من حاجة لأن يعيشوا في قصر. أن تكون مسكيناً معناه ألا تكون محبوباً، هذا كل شيء، لذلك فإن القصص كلها هي قصص حب. وعندما تكون لها نهاية سيئة فهي ترسب هنا في هذا القبو تحت الأرض مثل حطام سفينة غارقة، مثل أشياء تافهة ارتطمت بسور الحياة.

هوذا الأمر ياصغيري، نابولي هي كل هذا ومعه أنا، خاصة أنا. إذا أردت أن ترسم لوحة كبيرة ملونة وعالية، شاذة ومهذارة، فأنا من يجب أن تنظر إليه. مايضجرني هو أنني عندما أوجه كلامي إليك فإن هذياني يهدأ، أصبح عاقلة، متعقلة، أستخدم جملاً مهذبة، أحترم القواعد، أتحدث إليك كما كنت أفعل في الوقت الذي عشت فيه في بوسيليبو، ولكن من أنت؟ هذه المرة لن تخرج قبل أن تدلي باعترافات. حسن! إنس فندقك الفاخر ومواعيدك المتمدنة. ستتكلم وسأصغي إليك. فلننتظر عودة مومو فأنا أرغب أن يكون حاضراً عند ذلك. قلت لك الكثير من الأشياء وعليك الآن أن تكشف عن خبيئة نفسك، إنه دورك بالكلام... من أجلك سيكون ذلك مجاناً...

7

عزيزتي وردة

لاتغضبي مني. لم أستطع أن أتصرف بطريقة أخرى. من المستحيل أن أتخلص من العجوز. اضطررت لأن أروي لها قصتنا منذ البداية، منذ اليوم الأول حتى رحيلي إلى نابولي. لعبت اللعبة. لم أُخفِ شيئاً. لاأعرف ماإذا كنت نزيهاً عادلاً فيما يتعلق بك، ولكنني فكرت أنني إذا تحدثت في هذا الموضوع فربما كان لنا الفرصة في أن نتخلص منه.

إذن لاتنسي أننا في رواية. الحقيقة غالباً يتم تجاوزها، يعاد ترتيبها أو أنها بكل بساطة تحوَّر. الأشياء قيلت. والكلمات خطرة. لقد قلت ذلك دائماً. واليوم هي تتعلق بنا. كنت بحاجة لهذا الابتعاد وخاصة لهذه المرأة العجوز مولِّدة المواهب.

إلى اللقاء ياصديقتي العزيزة.

كانت العجوز تشخر نائمة ورأسها مائل إلى اليسار حتى أنني أظن أن لعابها كان يسيل قليلاً. بقيت صامتاً أنظر حولي، صمت ثقيل يرين فوق الأشياء. تلك الأغراض المكسورة لم تعد تنفع شيئاً. كل هذه الأمتعة المكدسة في هذا العنبر تعطيني الشعور بأنني في ضاحية من أكواخ الصفيح في أطراف الدار البيضاء، حي للفقراء

بعد زلزال أو طوفان. جرذ اجتاز الغرفة بانحراف. أطلقت صراخاً. رأس العجوز مال الآن إلى اليمين. فكرت بجينو والبيانو الخشبي. قصته كانت موجزة. انحطاط قواه الذي أدى إلى انهياره لابد أنه يعود في تاريخه إلى ماقبل لقائه مع إيدي. نحن نحمل دائماً فينا بذور الانحطاط. قلت في نفسي إنه إذا ماحصل لي ذلك فقد لاأعرف ماذا أفعل. طالما فكرت في ذلك وخاصة منذ أن روى كتّاب ذوو سمعة قصتهم. (أعرف ياعزيزتي وردة أنني لم أصبح بعد كاتباً مهماً، ولكن ذلك لايمنع من ألا يقيم المبدعون الكبار احتكاراً على آلامهم). الانحطاط يضرب خبط عشواء. إنه مرض وليس حالة نفسية، «في أحد الأيام، في صباح أحد الأيام ـ سجل أنطونيو وهو كاتب إيطالي ـ لم أستطع أن أنهض من أريكتي، بقيت فيها طول النهار وعيناي مثبتتان على نقطة وهمية، لصقتُ، العالم من حولي لم يعد له وجود وكذلك الخطر، أصبحت في عالم آخر، ربما في عالم لم أعد أشعر فيه بالأشياء، عالم سُمِّرت فيه بعجزٍ في أريكتي العتيقة التي كنت أحب أن أقرأ فيها الصحف كل صباح. هنا لم تعد عيناي تميزان شيئاً، أضحتا فارغتين، والأشياء هنا لتزدريني. لاأتحرك، لم تعد لدي الرغبة في أن أنهض أو أتكلم أو أصرخ، اقتصرت رغبتي في أن أبكي طويلاً، طويلاً، بدون سبب وبدون نهاية» وكما تقول الأغنية: «هذا يحدث، هذا لاينذر!». يبدو أن ناس الريف هم أيضاً محبطون. يقلقون من الجفاف أو من الأمراض المعدية في المواشي. يأتون إلى المدينة للعناية بأنفسهم. كل انحطاط في القوى هو قطيعة فظة، مواجهة مع الذات في العزلة. إذا كان ذلك لاينذر فكيف يمكن تجنبه؟ يحدث لي أحياناً أن أشعر في نفسي أنني غريب تماماً عن العالم. خلال بضع ثوان لاأعود أعرف أين أنا ولامن أنا وخاصة لاأعود أشعر بالحياة تسري في عروقي. يقولون إنه اختفاء مفاجئ للهواء. هذا مختصر ولكنه مؤثر. طالما انتابني الخوف من أن يغمى عليّ وأنا نائم ولا أستيقظ أبداً، أن أرحل هكذا بهدوء بدون ألم بدون ضجة دون أن أكون مضطراً لرؤية الموت

مقدماً عليَّ غير عابئ بتوسلاتي وبدون شفقة. سيكون ذلك كما يقولون «موتاً جميلاً»، كما لو أن الموت يمكن أن يكون له الحق في علم الجمال وفي اللطف والنعومة. راقبت العجوز ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في موتها القريب. ربما في هذه اللحظة هي في سبيلها إلى الموت بلطف. إنه القلق، بكل بساطة، هو مايغزوني. إنه مجنون هذا القلق الذي نحمله فينا. أنت نستطيع أن تفرغ قلقك في أشياء تافهة، أما أنا فلا.

حسبت أن العجوز انتفخت إذ بدت لي ضخمة. راقبت تنفسها، إنه منتظم، هي نائمة. ماذا سأقص عليها عندما تصحو؟ ماذا أقول عن حياتي؟

مومو دخل العنبر برفقة شابة سمراء شعرها مصبوغ باللون الأحمر، عندما رأى العجوز زمجر موجهاً كلامه إليّ:

ـ أيها الأبله، يجب أن يُقدم لها دواؤها، إذا لم تفعل ستصاب بالإغماء الكامل. هيا، انهض، العلبة في الثلاجة.

في خلال ذلك كان يربت على وجنتيها ويجعلها تشم بصلة مقسومة إلى نصفين. وعندما استيقظت قالت ببساطة:

ـ السنونو بنى عشه في المسجد. طبيعي، هذا بسبب الريح.

الفتاة ذات الشعر الأحمر كانت متأثرة. نظرت إليّ كما لو أنها تبحث عن تفسير لكل هذا، ثم التفتت إلى مومو وأسرت إليه في أذنه ببضع كلمات. جذبها إليه وداعب إليتيها من فوق بنطالها الجينز الضيق جداً. شدت نفسها إليه وقبلته في عنقه فقاطعتهما العجوز:

ـ كلا، مومو، أرجع الفتاة، مؤخرتها هابطة جداً.

بدون مناقشة غادر مومو مع الفتاة ثم عاد بعد بضع دقائق.

ـ ماما، ظننت أنني أحسنت صنعاً. أخطأت القول بأن مؤخرتها هابطة. إنها مغربية ولدت في بولونيا Bologne (مدينة إيطالية)...

تبحث عن عمل. ظننت أنها قد تستطيع مساعدتي في بيع أدواتي.

ـ هذا المساء سنصغي إلى الصغير. لديه قصص سيرويها لنا، هو أيضاً مغربي، أما مؤخرته فهي لاتهمنا.

بعد لحظة من الارتباك تبعها صمت ثقيل نهضتُ وخطوت بضع خطوات فاشخاً فوق علب مومو الكرتونية وسألتهما ماذا ينتظران مني.

ـ شيئان: لماذا نابولي (لاترو لي ثانية قصة المسابقة)، وماهي قصتك، قصة حياتك؟

ـ نابولي! قبل أن أصل إليك بحثت عن مركز هذه المدينة فلم أجده. لم أفهم شيئاً. شعرت أنها تفتن وتنفّر لأنها قبل كل شيء مرفأ صاخب مصنوع من البروق والأعاصير والنزوات. حياة متبدلة، مقنَّعة، فظة، قذرة ملأى بالألوان والتوابل، خيالية لاتصدَّق، مدهشة، مخيبة للأمل حيث الحقيقة متنوعة الأشكال، أبداً ليست مؤكدة، حيث الكذب ضروري، واللصوصية فن، والضحك إرادة، والخرافات ممتزجة بالواقع، والأمل ينزل إلى الأقبية، والسنونو يبني عشه في المساجد...

ـ تقصد القول في كُنُس اليهود؟ فنابولي ليس فيها مساجد، على الأقل من الناحية الرسمية.

ـ هل أنتِ متأكدة من ذلك؟

ـ قطعاً، لأنني يهودية.

مومو قفز كما لو أنه عرف لتوه أن وزارة الداخلية الإيطالية رفضت التماسه وأنه سيطرد إلى السنغال فوراً.

ـ ماذا؟ أنت يهودية، أأنت متأكدة من ذلك؟ أنت يهودية وأنا لاأعرف ذلك؟ لي أم يهودية، لاحظ، إنه أمر مضحك، مسلم أسود أمه يهودية، إذن أنا يهودي أنا الآخر.

ـ كلا مومو، لستَ يهودياً، أنت مسلم.

ـ حسبما قالوا لي: اليهودي مَنْ أمه يهودية.

ـ هذا مؤكد مومو، ولكن هل أنت واثق من أنني أمك؟

ـ كيف؟ أأنت تنكرينني الآن، ترمينني، تنفينني؟

ـ ولكن لا، أوقف غضبك. أنت تعرف الحقيقة تماماً. أنا التي أعتبر مجنونة شاذة محاطةٌ بمعتوهين حقيقيين يخلطون بين الحقيقة والخطأ، الشكل والمضمون، الأساسي والسطحي... أخيراً، ماذا يهم أن أكون يهودية؟ هذا لايغير شيئاً. أنت يامومو تؤمن بإله واحد وتبقى مومو البهارات الأفريقية، ويإحبذا الأمر هكذا. بعد كل شيء فإن الدين لايفعل سوى أن يعقد الحياة. أنتما الاثنان تنظران إلي كأنني قادمة لتوي من كوكب المريخ، اِعلما أنني إذا كنت هنا، إذا كانت حياتي قد قلبت رأساً على عقب، إذا جُرحت حتى الموت، فذلك لأنني يهودية. سيأتي يوم تروون فيه قصتي الحقيقية المؤلمة. في يوم ما لاأعرفه، ولكنني في هذه اللحظة لاأملك الشجاعة في أن أحرك الرماد الذي تخثّر الدم فيه. قصتي مع ماركو ليست إلا فصلاً في كتاب حياتي. وأنت ماهي حياتك؟ هات اروها لنا...

حياتي ليس لها فائدة كبيرة، خاصة وأنني أخلط كل شيء، ماأحياه وماأكتبه، ماحدث لي وماأتخيله. أعتقد أنني قضيت في التخيل أكثر مما قضيت في الحياة. لاأدري ماإذا كان ذلك كسلاً أو إقداماً. أخترع. أغلق عينيّ عندما لايعجبني منظر وأحلم. أحياناً أخترع شخصاً أسميه وأدعه يعيش مكاني. هذا مريح، خاصة عندما يعيش المرء إلى جانب إنسان آخر يكره الأدب ويفضل الأفلام عن الكتب. كلا، امرأتي ليست سيئة. هي ماهي، أعني أنها شخص يعرف مايريد ولايغير رأيه أبداً. إنهم رهيبون هؤلاء الناس المطمئنون الواثقون الذين لايساورهم مطلقاً أي شك. إنهم أناس من إسمنت. ولكن يجب ألا نثق بالإسمنت، أقل شق في الدار يمكن أن يؤدي إلى انهيار المنزل كله. زوجتي ليست منزلاً، رغم أن الناس عندنا في

المغرب يسمون زوجتهم «البيت»، إنه شكل من العفة، نوع من الماشستية التي تفكر بأن البيت لايخرج أبداً، لايتمرد أبداً، فالبيت هو الداخل والدفء واللطافة... إنه ملجأ من الأمطار. أخيراً، أنا لم أسمح لنفسي قط أن أسميها «البيت» أو «الست» كما يفعل بعض زملائي في الجامعة. يقولون لي: «أنا على عجلة، يجب أن أذهب إلى هناك، يجب أن أُخرج الست». إنهم مثقفون! إذن، زوجتي تهزأ بما يحاك في رأسي. تعرف أن مايجري فيه هو مجرَّد، بعيد عن الواقع. ليس في ذلك من خطورة. غالباً ماتساءلت ماإذا كانت تعرف حقاً كل ماأفكر فيه. إنها لاتأخذني على محمل الجد. بالنسبة لها أنا واحد يأمل في أن يصبح كاتباً. أنا لست كاتباً طالما لم أنشر شيئاً قط باستثناء بعض القصائد والقصص في المجلات الريفية. في نظرها الكاتب هو من يصل إلى التلفاز. لقد أثقلتها بالأفكار السيئة ولكنها أقوى مني. أنا أيضاً سيء مثلها فنحن إذن متخالصان. ورغم أننا لانتحادث إلا قليلاً فنحن نعرف ما وراء الوجوه، ذلك لأن العينين لاتكذبان فهي تفضح المشاعر. عندما تباشر الحديث في السياسة مع بنات عمومتها وأزواجهن كان ينتابني الصداع. في رأسها يختلط كل شيء. تقول إن المغاربة ليس لديهم إلا مايستحقون، وتجد الأمر طبيعياً إذا زحلقت ورقة نقدية في يد شرطي لأنه أوقفها لتجاوزها النور الأحمر، أو في أن تطلب من ابنة أخي الوزير لكي يتدخل هذا مع زميله وزير التربية من أجل أن ينقل أختها من اعدادية في الضواحي تلاميذها غير طيعين إلى إعدادية في وسط المدينة يرتادها خاصة تلامذة أغنياء، أو أن تهتف إلى عمها ذي المكانة في مديرية الجمارك ليطلب من موظفي الجمرك على حدود سبتة كي لاتتعرض على يديهم للتفتيش. والأسوأ من ذلك أن عمها هذا يقدم لها هذا النوع من الخدمات. في نظرها القوة السائدة أكثر أهمية من الحق. في أحد الأيام وصلت إلى البيت مع قروية صغيرة لايتجاوز عمرها اثني عشر عاماً، رثة الثياب، قذرة خائفة وقالت لي: «إنها ستساعد الخادمة»، قفزتُ وكسرت الصمت:

ـ أتعرفين ماذا يسمون هذا الذي أنت مقدمة على فعله؟

ـ نعم أعرف. ستسمعني مرة أخرى نظريات عن استغلال الفقراء، وغيره وغيره.

ـ هذا نوع من الرقيق. ليس لك الحق في أن تشغِّلي طفلة ينبغي أن تكون في المدرسة.

ـ أهلها ليس لديهم مايأكلون وتريد أن يرسلوا أولادهم إلى المدرسة! على الأقل هذه الطفلة ستكون تحت سقف وستأكل بدلاً من الجوع. بموجب نظرياتك، نظريات شاعر ملتزم، الأفضل لها أن تموت من الجوع من أجل أن تذهب إلى المدرسة بقدميها الحافيتين.

ـ القانون يلزم الأهل على إرسال أولادهم إلى المدارس. يكفي أن يطبق القانون. بينما أنتِ تشاركين في خرق القانون. على كل حال هذه الطفلة لن تعمل في بيتي. عليك فوراً أن تعيديها إلى أهلها.

ـ هذا هو الأمر. تحكم عليها أنت بالشقاء بينما أنا أنقذها وأعطيها فرصتها.

ـ تلك هي المحاكمة التي يتمسك بها أولئك الذين يشغِّلون الأطفال ويحققون المكاسب على ظهورهم.

وهكذا قدنا الصغيرة إلى أهلها الذين يعيشون في ضاحية فقيرة مبنية بالصفيح. لقد سحبوها من المدرسة ليشغِّلوها. كنت غاضباً منزعجاً لاأعرف من الذي يستحق الملامة أكثر من غيره. أرغيت وأزبدت وأتهمت كل الناس: الأهل، زوجتي، حكومة المدينة، وزارة التربية الوطنية، وزير الداخلية وهو رجل ذو نفوذ، الحكومة، المغاربة الذين يغمضون أعينهم عن هذا النوع من الفضائح، الأحزاب السياسية اليسارية التي لاتفعل شيئاً ملموساً لهؤلاء الآلاف من الأطفال الذين يتشردون في الشوارع، والجفاف الذي تزداد مسؤوليته أكثر فأكثر عن الهجرة من الأرياف... ولكن هل هذه غلطة الشمس إذا كانت بلادي تضم نسبة من الأميين تعلو على نسبة كل العالم العربي؟ أكثر من نصف المغاربة لايعرفون القراءة ولاالكتابة،

وهذا بعد أكثر من أربعين عاماً من الاستقلال!. هل هي غلطة السماء إذا أصبح التسول شبه مهنة لايستنكرها أحد؟ وفطومة التي تساهم في المحافظة على هذا البؤس!

في الواقع ازداد تقهقر علاقاتنا خطورة منذ اللحظة التي وجدنا أنفسنا فيها وحيدين في المنزل بعد سفر ولدينا إلى الخارج. عندما كانا عندنا نتحدث عنهما. وبعد أن سافرا تابعنا الحديث عنهما بطريقة مكررة، كان ذلك الموضوع الوحيد لحوارنا: هل هما مرتاحان في المسكن؟ هل هما مدفآن جيداً في كيبيك؟ ماذا يأكلان؟ في إحدى المرات أعدت لهما أمهما عشر قطع من الطاجن سلمتها لواحد من زملائهما ذاهب للالتحاق بهما في الجامعة. كانت تجهل أنه لايحق لأحد أن يُدخل أطعمة إلى أمريكا الشمالية. الطاجن رموه وبكت زوجتي عندما علمت ذلك. حكاية هذا الطاجن الذي رفضوا إدخاله من الحدود الكندية شغلتنا أسبوعين على الأقل. لم أعد أستطيع سماع الحديث عن ضياع مجهوداتها، وقد حذرتها، فاعتقدت أنني أفعل ذلك نكاية بها. تركتها وشأنها وصرت أضحك بلطف. بعد حكاية الطاجن أتت حكاية الجري. طبيبها نصحها بأن تركض أو تمشي ساعتين على الأقل في اليوم لتفقد بعضاً من وزنها. وما أن استعدت للذهاب للجري في ضواحي مراكش حتى طلبت مني أرافقها. كنت هزيلاً مثل سلك من حديد فلم أشعر بالرغبة في الركض وخاصة معها. وصمتني بالأنانية، بالانطواء على الذات، بأنني كاتب فاشل، فخور بذكائه وبتمام صحته. هنا أيضاً كنت أضحك. هي لم تحتمل ابتساماتي. هذه المسكينة لم أكن لطيفاً معها فهي تثير أعصابي، تضجرني، كل شيء فيها كان ثقيلاً على قلبي: جسدها الملفوف، عاداتها المضحكة في النطق. شعرها المصبوغ. عادتها في الأكل بين وجبات الطعام. أحاديثها الطويلة في الهاتف لوالدتها، فوضاها (كان من عادتها أن تصحح وظائف تلاميذها على طاولة المطبخ وهي تأكل قطعة خبز بالزبدة)، عطرها النافذ، ألوان ثيابها، ذكرياتها كطفلة مدللة، وفوق كل ذلك غرورها. هوذا

أمري. لكم الحق في أن تسألوني: «ماذا فعلت لتعيش هذه المدة الطويلة مع شخص لاتحتمله بهذا المقدار؟» ليس عندي جواب. أنا أول من يندهش. العادة، قوة العادة، الكسل، ثقل الضغوط الاجتماعية. حلاوة الضجر... تاراتاتا، تاراتاتا...

لِمَ أنا في نابولي؟ طبعاً، إنها فرصة الأحلام في أن أترك ذلك الجحيم العائلي الصغير الذي كنت - رغم كل شيء - أجد فيه فائدة لي ويقدم لي شيئاً من الاغتراب. هذا سبب عميق. ولكن ثمة سبب آخر: أنا في نابولي وفي نيتي أن أجد أحداً ما، امرأة نابوليتانية بحسب ماكتبته لي، مخلوقة أحلام، هبة من المصادفة ومن السماء. سقطت فوقي مثل نعمة في اللحظة التي لم أعد فيها أتوصل للكتابة، وحيث زوجتي بدأت بالتمرد عليّ كأنني طاغية. إنها قصة أفلاطونية. كل شيء جرى عن طريق المراسلات. أقمنا اتصالاً بيننا مثل مراهقَين. كلا، لم أردَّ على رسالة مكتوبة بالألغاز من نوع «ج. ف تحب م.و.س. وتتمنى المراسلة مع جـ. هـ»، كلا، إيزا هي ابنة أخت أستاذي في الجامعة السيد دورنا، كانت تعد أطروحة في علم الاجتماع عن بُنى القرابة في مجتمع المغرب الريفي. خالها أقام بينها وبيني صلة بالمراسلة، في البداية تبادلنا المعلومات عن بلدينا. حدثتها عن عائلتي، عن أصولي الفلاّحية. حكيت لها قصة آخر جدودي الذي لم يغادر قط «الحوْز»، منطقة مراكش. حدثتني عن نابولي ونصحتني أن أقرأ مالابارت وإلسا مورانتي. ثم شيئاً فشيئاً، غيرت رسائلنا لهجتها ومنحاها وغدت أكثر حميمية، أكثر شاعرية وحتى أكثر شهوانية. اكتشفت أن المرء يمكن أن يقع عاشقاً لشخص لم ير قط وجهه ولاسمع صوته. كتابتها واضحة، مباشرة، مفتوحة، متسامحة. أعطيتها لصديق لي يفهم بالخطوط أستاذ في جامعتي نفسها، عنده موهبة أن يقرأ خطوط اليد ويعتقد أنه يملك القدرة على كشف شخصية المرء انطلاقاً من خطه، وهاهو ذا ماقال لي (وهو مفرط الحيوية يتحدث باستعمال إشارات يديه): «إنها

إنسانة كريمة، ولكنها كريمة كاملة، ليس عندها أنصاف الأمور، مامن تهيئة وتدبير لديها. هي تطلب كل شيء ولاتقبل بالتنازلات. تحب أن تعطي ولكنها تحب أيضاً أن تأخذ. قدماها على الأرض ولكنها قادرة على الجنون، من نوع من تترك كل شيء لتتبع نوازع قلبها. كن حصيفاً معها، لاتكذب عليها قط، هي متطلبة، لامعة، وبالطبع هي ذكية جداً، عندها من النضج مايتجاوز عمرها. بحسب ماأعرفه عنك فإنني أفكر أنك لاتملك كتفين قويين لتبحر في قصة معها. كتاباتكما متكاملة، ولكن هذا لايعني أنها تحثّك على أن تعيش قصة شاملة متماسكة. عندي شعور بأنكما لستما من كوكب واحد. هي مأساوية، قدر، شخصية استثنائية، أنا واثق من ذلك، أحس به، أراه، عليك أن تنتبه. لقد تعهدت نفسي كثيراً. بعد كل شيء الأفضل أن تتلاقيا. ليس أفضل من الرؤية واللمس لمعرفة أين هو المرء من ذلك. معها ستتعرف على قمم وهاويات. أنت الآن منحاز فلا نفع في إعطائك النصائح. ومن جهة أخرى لو أنني كنت في مكانك، لو أنني أقل ضخامة وأكثر مهارة لما ترددت في الذهاب إلى نابولي ولو اقتصر الأمر على مفاجأة الاكتشاف. أهي جميلة؟ هذا لايظهره الخط، ولكنها تملك مزاجاً. ماأراه أيضاً أنها إنسانة عندها آثار جروح في النفس. ربما كنت مخطئاً. اذهب والقاها».

في الواقع هي جميلة، عندي صورة لها أحفظها بعناية في حافظة أوراقي. حبي لها يبدو متبادلاً. أجل، أعرف، هو حب خيالي، افتراضي، أو أنه وهمُ حب. ولِمَ لا؟ عندما ينغمس المرء في الضجر من مدينة جميلة تحمل السائحين على الإغماء، ثم تنفتح نافذة صغيرة في زاوية من السماء، فليس على المرء أن يستصعب الأمور ويضع في طريق نفسه العقبات. لقد عُنيت بالأمر وتركت نفسي ببطء انقاد للّعبة فكانت مستساغة. كتبت لها قصائد وأجابتني برسوم جميلة جداً. مشاعري تجاهها كانت تزداد قوة أكثر فأكثر. تخيلتها بين ذراعيّ أشم عطرها وعلى جسدي رائحة جلدها، ذلك الجلد الذي

مالمسته قط. كنت مغرماً بصورة وكانت هي تقول لي الشيء نفسه. لم أكن أكتب إلا من أجلها. في أحد الأيام أرسلت لها برقية لأحرضها على الانتقال من الكتابة إلى السمع. أردت أن أسمع صوتها، إنه مهم طابع الصوت، بذرة الشهوة، كما أنه يغذّي الخيال بشكل أفضل. الصوت هو بداية الحميمية وبه يكسو المرء الصورة التي صنعها. ترددت قبل أن تجيبني. أظن أن ذلك فرض عليها مشاكل. لم تكن تقول لي كل شيء وكان عليّ أن أقنع بما تعطيني إياه كمعلومات عن حياتها وكأنها كائن تعيش على كوكب آخر. كنت أهتف لها مرة في الأسبوع من إحدى غرف الهاتف. أردد غالباً الأشياء نفسها. ماأردته هو أن أسمع صوتها، صوتاً بدون جُمل، بدون كلمات، فقط نغمة صوتها، موسيقاه. ذلك يجعلني أحلم، أنام على ذكراها، أحتفظ به في كياني وأضع فيه الكلمات التي أريد أن أسمعها. هذا طفولي، أوافقكما على ذلك، ولكن ليس هناك عمر تقتصر عليه الدهشة والإعجاب، تلك لعبة كانت تتعقد أحياناً ذلك لأنني أضيع الذكرى المباشرة للصوت وأخترع بسرعة أي شيء، ولكنني أنتهي بأن أستعيده ليغلفني بنغمته المثيرة الحلوة التي لاتخلو من بعض الألم. لقد فُتنت. لم نتحدث في أمور غير مألوفة، تفاهات، مزاح، وعود. لانتحدث عن الحب ولكن ذلك كان مضمراً. أحياناً يحمل الهواء مقاطع من جملة. أعددت نفسي لأن أسمع ماأتمنى أن أسمعه. ثمة أيضاً فترات من الصمت أسمع فيها تنفسها وأحياناً تنهداتها ولاأجرؤ على أن أسألها لِمَ هي تتنهد.

أحست زوجتي أن شيئاً ما تغيَّر فيّ. يحدث أن أكون مسروراً وهي تعرف أنها ليست السبب في ذلك. غدا من السهل أن تشك بوجود شخص آخر، امرأة أخرى. علاقاتنا كانت قد أصبحت هزيلة من قبل. بعد عشرين سنة من الزواج لم يعد لدينا شيء نتبادل بشأنه الحديث. اتهمتني بالخيانة الزوجية ولم يكن لديها حتى ذلك الوقت أي برهان، عدا بعض الرسوم يمكن أن يُعتبر بعضها جنسياً. ثم

نبشت في أغراضي ووجدت رسالة أعددتها لأرسلها لإيزا، رسالة صرحت لها فيها بعواطفي. كيف أفسر لزوجتي أنني مغرم بامرأة لم أرها قط؟ كيف أقول لها إن مشاحناتنا، نزاعاتنا دفعتني لأن ألجأ إلى قصة خيالية؛ نوع من جنون لايُقبل إلا بصعوبة من مراهق؟ كيف أشرح لها أن الحب هو أقدم منزل في العالم وأنه يحتاج دائماً لترميمه حجراً حجراً، وأنه لاينبغي أبداً أن يخلد المرء للراحة وأن يعتقد أن العواطف قد تم اكتسابها على الدوام؟ تألمت، ثم سعت بكل الوسائل لتجعلني أدفع ثمن هذا التجاوز في علاقة أفلاطونية. لم يعد أحدنا يوجه للآخر أي كلام. كنت أتصل بها بأن أترك لها كلمات على الطاولة كما في رواية سيمينون «الهر». لم يعد بيننا أية حياة جنسية ولم أكن أفتقد ذلك لأن عضوي التناسلي انسحب من حياتي، أقصد من جسدي. أصبح صغيراً جداً، لايعني شيئاً، لايوجد على الإطلاق. إذا حدث لي أن ألمسه لأداعبه فإنني لاأجد إلا جلدة عتيقة متجعدة عاجزة عن أن تتذكر الحب أو أن تعود للعمل بفعل هذه المداعبات. أنتما تعلمان أن الأسوأ أنه يعتاد، لايعود إلى الانتصاب، ويجد المرء ذلك طبيعياً ولايقلق منه. على كل حال، أنا أعرف أنني لست مريضاً. عضوي وضعته في الاحتياط. إنه ينتظر. لم ينتبني شعور بالعجز. عندما أفكر بإيزا، بصوتها، بالرقة التي تنقلها إليّ، فإن عضوي لايعود للعمل، يبقى بارداً ومنحنياً. لم أشعر بالرغبة في استشارة طبيب نفساني. في مراكش عندنا اختصاصي بالجنس، رجل درس في أمريكا وقد أصبحنا صديقين. زبائنه قلة فالمراكشيون لايحبون الحديث عن حياتهم الخاصة. بعض النساء يأتين لرؤيته لإجهاضهن. إذن لم يكن لدي أية رغبة في تغيير شيء في حياتي الحزينة والكئيبة. من حسن الحظ أن هناك إيزا، رسائلها صوتها مرة في الأسبوع. كان في استطاعتي أن ألجأ إلى الطلاق وأرحل إلى مكان آخر، أو حتى أن ألحق بها. ولكن لم يكن لدي القوة ولا الشجاعة في أن أواجه غضب فطومة. إنها تتمسك جداً بوضعها كامرأة متزوجة من جامعي وربما كاتب. إذن تركت الأمور تجري

على عواهنها بدافع من جبن وخوف. أجل هذه المرأة كانت تخيفني. بعضهم قال لي إن الخوف هو الطفل في داخلنا الذي يبعث فينا الذعر. أنا هو ذلك الطفل الذي يضطرب ولايدري أن يجد ملجأ لنفسه. الخوف هو وسواسي وضعفي. كيف يمكن للمرء أن يخاف من قرينته؟ «إذا أردت ألا يتملكك الخوف أبداً، قال لي واحد من زملائي في الجامعة، استسلم، لاتقاوم أبداً، اخضع، واترك نفسك منقاداً لزوجتك. هن يعبدن أن يأخذننا تحت حمايتهن. عُد طفلاً فلن تشعر بالخوف!» في الواقع تجنبت كل مواجهة. أنا أكره المشاحنات. ولكن ذلك ليس كافياً لإزالتها أو على الأقل تلافيها. كانت تلاحقني حتى الجامعة، تهددني، تبكي، وأنا الذي لاأريد الفضائح، أهدئها، أحدثها، أطمئنها، فقط لأتجنب تجمع الناس عند مدخل الكلية. في البيت ألجأ إلى الصمت. إلى الصمت وإلى كلمات متروكة على الطاولة. كان ذلك يثير أعصابها فلا أعترض. أرحل في أحلامي. أؤلف انطلاقاً من صورة إيزا شخصية تأخذني من يدي وتقودني إلى مرج فيه أزهار المنثور خبازية اللون، صفر، حمر وزرق. كنت أرحل وأغيب وأطير كما في حكاية خرافية. كان ذلك دفاعي الوحيد لأنه الملاذ الوحيد الذي انعزل فيه.

في نهاية سنتين من المراسلات شعرت بالملال. الرسائل الأخيرة من إيزا كانت ملغزّة، حزينة في أغلب الأحيان، مع أحكام على الحياة يغلفها اليأس. كنت أسألها عن حالتها العامة ولكنها لاتجيبني. وفي أحد الأيام أرسلت لي رسماً هو نسخة من «الصرخة» لإدوار مونش. وبدلاً من كل شرح وتفسير كتبت ثلاث كلمات في ظهر الرسم «أنا تعبة». انتابني القلق. ماذا جرى؟ بدأت أفكر بأنها التقت بأحدهم، رجل جيد، وأنها ستتزوج منه. ربما كان أحرى بذلك أن يكون مبعثاً لفرحها. وأخيراً تذكرت أن بيننا عهداً بقول الصدق يمنع علينا الكذب. إذن الخيانة مستحيلة. ربما هي تملك حقائق يصعب قولها أو لاتقال عن طريق هاتف أو رسالة. بعد ذلك فكرت بعملها

كترجمانة. إنها تترجم من الفرنسية والانكليزية إلى الإيطالية. ربما لم يعودوا يعطونها كتباً للترجمة. وفي أحد الأيام تلقيت، لارسماً كالعادة، بل رسالة:

صديقي العزيز

منذ أكثر من سنتين ونحن نتراسل. أحياناً أرسل لك رسوماً وأحياناً رسائل. وفي كل مرة كنت أشعر بالفرح بأن أقرأ لك أو أرد عليك. في كل مرة أشعر بالسرور وأنا أنتظر ساعي البريد واضعة تحت التجربة القاسية نقيصتي الأساسية: نفاد الصبر. حلمت بك مرات عديدة. لم أشأ أن أرى فيك صورة واقعية. فضلت أن أتخيلك بطريقة شمولية. عندي لك الصورة التي اختلقتها لنفسي. سأرسمك في أحد الأيام. لدي بعض الاهتمامات التي تمنعني عن العمل وخصوصاً عن الرسم.

أرسل لك، طي رسالتي هذه، إعلاناً عن مسابقة للكتاب الشباب في العالم كله. محافظ نابولي الجديد يرغب في أن يُكتب في عام 2000 كتاب عن هذه المدينة. أعتقد أنك مؤهل للاشتراك بها. إذا كان لك حظ، إذا كان لنا حظ، سيتم اختيارك وسيكون ذلك فرصة ليرى أخيراً أحدنا الآخر. يجب أن أُعد نفسي لذلك منذ الآن. أشعر بالألم لنقلتي من الخيال إلى الواقع، ولكن لنقم بذلك على مراحل وألا نتعجل الأمور.

عندي الكثير الكثير من الأشياء لأقولها لك. أترك لي الوقت الكافي كي أنتظرك فيه. أحب فكرة الانتظار، إنه مثير، محرّض، مهيج للأعصاب، غير محتمل، وكما قال أحدهم في انتظار حبيبته التي تتأخر دائماً: «إذا كانت تتأخر فذلك يعني أنها ستأتي».

أعرف أنك لست الشخص الذي يصل متأخراً، ولكنني أتكلم عن شيء آخر، أعتقد أنك وصلت إلى حياتي متأخراً بعض الشيء، وهذا، هذا قاسٍ على الاحتمال.

أشعر أننا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمن طويل، وأننا وُلدنا كي نتلاقي على طريقة غريبة من الغياب والانتظار. في النهاية يمكن القول إننا لانوجد لاأنت ولاأنا. نحن مخترعات العزلة، أشباح الضجر، خيالات السعادة، صور فوق صور على شاشة ناصعة البياض يمتزج عليها كل شيء، وحيث الأحداث معروضة للتخمين، والكائنات هي من غبار. إنه حظ وفي الوقت نفسه عقبة وعائق.

من المرغوب فيه ألا تهتف لي بعد الآن. بعد كل نداء هاتفي منك أبقى ساعات أنظر إلى الأفق على جدار يقابل غرفتي، جدار أحمر شاحب أتخيل فيه ماأريد.

إذا سار كل شيء مسيرة حسنة فستكون في نابولي بعد بضعة أسابيع، وسيكون ذلك هو العيد الكبير!

إلى لقاء قريب ياصديقي العزيز

إيزا

ـ وهل وصل العيد الكبير؟ سأل مومو وعلى وجهه أمارات الغباء.

ـ العيد الكبير سيكون عما قريب. منذ أن وصلت إلى نابولي لم أملك الوقت لأهتف إليها ولا أن أراها.

ـ لاأصدقك، قال مومو، مامن وقت! بعد كل هذه الأشهر والسنين تصل إلى نابولي وينحصر رد فعلك الأول في أن تأتي لتضجرنا في النزل بدلاً من أن تهتف إلى امرأة أحلامك.

بعد برهة صمت قلتُ الحقيقة:

ـ إليكما مافعلته. لم يعد من مشترك في هذا الرقم الهاتفي. أخذت سيارة أجرة إلى العنوان الذي كنت أكتب إليها عليه. إنه بناية فيها مكاتب. على علبة البريد فيها كتب الحرفان «I.S.»، زحلقت رسالة فيها سجلت عليها عنوان فندقي ورقم الهاتف. ولكن مامن

رد. ربما كان الأمر يتعلق بشخص آخر. سيدة ربما كان اسمها إيرما أو إيلاريا أو إيزابيلاّ سترامبولي أو شيئاً من هذا القبيل. تلك هي ياأصدقائي الحقيقة الحزينة. كم كنت أحب أن أروي لكما البقية، اللقاء، الاتحاد، السعادة، بل حتى القطيعة كما حدث لجينو، ولكن لسوء الحظ، هذه البقية أنا لم أعشها.

ـ ولكنك بفضلنا ستعيشها، أليس كذلك ماما؟ سنقدم المساعدة لصديقنا العربي...

فكرت العجوز وهي تنظر إلى الأرض ثم قالت لي:

ـ قصتك ليست إلا في بدايتها. والواقع أن كتابك عن نابولي مثل الألعاب الروسية يمكنه أن ينفتح إلى مالانهاية. قل لي: لِمَ قررت أن تتحدث إلى فطومة بشكل آخر؟ كتبت إليها تدعوها «صديقتي العزيزة» أو «عزيزتي وردة»، عاملتها كأنها شخص غريب. أأنت متأكد أن الأمر يتعلق فعلاً بزوجتك، تلك التي لم تعد تتصل بها إلا عن طريق قصاصات الأوراق؟

ليس من سبيل للخداع مع العجوز. لقد اكتشفت هذا الوجه من شخصيتي: عندما لاأستطيع أن يكون لي تأثير في إحدى الحالات ألغيها وأحولها إلى قصة خيالية. من أجل هذا السبب الجوهري أصبحت كاتباً، طبعاً ليس كبيراً فأنا أعرف حدودي، ولكنني وصلت إلى الأدب لأغطي فشلي. كتبت أوائل أشعاري في الخامسة عشر على أثر خيبة في الحب، فتاة في الثانوية رفضتني. والواقع أنني لم أكلمها قط، ولكنني تخيلت أنني إذا توجهت إليها بالحديث فإنها قد ترفضني. كنت خجولاً لدرجة أن كل شيء كان يحدث في رأسي. قررت عندئذ أنها لاتريدني وأنها تفضل عليّ جاري الطويل الأشقر. كتبت إليها قصائد حب ولكنني لم أرسلها إليها طبعاً.

ـ كما تعلمين، لايتغير أحد، قلت للعجوز. فطومة لم يكن لديها أي سبب للتغير. وحتى لو أرادت ذلك فإنها ربما لاتنجح في أن تغير

فيها كل شيء. إذن إنني أنطلق من هذه الموضوعة وأعاملها كشخصية روائية، مخلوقة من الخيال، فتلك التي أكتب إليها ليس لها وجود. إنني أهذي وأنا كثيراً ما أفعل ذلك. إنه نوع من الدفاع مثل الأنواع الأخرى. دفاع فطومة هو أن تنكر كل شيء جملة وتفصيلاً وتحمل المسؤولية للآخرين. تعتبر نفسها ضحية وأنه لايفهمها أحد. إنها مصفحة، تنزلق الكلمات على جلدها. الأفعال وحدها تؤثر عليها. والآن بعد أن غادرتُ البلاد باحثاً عن إيزا لابد أنها تتألم ولاتفهم ماذا جرى لها، فأنا أكتب لها إذن رسائل مجاملات أروي لها فيها ماذا يجري في نابولي. لاأعتقد أنها سترد عليّ. هي ليست من النوع الذي يقبل اللعبة، ذلك هو مزاجها. كل شيء في نظرها جديّ. لامزاح عندها، بينما هي تعبد مزاحات أمها البعيدة عن الرهافة والذكاء. فأنا أعرض اللعب على إنسانة لاتحب أن تلعب وليس لها مزاج فيه، فلو أنها ذكية إذن فليس لها إلا أن تدهشني بدخولها في لعبتي.

ـ ولكنك مخيف! فبدلاً أن تقطع في اللحم وتتخذ تدابير قوية تلجأ إلى الفرار! هذا أسوأ من كل شيء. اصغ إلي أيها الصغير، عليك فوراً أن تختار، أن تتخذ القرار. أنت لاتستطيع اللعب على كل اللوائح، وخاصة لن تلفَّ على بكرتك كل الناس بقصصك الرومانسية تلك.

ـ ولكنني لاألفّ أحداً. أحاول فقط أن أحيا ولا أحب الكفاح. عندما يضيق علي الخناق أفرُ إلى الوهم.

بعد صمت:

ـ هيا، تعال يا صغيري. قصتك سنهتم بها فيما بعد. تعال حكَّ لي ظهري، هنا، تحت الخاصرة. شيء يثير الأعصاب، أفتقد الهواء النقي والخضرة وأرغب بالذهاب لرؤية البحر. مومو، ضع قليلاً من الشحم في دواليب الأريكة الدراجة. منذ وقت طويل لم أستعملها. الصدأ، مومو، الصدأ. لايجب أبداً نسيان مكافحة الصدأ. أنظر ساقيّ

المتورمتين، وهذا أيضاً بسبب الصدأ. هيا، ياصغيري، حكَّ ولاتعد للتفكير بجميلتك إيزا.

هبط المساء. كنت تعباً وضجراً ولاأملك الرغبة في العودة إلى الفندق. عرضت عليهما الدعوة إلى العشاء. العجوز هتفت لمطعم بيتزا. ولما استلمناها نامت، وأكلنا نحن حزينين، مومو وأنا. وفي نحو من منتصف الليل استيقظت وأصرت على أن أحضر عشاءها. بعد هذا الإصرار دعاني مومو لمرافقته إلى وليمة أفريقية. قبل رحيلنا طلبت منا العجوز أن نجثو أمامها على ركبنا وباركتنا تماماً كما تفعل أمي قبل كل سفر. قالت لنا إن المدينة ليست آمنة تماماً في الليل: «مع بركتي امضيا بسلام ولن تتعرضا لخطر!».

كانت ليلة أفريقية جميلة، أي أنها كانت مليئة بالصخب والمفاجآت. فيها رجال لايفعلون شيئاً، يلبسون كلهم على الطريقة الأوروبية ويضعون على عيونهم نظارات سوداً ويدخنون السجائر أو الحشيش. نساء طويلات ممشوقات بعضهن ضخمات يذهبن ويجئن بقلة مبالاة. كن غير مباليات أو جد متعجرفات. أقوى من الرجال. يمضعن طرفاً من خشب جاف لونه كستنائي ذو بقع بيض. في الواقع كن يفرشين أسنانهن، يفركنها على الدوام حتى تغدو ناصعة البياض. من وقت لآخر كانت فتيات يأتين بصحون من الأرز واللحم بينما يفتح الرجال صناديق الجعة. ثمة أعمى يعزف على الناي بينما أخوه التوأم الأعمى هو الآخر يرافقه على الطبلة. كل الناس يعرفون بعضهم بعضاً ويتنادون بأخي وأختي. بعضهم شكلوا دائرة ولعبوا بالنرد. بعضهم كان يتكلم الوولوف والآخرون الفرنسية أو الإيطالية. عندما دخلت مليكة كل الأنظار التفتت إليها. اللاعبون توقفوا، الأعميان تابعا موسيقاهما، والنساء وقفن وراء الستار الرمادي الكثيف. مليكة امرأة في الثلاثين، لطيفة، جميلة، ذات مشية أميرة. أشارت إلي بإصبعها وهي تقول.

ـ من هذا الأبيض الصغير؟ ماذا يفعل هنا؟

مومو قرصني من ذراعي وهمس إليّ بألا أتحرك أو أتكلم. هو الذي أجاب:

ـ ياصاحبة السمو. إنه صديق، أخ، قدم من المغرب، هو أفريقي مثلنا، ليس شديد السواد ولكنه رجل شجاع.

ـ أفريقي، أفريقي، قالتها بسرعة. هو عربي، والعرب لم يكونوا دائماً مستقيمين مع السود. ماذا يفعل صديقك المغربي؟

ـ هو كاتب. هو هنا ليكتب كتاباً عن نابولي.

ـ لاأثق بحملة القلم. رغم أنه مغربي فالمغرب ليست أفريقيا السوداء. المغرب جزء من البلاد العربية لا من أفريقيا. إنهم بيض. ثم إن جدودهم، أسلافهم، هم الذين قدموا إلينا لشراء نساء يجعلون منهن إماء لهم. قل لي أيها الكاتب، من أية مدينة أنت؟

ـ مراكش.

ـ أفضل ذلك، لو أنك من فاس لكنتَ في الخارج.

ـ نعم، ولكن لاعلاقة لي ولادخل بهذه القصة عن أسلاف يشترون العبيد ويستخدمون العبيد. أمي من فاس، لكنها ليست من أنصار الرقيق.

ـ اسكت، أمرتني، مومو، إنه في كفالتك.

ـ نعم، تحت أوامرك ياصاحبة السمو.

ـ الآن يمكن أن تبدأ الجلسة. أطفئوا الأنوار، أشعلوا الشموع، التزموا الصمت. هذا المساء يضرب جدنا مامادو على بابنا.

شعرت أنني لست بخير. جلسة لتحضير الأرواح في هذا النور الخفيف الذي يثير الريبة مع الروائح الممزوجة بالعطور والبخور وروائح الطعام أثارت فيّ الرغبة في التقيؤ. عليّ أن أصمد. مومو المستغرق كلياً بالجلسة كان غائباً. الآخرون عيونهم زائغة. مليكة نهضت وأخذت ترقص ببطء. أيدٍ كانت تدق على الطاولات في إيقاع متصاعد. أصابتها رعدة. أوراق نقدية من فئة المئة ألف لير أمطرت

عليها. حتى مومو أخرج منها واحدة مطوية كلياً ورماها عند قدمي الأميرة. أردت أن أفعل مثل ذلك فأشار إليّ ألا أتحرك. أفدت أخيراً من هذا الاضطراب لكي أرحل. ذهبت متراجعاً دون أن أزعج أحداً. في الخارج كان الليل منيراً. تخليت عن الذهاب إلى النزل وفضلت غرفة في فندق صغير. ليلتي كانت مضطربة. لم أصل إلى الانفصال عن الجلسة الأفريقية. خيالات تتحرك كل الوقت. قد يقال إن المليكة رمت عليّ أذى من السحر. لم أستطع التخلص من تلك الصور التي تتراءى لي في كوابيسي وتجعلني أعرق. معها حق: المغرب ليست أفريقيا السوداء، ليس فقط بسبب الجغرافيا بل أيضاً بسبب العادات والتصرفات. انتهى بي الأمر أن نمت وأنا أفكر بإيزا مادةً إليّ ذراعيها في زورق ليس بعيداً عن كابري. البحر هادئ ونحن ننزلق فوقه مثل أطفال سعداء نلعب فوق الجليد. إيزا كانت عيناها لامعتين وهي تبتسم كل الوقت، تحدثني ولكنني لاأسمع صوتها ولاهي تسمع صوتي. الزورق يمضي مسرعاً أكثر فأكثر.أصابني الدوار وخاصة أنني أضعت يد إيزا. واستيقظت مذعوراً من هذا الحلم الغريب.

في اليوم التالي عندما وصلت عند العجوز فوجئت إذ وجدت نفسي وجهاً لوجه مع أطفال قذرين مهمَلين ربما هم أطفال الشارع أو المساعدة العامة. كانوا منغمسين في النقاش. عندما رأتني أشارت إليّ بأن أنضم إليها. كانت تقوم بوضع جماجم بشرية في صندوق.

ـ هؤلاء موتى الطاعون. أُتي بها من سانيتا من مقبرة فونتانيل. الجماجم هُذّبت على يد هؤلاء الصبية. كما تعرف، هذا يتطلب عملاً وصبراً. قاموا بذلك بشكل جيد جداً هؤلاء الأطفال. عندي منها ثلاثة عشرة. في اليوم الذي يصبح عندي مئة سأفتح دكاناً.

ـ ولِمَ الدكان؟

ـ لأتاجر. السحرة والذين يعرفون الغيب والمحتالون والمرابطون وحتى المجانين يبحثون عن الجماجم من أجل دسائسهم. بعت منها في الماضي، ولكنني لم يكن عندي مايكفي منها لأفتح دكاناً في شارع طليطلة.

وضعت جمجمة على الطاولة وقالت للأولاد:

ـ هذه لم تعملوا بها جيداً. انظروا، ماتزال فيها قطعة من الجلد وخصلة من الشعر. لاأريدها، خذوها.

أحد الأولاد، يبدو أنه رئيسهم، أخذ الكلام:

ـ سيدتي، هذه جمجمة أحد الغرباء، أسود. السود لهم شعر مجعَّد يصعب تهذيبه. إذا استعملت منتجات كيماوية يمكن أن يذوب. إن شئتِ أخذته وأعدت العمل فيه، ولكن ذلك يكلفك أغلى.

ـ كل شيء بحسابه. إذا كنت متأكداً من أن هذه جمجمة أسود، فإنني أحتفظ بها.

ـ ستكون لك دكانك، سيدتي.

وضع الأولاد النقود في جيوبهم وغادروا العنبر بعد أن أشعل كل واحد منهم لفافة تبغ. كنت حائراً أمام العجوز التي تنهدت وقالت:

ـ لاتأخذ هذا المظهر. إنني أتسلى، أقضي وقتي. هذه الجماجم لاتهمني. أشعر بالعطف على هؤلاء الأولاد. ربما جلبوا لي في أحد الأيام جمجمة بيبو، الرجل الذي هدَّمني. بالمناسبة، ماركو كان هاوياً، ضربة صغيرة معترضة. ماذا تريد؟ اللحم مسكينٌ يسقط سريعاً أمام جسد حسن البناء يعرض نفسه لينعش فيك شعلة الرغبة بل والحب. لاأحقد كثيراً على ماركو. أجير نساء يبقى أجير نساء. أما بيبو فهو شيء آخر. عندما سيأتي دوري سأقص عليك قصة بيبو المشؤومة، اسمه الحقيقي بيبيرو ديلاّ كازا، ملك صغير في عالم اللصوص، صغير في كل شيء: الجسد وذلك الذي يستخدمه كروح،

إسفنجة يبتلع كل شيء... حدثني عن تلك الليلة الأفريقية.

ـ أوه ! كانت مرعبة، أشياء مستهجنة! غادرت قبل النهاية لأنني لم أشعر بالراحة، ثم إن مومو لم يعد متفرغاً لي. تغير منذ أن رأى جماعته. مجنونة تلك الحاجة التي تدفع المرء للتجمع حول أشياء مشتركة. مومو كان عليه أن يعيد صلاته مع جدوده. عيناه أمستا زائغتين، سافر في أفريقيا، مشى في قريته التي ولد فيها، وقف أمام شجرة المناقشات. أصبح رجلاً آخر مختلفاً عن ذلك الذي نراه هنا. هذا مثير للفضول... ظننت أنه سيساعدني على إيجاد آثار إيزا، ولكن ذلك لم يحصل. ربما كان عليكِ أن ترافقيه يوماً إلى هذا النوع من السهرات، ربما أحببتها، أخيراً، أفترض...

ـ أعرف. رأيت مليكة الشهيرة؟ تدعي أنها أميرة وتعتقد أنها كانت آبلا باكو، ابنة قبيلة أشانغي. آبلا تزوجت من الرجل الذي عينوه لها ولم تنجب أطفالاً. هجرته ووقعت في حب جندي بسيط أنجبت منه ولداً. وعندما أصبحت ملكة، آبلا، لا مليكة، وجب عليها أن تقاتل القبيلة المعادية، ولكن النبوءة كانت محددة: فهي لاتستطيع إنقاذ شعبها إلا إذا ضحت بابنها. وهذا ماحدث وغدت أسطورة. مليكة تدعي أن في عروقها دم بوكو. إنها موهوبة، جميلة، لماعة. والحقيقة أشد حزناً: إنها عاهرة قديمة غدت قوادة، كل السيرك الذي رأيته هو من الصفيح. مومو يستمر في رؤيتها بل ويخاف منها لأنها تساعده في الحصول على أوراقه الإيطالية، فهي تعرف كل الناس في المحافظة، كما أنه يدفع مئة ألف لير في السهرة، وهي أيضاً تدفع. الكامورّا لاتترك شيئاً يمر. أعتقد أنها تقتسم مع شخص يسمي نفسه توتو هو زعيم القطاع الجنوبي الشرقي حيث تملك مليكة ماخورها الذي تستخدم فيه بوجه خاص فتيات من نيجريا. لنقل إن توتو لديه فنادق صغيرة يضعها تحت تصرف العاهرات الخاضعات لسلطان مليكة. أنت تعلو وجهك الدهشة!

ـ كلا، أنا حزين وأشعر ببعض التعب. لقد مضى علي أسبوع في نابولي وقد بدأت أتساءل ماذا أفعل فيها. لاأملك إلا القليل من الأمل

في لقاء إيزا. أعتقد أنني اخترعت كل شيء. قد يكون من غير الطبيعي تطلعي لأن أجد آثاراً ملموسة لوهم نسجه رجل يحلم بدلاً من أن يعمل ويحيا. إنني أبحث عن شيء لاعن شخص.

ـ كما تعرف، أيها الصغير، ليس للحياة معنى إذا لم تنقلب رأساً على عقب على يد أعاصير من أمثال إيدي وإيزا أو ماركو. يتحدث المرء عن الحب عندما يتألم. الحاجة والغياب والانتظار تنسج الألم وهذا مايسمونه الحب. جينو يكاد يكون مثلك: يحب أن يتألم. لذلك انغرز في جحر حفرته الحسرات. يجب الكف عن الانغراز. ما إن تدخل الجحر حتى تتعرض لحرمانك من لقاء حبيبتك لأنها من النوع الذي يعيش في أعلى الأشجار، في قمم الجبال. إذن اغسل عينيك وانظر بعيداً فيمكن أن تجد المفاجآت.

عند عودته لم يكن مومو على سجيته الطبيعية. وماهي سجيته الطبيعية؟ لاأعرف عن ذلك شيئاً. لقد وجدته دائماً بين انحرافين. الليلة الأفريقية هزته هو الذي يقول عن نفسه إنه مواطن عالمي وهو الذي قام بإضراب عن الطعام لتسوية موضوع أوراقه. على بطاقة إقامته الموقتة كتب أمام «المهنة»: «تاجر أحلام». موظف المحافظة وجد ذلك طريفاً فسجله له.

العجوز:

ـ لقد ابتلع مسحوقهم القذر أيضاً ليضاعف أحلامه وقدرته الجنسية. هو مزيج من تويجات الورد مدقوقة مع الزنجبيل والفلفل والنعناع المجفف وجوز الطيب والكاري وبهارات أفريقية أخرى لاأعرف أسماءها. آه مومو! صغيري مومو! أنت تبتسم. أعرف. إنه عملاق ولكن مع دماغ صغير، ذو سذاجة عزلاء. يُظهر نفسه مالكاً لكل الزمان. لقد تأخر الوقت ليتغير. على كل الوجوه المرء لايتغير أبداً. نعم أعرف، إنني أكرر نفسي. امرأة عجوز لها الحق في أن تكرر نفسها، هذا مكسب وامتياز للسن.

كما تعرف، مومو ترك السنغال مختبئاً في خزّان سفينة شحن

توقفت في مرسيليا. قام برحلته في صندوق خلال يومين وثلاث ليال بدون أكل ولاشرب، يتبول ويتغوط تحته. مع الخوف كان البول لاينقطع، ثم عرفوا مكانه من رائحة الغائط. في مرسيليا أوقفته الشرطة ووضعته فيما يشبه سجناً للمهاجرين غير الشرعيين حيث بقي خمسة عشر يوماً وقع على أثرها مريضاً. بمساعدة ممرضة من قبيلته نفسها نجح في أن يفر وعاش مع أفريقيين آخرين حتى اليوم الذي أخذ فيه القطار ونزل في تورين. كان محظوظاً. أحد المصريين عرض عليه أن يحل محله في جمع محصول الطماطم في ڤيلّا ليتيرنو في ضواحي نابولي: عبد السلام عاد إلى مصر ليدفن أبويه اللذين توفيا في انهيار بناية في إحدى ضواحي القاهرة. مومو عمل طول الموسم. وفي أحد الأيام دفع بابي وعرض عليّ جزداناً من نوع «لوي ڤويتّون». ظننت أنه مزيّف. من الصعب أن تميز بين الحقيقي والمزيف. قال لي إن هذا الجزدان حقيقي أصلي لأنه أتى من سطو في المدينة على ڤيلّا أحد أغنياء بوسيليبو. الأكثر غرابة في القضية أن الأمر كان حقيقياً إذ تعرفت فيه على الجزدان الذي كان قد قدمه لي بيبو، زوجي الكلب. كان ثمة الكثير من التوافقات والمصادفات التي جعلتني أصدق أن مومو مرسل من القدر، مومو هو ظل القدر أتى يبحث عني في أعماق هذا الجحر لأنني ظننت أنني أفلتُ منه. كلا أيها الصغير، حيث يذهب المرء، وطالما أن النفس الأخير لم يترك جسده، فإن الأنشوطة لن تزرد. مومو كان ينظر إليّ مبهوتاً وهو يبتسم. عيناه تلمعان ويداه الممتدتان إليّ بالجزدان ترتجفان. ألقيت عليه بعض الأسئلة:

ـ أأنت الذي قمت بالسرقة؟

ـ كلا ياسيدتي، أنا غير قادر.

ـ من أين حصلت على هذا الجزدان؟

ـ عن طريق العصابة. عن طريق دينو. هو مكلَّف ببيع الأشياء المسروقة.

نحن الأفريقيين غير قادرين على أن نكون لصوصاً جيدين. يمسكوننا فوراً وخاصة هنا. أنا أبيع. بعت في السابق ساعة رويالكس أو شيئاً من هذا القبيل، ساعة، ليست حلوة جداً ولكنها من ذهب، وإن كانت دائمة التأخير. يبدو أن ذلك خاص بالنوع السويسري.

ـ أنت تعني رولكس؟

ـ ساعة ملكية.

ـ كم تطلب في الجزدان.

ـ مئة ألف...

كان يرتجف دائماً. تناولت الهاتف وقلت له:

ـ وإذا طلبت الشرطة...

ـ كلا سيدتي، أنت طيبة. ليس لك هيئة من تفعل ذلك. دينو خبيث. إنه أفريقي يعمل مع البيض. اسمه الحقيقي هو ديالو. إذا لم أعد في المساء مع البضاعة أو النقود فسيحرق جواز سفري.

وهكذا عدت واشتريت جزداني وأخذت تحت حمايتي هذا الأبله الكبير مومو الذي كلفته بأن يقوم بالمشتريات وأن يحرس العنبر عندما أنام وعندما أمرض، لأن أصدقاءنا الغجر حاولوا أن يأخذوا مني مومو. إنه ولد لايملك الشطارة ولكنه قوي من الناحية الجسدية. إنه مؤثر عندما يتحدث عن طفولته في بلده. يبكي بسهولة. لايعرف أبداً أن يقوم بعمل. لابد من مراقبته طول الوقت. من حسن الحظ أنه يعمل من حين إلى حين مع أبناء عمومته الذين يبيعون توافه الأشياء على الأرصفة وفي الأسواق. إنه حالم. يؤمن بطيبة الناس ويسمي نفسه المواطن العالمي. ورغم قولي له إنه مخدوع فقولي لايجدي معه شيئاً. إنه ساذج حقاً، القديس مومو، أحبه كثيراً!

بعد فترة طويلة من الصمت كنا نسمع فيها شخير مومو الذي مازال تحت تأثير مسحوق مليكة، طرحت السؤال على العجوز:

ـ هل كنت متزوجة؟

ـ مع الأسف نعم، متزوجة حتى الثمالة. إذا بدوت اليوم رصينة وهادئة في الظاهر فذلك لأنني عرفت الجحيم في حياتي كل يوم، ولن يعود ذلك أبداً. إنني أحمل دائماً تلك الكبسولة الزرقاء، تلك التي يقرطها المرء ليرحل بهدوء، هي معجزة، مامن ألم، مامن أمل مزيف، ما إن يتعرض المرء لتحمل العذاب فإن عليه ألا يتردد: الكبسولة الزرقاء...

8

عزيزتي وردة

هاأنذا مستمر في الكتابة إليك حتى ولو أنني غدوت واثقاً أكثر فأكثر من أنني لن أنال منك أي رد. في هذه الأيام الأخيرة كان الدور دوري في رواية حياتي. تحدثت عنك وأتركك لتتخيلي كيف فعلت. كلا، لاتفكري بأنني أفدت من غيابك لأذكر عنك المساوئ، لقد ذكرت حصتي من المسؤولية. أخيراً، كشفت عن قلبي كما يفعل الناس الذين يدفعون للعجوز ليتحرروا من قصتهم. على أن مايلفت النظر هو أنني لاأشعر بنفسي مرتاحاً أكثر من ذي قبل، فقصتنا مازالت ترزح فوق صدري كما يرزح الزمن الذي انقضى وعجزي عن التغيير.

عزيزتي وردة. العجوز روت لي قصتها الحقيقية. أقدمها لك كما هي. قلت لها إنني سأكتب إليك وأجابتني بأنك لابد أن تكوني إنسانة طيبة، وافقتها بإحناء رأسي وخفَّضت عينيّ.

القصة (الحقيقية) لأنّا ماريا آرابيلّا

لابد أنك تتساءل، أيها الصغير، لِمَ وافقت على أن أروي لك قصتي؟ في المرة الأولى لكي أتخلص، أما اليوم فالأمر أكثر أهمية. أحس بأن صحتي ليست على مايرام وأن ساعتي لن تتأخر. تنفسي

يزداد صعوبة، أزفره قصيراً وأشعر من جديد بالحاجة لأن أقول الحقيقة. إنها ليست جميلة، ليست في صالحي، بل إنها غريبة وغير معقولة. أنا عاجزة عن أن أفسر ماجرى. لابد أنني كنت مخدّرة أو مسحورة. قبِلت أشياء لايُباح بها لأحد، إنني أشعر بالخجل وخاصة لأنني كنت عاجزة عن المقاومة لإنقاذ جلدي. لِمَ أروي لك ذلك الآن؟ لأقول لك كل شيء، أنت الكاتب، رجل الكلمات. حلمت بأنني ميتة، أجل، ميتة تماماً. كنت قطعة من خشب يابس، لنقل لوحاً خشبياً لايشعر بشيء، على أنني كنت واعية، أسمع كل مايقال حولي. لم يكن هناك الناس الذين أحبهم، لامومو، ولاجينو. ولاأنت. كان عالماً آخر. الموت أيها الصغير سهل وخاصة بعد أن تقول كل شيء، أن تروي كل شيء. أنا أيضاً أريد أن أفرغ كيسي، أن أزيح حملي عن كاهلي. أنت، أنا واثقة أنك ستكتب هذه القصة، أخيراً، لو رغبت بذلك... لاحظ، الناس يحبون المآسي والقصص الخارقة. قصتي أكثر من خارقة، إنها مريعة، بكل اختصار قبيحة. أرويها وأموت... هذا هو الأمر، أشعر بحاجة لأن أتحرر منها، لقد آن الأوان لقول كل شيء. لِمَ أنت؟ أنت تملك فكراً صائباً، لستَ صبياً شريراً، ثم قد تكون عندك الرغبة لتجعل منها رواية، من يدري؟

كل شيء بدأ في ليلة مضيئة ناعمة منذ زمن بعيد، والمرء لايرتاب أبداً بالليالي المضيئة الناعمة، فالنفس تُفتَن، تستسلم، ونجد أنها مهيضة الجناح. كنت صغيرة غير مدركة. يقال لي إني جميلة أنيقة وأصدق ذلك. والداي لم يكن لديهما الوقت للاهتمام بي وبأخي، فوالدي طبيب كبير، جراح شهير يأتي الناس من روما لرؤيته. أمي معلمة موسيقى في المدرسة الثانوية وقد مارسنا حياة هنية. وفي أحد الأيام بعد عيد الميلاد تماماً أرسلانا في الإجازة عند عمتي في صقلية وذهبا هما في رحلة إلى جنوبي فرنسا، إلى نيس، وبصورة أدق إلى ريفها الخلفي. كان ذلك في العام 1942 . لِمَ جنوب فرنسا؟ علمت فيما بعد أنه قيل لهم إن هذه منطقة حرة وليس

لهم أن يخافوا. في إيطاليا كانوا يطاردون اليهود وخاصة في روما وتورين. نحن كنا محميين جداً وقد تجنب أبوانا الحديث في ذلك أمامنا. في نابولي لم تكن العائلات اليهودية كثيرة ومع ذلك كنا خائفين. ربما بسبب هذا الخوف رحلا بالسيارة مع العم روزنتال الذي يعرف قريباً عالي المقام في الإدارة الفرنسية، لم يكن قريباً مباشراً بل عن طريق المصاهرة، اسمه شيء مثل مارتان. بعد شهر من وصولهما أتى شرطيون مدنيون فرنسيون وقالوا لهما: «اتبعانا، الأمر يتعلق بتحقيق صغير في جنسيتكما، ليس في ذلك ماهو مهم، هنا نحن نحب الأجانب وخاصة الإيطاليين»، ولم يعودا بعد ذلك قط. اهتمت بنا عمتنا، أقامت في بيتنا وقالت لنا عندما استجوبناها بأنها لاتعرف أين هما مختبئان. فيما بعد أوضحت لنا أنه توجد ميليشيات إيطالية وفرنسية لاتحب اليهود وتبحث عنهم لإخفائهم. كنت صغيرة يومذاك فلم أفهم الموضوع فهماً واضحاً بل ظننت، كما لو أنني في حلم، أن والدي سيدفعان باب بيتنا يوماً ليقولا لنا إنهما عادا من رحلة عمل أو شيئاً من هذا القبيل. في الواقع عرفت أن مصيبة حلت بهما. لم أكن أتخيل ماهو النفي، ولكنني كنت أروي لنفسي قصصاً سعيدة آملة أنها ستتحقق في يوم من الأيام. لم أدرك خطورة الحالة. أعترف أن هذه السذاجة كانت بلادة مني وأتأسف بمرارة لهذا التصرف الأناني مني والذي لم يكن طبيعياً، كان عليّ أن أسأل، أن أصر على معرفة الحقيقة، أفعل شيئاً لأبلّغ عن اختفائهما. كنت في الحادية عشرة يومذاك وعليَّ أن أكون أكثر وعياً. أخي روبيرتو الأكبر مني دخل في صمت عميق، فهو لايكاد يتكلم. لم يكن يحبني وربما سبب ذلك أن والديّ فضلاني عليه ولم يخفيا ذلك. على كل حال، بعد الحرب تماماً، علاقاتنا انفصمت. لم نكن نملك تربية دينية، أعرف أنني يهودية ولكنني لاأفهم ماذا يعني ذلك بالنسبة لبقية الأديان. لم أكن أمارس واجباتي الدينية. أعترف أن مابعد الحرب في إيطاليا دُمغ بإرادة عنيفة للحياة، للخروج من البؤس وعدم النظر إلى الوراء. روبيرتو كان رصيناً ودائم القلق بينما أنا،

بدافع من ردة الفعل أو بدافع من مزاجي، كنت مرحة وغير قلقة. أقرط الحياة بأسناني. عندما أفكر بوالديّ أشعر بغصة في قلبي ولكنني أتمسك بعودتهما القريبة، لأن ذلك هام بالنسبة لي. في الليل يحدث لي أن أحلم بكوابيس فأستيقظ والدموع تملأ عينيّ. كنت أرى ظلالاً تمشي في الضباب ثم تسقط في هاوية واسعة. تسقط بدون أن تصرخ، أو أنها إذا صرخت فإنني لاأسمعها. في إحدى المرات تبعتها فوجدت نفسي في قعر بئر مظلم، صرخت، ولكن أحداً لم يأتِ لنجدتي. كنت أقول لنفسي: «هذا هو الموت، ثقب في الدياجير ليس فيه أحد لنجدتك. هذا ماينتظرنا كلنا». من جهة أخرى كنت أتمسك بالحياة الرغيدة، لاأهتم بالمصروفات. أملك إيرادات وأبارك والديّ لأنهما تركاها لنا، لروبيرتو ولي أنا، تلك الثروة التي تسمح لي بألا أسعى وراء العمل ولاتجبرني على التوفير مفكرةً بالغد الصعب. بالنسبة لي الحياة سهلة، شيء تكتسبه على الدوام. كنت عاجزة عن تصور مجيء يوم أفتح فيه حافظة نقودي لأحصي الليرات الباقية. قمت بأعمال جنونية بينما يجري الوقت بلا توقف. كنت ماأزال صبية رشيقة ذات صحة حسنة، أنام بدون مزعجات وأستيقظ مبتسمة للحياة، ولم أشأ خاصة أن أتزوج. حظيت بعشاق أكبر مني سناً بكثير، وغالباً ماكنت عاشقة دون أن يستمر ذلك. وكما قالت لي عمتي قبل أن تموت: «تسقطين في الحب فجأة ولاتلبثين أن تسرعي بالنهوض». هذا صحيح. أشعر بشهية للحياة التي لاتترك مكاناً للضجر ولا التردد. الرجال يتتابعون دون أن يتركوا الكثير من الأثر لدى مرورهم، وأنا أهرب وأتخلص منهم. تلك هي لذتي. في أحد الأيام قال لي رجل لطيف: «أنت مثل رجل، أنت مثلي، إذن نحن لانستطيع أن نتفاهم». معه حق. الرجال لايحبون النساء اللواتي يتشبهن بهم. أنا لاأتشبه بهم، لاأقلدهم، تلك طبيعتي، طريقتي في الحياة، وفي ألا أفكر في الماضي، ماضي أبويّ طبعاً، وفي المشاحنات مع أخي عندما نكون وحدنا.

لابد أنك تتساءل كم من المرات وقعت في الفخ امرأة متحررة

مثلي؟ كل شيء جرى على يد روبيرتو. لاأتهمه بأنه كان سبباً لهذا الزواج الكارثة، ولكن عندما لايحب المرء أحداً فإنه يفضل من يستطيع أن يؤذيه.

بييرو كان يعرف أخي. لم يكونا صديقين بل يعملان سوية، يقومان بأعمال لايعرف المرء طبيعتها بدقة، هل تفهم؟ كنت أرى روبيرتو مرة في الشهر عندما يأتي لمحاسبتي ويجعلني أوقع على أوراق كتّاب العدل أو المصرف. تمسكنا بعلاقات مريحة. في أحد الأيام قَدِم مع بييرو. قدمه لي وذهب ليسوي إحدى القضايا مع البستاني. بييرو من النوع الذي يعرض رجولته. يفتح قميصه على شعر صدره الأسود ويحمل صليباً صغيراً في نهاية سلسال من الذهب. عضلاته قوية وله حضور وفتنة. تحت عينيه جيبان أسودان. لايثبت في مكان، يتكلم وهو يمشي، يقوم بإشارات من يديه أثناء حديثه ويطيل النظر إلى مرآة الصالة الكبيرة. مما يثير الفضول أنه لم يكن يتوقف قط وربما كان ذلك بدافع من غريزته. من سوء حظي أنني وقعت، أجل وقعت على الأرض مثل ثمرة ناضجة تلقاها بعد أن قام بما كان ينبغي فعله. خلال أسبوعين تلقيت في كل صباح باقة كبيرة من الورود مع بطاقة موقعة باسم بييرو ديلّا كازا. وفي إحدى الأمسيات هتف لي:

ـ أنّا ماريا، زرقة عينيك تلاحقني أينما ذهبت. كم أتمنى أن أصحبك لقطاف الورود وإزعاج بعض النجوم.

يتحدث كما يفعلون في الكتب. بالنسبة لرجل أعمال يبدو كأنه شاعر. في البدء رأيته طويلاً بأكتاف عريضة وذراعيين متينتين وصوت أجش. في الواقع هو أقرب إلى القِصر، مع النوع القصير والسمين، كان عصبياً دموياً ومستعداً للشجار. له جدة كورسيكية وجدت لها ملجأ في صقلية أثناء الحرب بعد أن وشت بشيوعيين إلى ميليشيا فيشي. إنه ابن عاهرة حقاً، ينكر أصوله الفرنسية قائلاً إن فرنسا خانت أوروبا بتخليها عن مستعمراتها. علمت فيما بعد أنه حاول التطوع ليقاتل مع الفرنسيين في الجزائر، ولكن أعلموه أن

ذلك مستحيل. إنه يعنى بنفسه دائماً ليحافظ على المظاهر، من الممكن أن يعتبر من رجال الطبقة الاجتماعية الرفيعة لو أنه لايلبس هذا القيمص المفتوح ويضع على صدره هذا الصليب الذهبي إضافة إلى سلسلة الساعة المتدلية من معصمه. مع ذلك ثمة شيء أزعجني فيه منذ البداية هو أنه لاينظر أبداً في الوجه بل دائماً باتجاه غير مباشر. روبيرتو ذكر لي أفضل الأشياء عن بييرو، اسمه بيبو، قال لي إنه سليل أسرة كبيرة، رصين، مستقيم ويصلح لأن يكون زوجاً صالحاً. مأأزال أجهل لِمَ بذل أخي جهده ليرميني بين ذراعي هذا السوقي الداعر. هل فعل ذلك بدافع من سبب أو أنه ساذج مثلي أو أنه وقع تحت فتنة هذا المخلوق الذي لايدع أحداً غير مبال بأمره؟ لقد شككت دائماً بأن يكون أخي ذا ميلين جنسيين: أحدهما معلَن مع امرأة بييمونتية مستعدة لتفعل أي شيء، والثاني سري هو أنه يسعى وراء الرجال. ظننت أنه منجذب إلى بيبو وأنه من خلالي يتقرب منه أو يستخدمني للوصول إلى مبتغاه. ولكن بيبو، مثل كل الرجال الفخورين بذكوريتهم، كان يكره اللواطيين، علماً بأنني اشتبهت بأنه هو يميل إلى الصبيان، ولكن لنتجاوز ذلك! فتلك قصة أخرى. من حيث الظاهر دوافع بيبو لم تكن واضحة. إنه يغازلني وأعترف أن ذلك أعجبني، فقد وقعت تحت فتنة رجل لايُعتبر جميلاً. كم هو الحب مجنون وبعيد عن المنطق، يمكن أنني وقعت مغرمة لأنني شعرت بخطر.

دعاني بيبو للعشاء، اتفق مع موسيقيين، طلب شمبانيا وحجز جناحاً كاملاً من المطعم من أجلنا نحن الاثنين، تصرف بفن كما لو أننا في فيلم رومانسي تُمس فيه كل أوتار الحساسية. كان يجب أن أتخذ حيطتي. أن أتبين العلامات التي ربما جنبتني السقوط في الفخ، ولكنني وثقت ربما بسبب الكسل أكثر من السذاجة. عُني بي عناية بالغة وأظهر بالغ التهذيب. قال إنه يكن لي تقديراً كبيراً وإن لذته الكبرى هي أن يفكر بي قبل أن ينام. لم يلمسني إلا لماماً إذا تركني آخذ ذراعه عندما نمشي على طول خليج نابولي. حدثني عن أمه التي

هجرها أبوه المغامر، عن مصاعبه أثناء الحرب. قال لي إن حلمه اقتصر على أن يتزوج ويؤسس عائلة وأن يرزق بأولاد، وأن يعتزل الأعمال المعقدة خاصة من أجل أن يظهر لأمه العجوز أنه خير من أبيه الذي لايستحقها.

في مساء اليوم الذي طلبني فيه للزواج في مطعم روزيللو في بوسيليبو كان علي أن ألوذ بالفرار لأنه جرى حادث لم أستطع احتماله. في هذا المساء كان عليّ أن أنهي هذه العلاقة لأن الحادث كشف وجهه وأزال عنه القناع وأظهر الوجه الحقيقي لهذا الرجل.

كان الطقس جميلاً والضوء ناعماً. أجلسونا في الشرفة تجاه البحر. وفي اللحظة التي بدأت فيها أنوار نابولي بإرسال ومضاتها وقف بائع بعض الأشياء التافهة من قداحات وعلب كلينكس ولعب صغيرة، وقف أمام طاولتنا وسألنا بلطف وبإيطالية متعثرة أن نشتري بعض مايحمله.

بيبو، المخيف بيبو، طلب منه أن يقترب، فقام الرجل بخطوة مترددة.

ـ أرني أسنانك...

ابتسم الرجل فبدت أسنانه في حالة سيئة للغاية، أسنان صفر مكسرة مشوشة ومثقوبة.

ـ أنت قادم من تلك المدينة الفاسدة خوريبكا، قال له بيبو.

ـ نعم ياسيدي. إذن ستشتري مني شيئاً ما، قداحة لتشعل بها لفافة السيدة؟

ـ أأنت عربي أم بربري؟

فهم الرجل أنه لافائدة من انتظاره فاستدار ومضى. نهض بيبو وأمسك به، أخذه بعنف من ذراعه وهزّه:

ـ عد إلى بلدك الفاسدة. هنا لايوجد أسنان مثقوبة! هيا! أخل المكان، بسرعة وإلا ضربتك!

الرجل المسكين مضى مهرولاً وأسقط في هروبه علبتي كلينكس وقداحة تركها على الأرض ولم يعد. بيبو تغيرت ملامحه، أمسى وجهه شديد الاحمرار وعروق صدغيه منتفخين وعيناه مليئتين بالحقد. لم يكن غضباً بسيطاً، كان أقوى من ذلك، شيء يشبه الرغبة بالقتل. تناول دواء وبذل جهداً ليهدئ نفسه.

- اعذريني، أنّا ماريا، ليس مقبولاً انزعاجي على هذا الشكل. يالها من قلة ذوق! رأى جيداً أن أمامه عاشقين ومع ذلك كان يلح. لم يكن عليه القدوم لإزعاجنا. الأمر غالباً هكذا مع الفقراء وخاصة المهاجرين. أخيراً، أنا لم أعد ضد المهاجرين ولكنني أحب أن يحترموا هدوئي. أنا آسف لهذا الاسترسال البربري. عاجلاً أو آجلاً لابد من أن يعود المهاجرون إلى بلادهم. لست واثقاً من أنهم سعداء عندنا، ولمصلحتهم أن يعودوا إلى وطنهم فليس لنا ثقافتهم ولاتقاليدهم. هم مسلمون ونحن كاثوليك. لقد ناضلنا للوصول إلى مستوى لائق في الحياة، وهم طفيليون وبلادهم ترزح تحت وطأة التخلف وتحب أن تعيش على الاستجداء من البلاد الغنية... اعذريني، إنني أضجرك بنظرياتي!.

- ولكن لِمَ اتخذتَ هذه الحالة؟ ليس إلا بائعاً مسكيناً لأشياء تافهة.

- كلا، افهميني بسببكِ أصبحت في هذه الحالة لأنني أريد أن يجري لقاؤنا على أفضل الظروف.

- ولكنني لم أعد جائعة.

- أوه، ياجميلتي، ياحبيبتي، لن تفقدي شهيتك من أجل عربي عجوز أسنانه مليئة بالثقوب!

- بلى، الأمر هو كذلك تماماً. بسبب هذا الرجل والطريقة التي عاملته بها لم أعد جائعة، أرغب بالعودة. لاأريد أن ترافقني سآخذ سيارة أجرة.

حاول إثنائي عن عزمي، قبّل يديّ، اعتذر لي ثانية، ولكن لم تعد لدي الرغبة لرؤيته.

قضيت ليلي كله وأنا أعيد التفكير في هذه الحادثة. طرحت على نفسي الأسئلة، وفي الوقت نفسه غشى شيء غريب على ناظريَّ. أعترف، واخجلتاه، أن هذا العنف ولّد عندي انجذاباً جنسياً نحو هذه الفظاظة. أجل كنت مذنبة أعترف بذلك. انجررت وراء فسق فيَّ لاشك فيه. عندما كنت أعيد النظر في عنفه مع العربي كان ينتابني شعور متناقض بين الاشمئزاز والشهوة. كنت أراه وقد أخذني بهذا العنف، يصفعني ويكيل لي الإهانات. هو بيبو من كشف عندي هذا الانحراف.

في اليوم التالي تلقيت وروداً من جديد مرفقة بهذه الكلمة:

«ألف عذر، كنت كريهاً أستحق عقاباً. هذا الرجل استولى على تفكيري طول الليل. في الصباح ذهبت أبحث عنه لأعتذر منه ولكن كان من المستحيل أن أعثر عليه. فهمت الآن بطريقة أفضل ألم وبؤس هؤلاء الناس الذين اضطروا لترك بلادهم وأتوا ليستجدوا الأيدي أو يكادوا في شوارعنا. حلمت بجدتي الكورسيكية التي وبختني. قالت لي: «لايفعل المرء ذلك أمام سيدة». كنت سيئاً. آسف لذلك بمرارة وأرجوكِ أن تعذريني. لن أزعجك بعد اليوم وسأنتظر إشارة منك. إذا كان صمتك هو عقابي فإنني أقبل به ولكن لاتدعي هذا الحب الذي أحمله لك يفتر. ألثم يدك. بييرو».

أنا واثقة اليوم بأنه اعتمد على شخص ما ليكتب له رسائله. أشك بأن روبيرتو نفسه هو الذي أمسك القلم ذلك لأنه كان يكتب قصائد في الخفاء. هذه الرقة والحساسية ماوجدتهما في وجه بيبو ولافي سلوكه. كنت أشعر بأنه يبذل الكثير من الجهد ليكون لطيفاً مجاملاً، ولكنني عميت ولم أعد أرى شيئاً عدا الضباب والدخان. تركت الأمور تجري على عواهنها. شعور غريب بالرغبة والارتماء سكنني. بعد ثلاثين سنة أعترف بأن النسيان استغرق وقتاً ليستقر في شعوري ويغلّف هذه الفترة المشؤومة من حياتي. إن الأمور تطفو على السطح مثل حطام سفينة غريقة لم ينته أمرها بعد.

بعد فترة الافتتان والورود والعشاءات على الشموع ـ فترة سينيسيتّا ـ أتى زمن العذاب، العذاب الخالص، الغادر العميق الخالي من الشفقة. الإخراج كان كاملاً، إذ عرف كيف يمزج الجمال بالقسوة، الشهوة بالتدمير، الكراهية بالحب. كيف أستطيع اكتشاف أنه مريض منحرف متوحش قذر؟ عرف تماماً كيف يخبئ لعبته. ولكن لِمَ احتاج أن يلعب هذه المهزلة؟ فالناس الذين سكنهم الشر لايلبسون القفازات عندما يقررون العمل، يفعلون الشر في وضح النهار وهم يريدون خصوصاً أن يعرف الناس أنهم أشرار ولايخجلون من ذلك، بل على العكس يفخرون، ولكن بيبو كان أكثر تعقيداً.

العرس كان فخماً. لاأعرف من أين أتى كل هذا المال. أخي كان سعيداً وحزيناً في آن. تقدم نحوي ولأول مرة طلب مني الصفح، ولكن الصفح عن ماذا؟ أجابني: «الصفح بكل بساطة». لم أفهم هذه القفزة إلى التعاطف من جانب كائن معقد خشن الطباع. قلت له كان علينا أن نعيش بصورة أفضل وأن نبني بيننا علاقات أخوية أكثر سعادة وألا نختصم بعد الآن بسبب المال. هنا استعاد روبيرتو خشونته:

ـ لايهم. اطلبي المال مني. لاتعتمدي على زوجك للحصول عليه.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ذكر فيها استرداد حصصي من البيت. لم أفطن لذلك وعدت إلى المدعوين. كل هذا البذخ، كل هذا المال... لم يكن على المرء أن يكون نافذ البصيرة ليفهم أن هذا المال سهل المنال، مال تجارة غير مشروعة وأن بيبرو هو رئيس «الكامورّا» وأن أخي يسانده في كل مشاريعه. بيبو لم يكن مغفّلاً. كان بحاجة لأخي ليتقرب مني. مباشرة بعد الزواج أفهمه أن دوره انتهى وأن عليه الاهتمام بالقطاع الجنوبي في صقلية.

كنت عاشقة مسحورة واقعة تحت نفوذه الكامل كما لو أنني مخدَّرة. شيء أقوى من عقلي يعمل في داخلي ويجعلني أقوم بأشياء

لاتليق بي. كان لديه طرائق لابد أنه اغترفها من الكتب ليشعرني بأنني حرة في الوقت الذي أنا فيه واقعة تحت إرهاب كبير. لم أكن أتحرك بل أنتظر إشارة منه لإطاعة رغباته. فقدت كل إرادة، أصبحت خاضعة وأحببت أن أكون كذلك. لم يكن ذلك حباً، كلا، بل مرضاً إذ كيف يسمى بغير ذلك؟ عقلي مسمَّر، لم يعد يتقدم. هذا الرجل فتنني وأخافني. أصبحت مريضة وخاضعة لرغباته ولكن علاقاتنا مالبثت أن اتخذت بسرعة منحى مأساوياً. بعد بضعة أيام من ليلة الزفاف اختفى وقال لي بلهجة حازمة ليس فيها شيء من اللياقة واللطف:

ـ لديّ قضية أريد أن أسويها وعليك ألا تتحركي.

كان بارداً حيسوباً، يعرف نواقصي وضعفي وقد أكثرَ من ملاحظتي ودراستي. مثيرة للفضول كل هذه الوجوه التي تستطيع أن تأخذ هيئة الحب! حسبت نفسي عاشقة بينما أنا شقية. ماعشته ليس من الحب بل هو من الألم الذي كنت أجنيه باستمرار دون أن أفكر كيف يمكنني أن أتحرر من هذا الامتلاك. السؤال الوحيد الذي طرحته على نفسي كل الوقت: لماذا تقبلت كل هذا الألم والمهانة والشقاء ووجدت فيها أحياناً لذتي وسروري؟ كنت مجنونة هذا كل مافي الأمر. بالنسبة لي كان الحب يمتزج دائماً مع الحياة، مع الفرح، مع أشياء إيجابية رائعة. هنا اكتشفت شيئاً آخر.

بيبو يغيب في أغلب الأحيان دون أن يكون لي الحق بأن أطرح أسئلة عليه. يذهب، يحدثني بالهاتف، لاليسألني عن أخباري أو ليقول لي بعض العبارات اللطيفة بل ليخبرني أن فلاناً من الناس سيمر ليضع عندي لفافة أو حقيبة. كان ذلك مغلفاً بالغموض. وهكذا وصلت إلى البيت في أحد الأيام امرأة في مقتبل العمر، عامية مبتذلة، زينتها مبالغ فيها، عاهرة أنيقة، صدرها عامر، نظرتها فارغة. أعطتني لفافة وهي تقول لي: «إنه بييرو، زوجك فيما أفترض، هو الذي كلفني بإعادة هذه السترة التي كانت في المكوى. مشاجرة في

أحد المطاعم، قليل من الدم، لاشيء خطير، هي ذي مهمتي قد أُنجزت!» لم تكن تعرف أين هو أو أنها لم تشأ أن تحدثني في ذلك. عندما ذهبت انحنت نحوي وهمست في أذني: «كيهودية، لابأس بك!» وبقيت أنا صامتة لاأنبس ببنت شفة. أي دور كانت تلعبه؟ لِمَ أرسلها؟ ومن ذكر لها أنني يهودية؟ لايمكن أن يكون إلا بيبو، شيء ما كان يحاك من وراء ظهري. في آخر المطاف، العاهرات لهن مهنتهن، ولكن لِمَ استخدموا واحدة منهن لتبدي لي هذه الملاحظة؟

عاد إلى خاطري نقاش جرى بيننا بعد زواجنا ببضعة أسابيع. كان قد لامني لأنني لم أحتفل بزواجنا في الكنيس «السيناغوغ»، وأجبته بأنني لاأدريّة وأن والديّ لم يربياني تربية دينية، وأصر هو على احترام التقاليد ولم يفهم لِمَ لم أكن أعترف بأنني يهودية، وذكر بأنه ربما أحب أن يكون يهودياً، وأنني لو كنت أمارس عبادتي فربما اهتدى هو أيضاً... بدافع من الحب! ولكان اختتن وفرض الكوشر (اللحم المذبوح بحسب الطريقة الدينية) على البيت. بيبو كاثوليكي يرسم غالباً إشارة الصليب. وقد صُدمت لما رأيته يفعل ذلك في أول مرة أسلمت فيها نفسي إليه. أكنت بالنسبة له تجربة، خطراً، أو شيئاً من الأشياء غير المستحبة؟ وهكذا تم وصالنا تحت بركة يسوع. من حسن حظي أنني لم أعر لذلك اهتماماً كبيراً، على أن متعتي صُدمت مع ذلك، فقد انقض هو بعنف على جسدي الذي لم يعد ينتظر منه حفنة من الحنان. انسحب وفهم أنه ربما كان عليه أن يغير من الوضع. أخذني بين ذراعيه وراح يغني لي أغنية نابوليتانية تقول تقريباً مايلي: «بدونك لاشيء». كان يبتسم عندما يداعب بطني. أعدنا الوصال مرة أخرى ولكنني أصبحت شاردة في مكان آخر، حزينة خائرة القوى.

ماريا وألدو زوجان صقليان أبناء عم بعيدون لبييرو كانا يهتمان بالبيت. كنت قد تركت بيتي وبعت حصتي منه بثمن رمزي لأخي. لم أكن سجينة ولكنني شعرت بأنني لاأملك الحق بالخروج.

شيء ما أمسك بي سجينة. عرفت أن الزوجين الصقليين هما هناك لمراقبتي والتجسس عليّ. لم أعترض. احتملت ولم أفعل شيئاً لأنقذ نفسي من هذا الحال. كنت قد فقدت نشاطي وفرحي بالحياة وأصبحت عبدة، البيت سجني وماريا وألدو حارساي. كان بإمكاني الخروج، معي المفاتيح، والسيارة تحت تصرفي، حتى أن ألدو عرض عليّ أن يقودني إلى حيث أرغب، من الناحية الجسدية لم يكن يمنعني أحد، ولكنني شعرت في أعماقي أنني لو وضعت قدميّ خارج المنزل فإن شيئاً خطيراً يمكن أن يحل بي. ماهو؟ لاأدري. كان عندي حدس، بل هو الثقة بأنني سأوضع في دوامة وأن جلادي قادر على كل شيء.

في إحدى الأمسيات وصل وفي رفقته خمسة رجال على شاكلته ليلعبوا الورق. كان ثائر الأعصاب غير حليق ذا نظرة مجنونة. دخل إلى الغرفة وأغلق الباب بالمفتاح واقترب مني وأنزل بنطاله وأمرني بأن آخذ عضوه في فمي. لم أرغب بذلك فهو يقرفني. صفعني مرتين أخبلتاني ثم ارتمى فوقي محاولاً أن يغتصبني. قاومته فأخرج مسدساً في هياج رهيب وهو يزمجر:

ـ على ركبتيك أيتها اليهودية القذرة!

قذفته بإناء للزهور على وجهه. الطلق الناري خرج وضربت الرصاصة مرآة سقطت ألف شظية. ارتدى ثيابه وهو يرتجف من الغضب وهددني بأنه سيعود لإتمام عمله. لم أقل شيئاً وتركت حطام الزجاج على الأرض ولم أشعر حتى برغبة للبكاء.

عاد بعد ساعة أو ساعتين مطرق الرأس ويداه مليئتان بالورود. ركع على ركبتيه وتوسل إليّ أن أغفر له. روى لي قصة نصب واحتيال، قصة سرقة وتسوية حسابات لكي يبرر عصبيته وتصرفه.

ـ كدت أقتل رجلاً. إنها المرة الأولى. لم أفعل ذلك من قبل. وضعوني أمام التجربة. هو ذا الوسط. كنت بحاجة إلى تعزية، وهذا

طبيعي أن أبحث عن التعزية والراحة بالقرب من زوجتي. زد على ذلك أن الرجل هو من معارفي، هذا فظيع، مازلت أرتجف، ولكنني كسبت ثقة الرئيس.

ـ وماشأن اليهود؟

ـ اعذريني، لقد انفلت لساني.

«انفلت»! ذلك هو المعنى الدقيق. كان يفكر حقاً بما نطق به كإهانة. ولكن الستراتيجية تتطلب التعقل والنفاق. كانت هذه زلة. في ذلك اليوم أدركت خطورة الفخ الذي وقعت فيه. علقت بمريض منحرف، عنصري يحتاج إلى أن يدوس ويمرغ في الوحل يهودية في بيت الزوجية. صعب عليّ أن أفهم وأصبت بنوبة من الدموع، بكيت، انتحبت، ضربت رأسي بالحائط. فقد استنارت بصيرتي على الجحيم الذي يُعدُّ لي في بيتي. هزتني هذه الرؤيا ـ نوع من يقين راسخ حميمي ـ فقررت أن أفسد مخططه وأن أقاومه. عاد لي نشاطي ورغبتي بالحياة. كان ينبغي أن أكون صبورة سياسية ومهرجة ناجحة. أخذت المشكلة ليس على المستوى الشخصي بل على المستوى العام. عادت إلى مخيلتي صورة والديّ والمصير الذي لقياه على يد الغستابو النازي. كنت قد نسيت كل هذه المآسي ودفنتها مع الماضي فبعثها من القبر هذا العنصري الرهيب. إذن فقد تزوجت مريضاً منحرفاً، فلم يكن عليَّ أن أزيل عن وجهه القناع وحسب بل أيضاً أن أمنعه عن متابعة تعذيبي، عن استغلالي لإرضاء نزعاته الشريرة كرجل مهووس يحن إلى العصر النازي. وكما تحدث المعجزة وجدت حالتي قد تبدلت فلم أعد أرى البيت سجناً وأصبحت أشعر بأنني حرة قوية لمقاتلة هذا الوحش. والشعور بالحرية يتجلى بشكل أقوى في السجن. هذا معروف جيداً يذكره المساجين السياسيون. وفجأة، كما لو أنه بفعل سحر، اختفى العشق. أريد أن أتكلم عن الامتلاك، عن الارتباط، عن غياب الرشد. ينبغي علي، أيها الصغير، أن أكون نزيهة صادقة معك. الحقيقة هي أنني لم أعد أريده زوجاً لي، ولكن عندما كنت أفكر به أشعر بأنني

موزعة بين الشفقة والكراهية. أشعر بالخوف منه، والكراهية شعور يفترض عكسه. كم أردت أن أكون غير مبالية ولكن ذلك كان مستحيلاً. قاومت، امتلكتني الشهية للطعام. أسلمت نفسي لعشاء مع زجاجة كاملة من النبيذ. كنت وحيدة فأعددت مخططات للمعركة. في اليوم التالي طردت ألدو وماريا ولم يكن ذلك سهلاً. اتفقت مع امرأة شجاعة كانت تعمل عند عمتي. مع بيبو أظهرت طاعتي وخضوعي لرغباته ورذائله. مارست معه الحب دون أن أشعره بشيء. تصنعت. عندما كان يقذف كان يعوي: «أجل يايهوديتي، نعم ياكلبتي، خذي يا يهوديتي الفاسقة، العاهرة، العرق القذر...». وأقول لنفسي: «أيها المسكين، أيها المسكين الوغد، أيها البائس، ذَنَبُكَ قبيح، بوزك أكثر قبحاً، وأنت تصرخ لأنك تظن أن تلك هي ممارسة الحب، أن تلك هي المتعة، وأنا أتركك تفعل كما لو أنك تستمني وأنت لاتفهم! أية تعاسة! أية شفقة! تظن أنني أتبلل بسببك بينما أنا أضع الفازلين لأوهمك بأنني أستقبلك وأنت لاترى شيئاً. لقد أعماك الحقد وسيفجرك الحقد، لاأدري كيف ولكنك ستنفجر! ستنفجر وأنت فارغ من دمك!». أن أكون معك في السرير لايهمني في شيء. كنت أشمئز ولكنني تغلبت على ذلك إذ أصبحت قوية ولكنني في أعماقي مجروحة مليئة بالدموع. بذلت جهدي، جهداً فوق طاقة البشر، لكي أنتهي بهذه التجربة إلى نهاية طيبة لم أكن أرى بعد منتهاها. ربما كان بإمكاني أن أرفضه، أن ألوذ بالفرار، ولكنني رغبت وشعرت بواجبي كذلك أن أزيل عنه القناع وأسلمه للعدالة. كان يحدث أن يتناول العشاء معي، يتبعني إلى غرفتي ويقبل يديَّ، يركع على ركبتيه ويطلب مني الصفح. أتظاهر بأنني صفحت عنه وأتماسك لكي لاأغرز في بطنه ضربة سكين. وفي إحدى الأمسيات عرض نظريته عن اليهود:

ـ كما تعلمين، لست عرقياً، والبرهان على ذلك أنك زوجتي، وذلك أقوى البراهين التي لاتقبل الاعتراض. أن أكون في رباط مقدس أقدم فيه بالتبادل جسدي ونفسي فهذا جميل، هذا قوي. ولايجب خلط الكلمات التي تخرج تحت تأثير حالة عصبية مع

المعتقدات الفكرية. إنني هادئ في هذا المساء وأفكاري متزنة. أنت تعرفين ياعزيزتي بأنك لستِ يهودية حقيقية. أولاً لستِ متمسكة بالدين وأنت متفقة معي على ذلك. وليس لك أنف محدَّب بل تحسنين الشم، ولست جشعة ولاسوقية. ورغم أنني فتشت فيك عن خصائص اليهود العامة فإنني لم أجد شيئاً. وربما ذلك هو ماسرّني وخيب أملي في الوقت نفسه. افهميني جيداً: لو أنك يهودية حقيقية، عضوة كاملة في هذه الأجناس الحثالة، لكنت مع ذلك أقبلت على الزواج منك، ولن يكون ذلك إلا من أجل أن أجتث منك كل هذه القذارات. ولكنك لست يهودية قذرة، وتلك هي المأساة. إنني خجل لأن غريزتي في إصلاح الأمور وردها إلى مسار الخير أصبحت غير ذات موضوع. أنا خائب الأمل. أنت أفضل بكثير من أن تكوني جزءاً من هؤلاء الناس. أشعر بنفسي محلاً للهزء. والأمر هو نفسه مع العرب. فقد فهموا كيف يقلدون الغرب ومنذ ذلك الوقت احتكوا بنا. غدوا مثقفين، متحضرين، نعم، هؤلاء البدو الصحراويون الذين يعيشون برفقة الماعز والجمال هم الآن ملوك النفط يضعون قانون البورصة العالمية، ويفرضون وجهة نظرهم وأمسوا لائقين مقبولين في المجتمع وحتى أكثر ذكاء من بعض الأوربيين. أما اليهود فهم يعاندون في أن يبقوا يهوداً مع أطنان نقائصهم ودموعهم ومآسيهم ونصبهم واحتيالهم، لنقل مع تقاليدهم وعاداتهم الثقيلة. من أجل ذلك ياصديقتي يحدث لي أن أفقد السيطرة على نفسي وتصرفاتي معك. ليس فيك من اليهودية شيء، والمأساة كلها هنا إذ يتملكني شعور بأنني خُدعت، خدعوني في البضاعة. أنت تفهمين أن لذتي العظمى هي في مكايدة اليهود رجالاً ونساء. تزوجت يهودية من أجل أن أروي ظمئي، لأحصل على أعلى درجات التلذذ، لأضع في دنٍّ (أخلِّل) فيه هذا الشعب المختار من النجاسة، ولكنك يهودية سيئة، أنت لاشيء، لم تحتفظي بشيء مما يصنع فتنتك: كأن تأكلين الكاشر، وتوقفي كل نشاط منذ مساء الجمعة، وتتخمي الناس بقصصك عن الهولوكوست (المذابح الجماعية) التي ارتكبت ضد اليهود، وعن

غرف الغاز المغلقة، وتزعجوننا بأسنانكم الذهبية وسبائكم الذهبية، عن أمهاتكم اليهوديات الثريات آكلات لحوم البشر... كلا، سأتوقف، أنتِ تبكين، سقطت الدموع. ولكن الأمر لايتعلق بك ياعزيزتي، من المؤسف أنك لست يهودية، لست إلا مظهراً يهودياً. توقفي عن البكاء، إليكِ، اشربي قليلاً من النبيذ. لن تشعري مع ذلك بأنك سليلة من الجنس الأدنى منا، أنت أفضل من ذلك لأنك زوجتي. بصراحة لو أنني عِرقي هل كنت تزوجتك؟ مع ذلك ينبغي على المرء أن يكون متماسكاً...

كانت دموعي تجري ولاأنبس ببنت شفة. ماكان عليّ خصوصاً أن أرد عليه وأن أدخل في لعبته. تركته يفرغ جعبته المتعفنة. لأول مرة في حياتي شعرت بالرغبة في أن أذبح أحداً. وكلما كان يتحدث كلما أصبح أكثر هدوءاً وكلما كبرت رغبتي في أن أقطع رقبته. أجل، أردت أن أرى دمه يجري، أن أراه يموت ببطء فارغاً من دمه. جففت دموعي، لالزوم للعجلة ولا للذعر. الأمور كانت واضحة فقد أعلنت الحرب وهو لايعرف ذلك إذ خدعته الدموع. تصرفت مثل ضحية لاتملك إلا دموعها للدفاع عن نفسها. تظاهرت بأنني اضطربت بتأثير من هذيانه بينما كانت قوتي تلح على أن أكون غير مبالية. الأحاديث العنصرية هي دائماً نفسها: الكراهية، الغطرسة، عقدة واسعة من الشعور بالدونية التي تبحث عن كمالها في الموت والمذابح. بييرو كان معداً للكراهية عن طريق جدته التي كانت تشي باليهود وتدل على أماكنهم أثناء الحرب، وهو كان فخوراً بأنه حفيدها. أراد أن يصبح صحافياً وأن تكون له صحيفة أو أن يدير إذاعة وخاصة من أجل استخدامها لنشر كراهية اليهود والعرب. قام ببعض الدراسات ولكنه لم يتمكن من أن يمسك بالطريق. كان عاجزاً عن أن يتعلم فهو يشعر بأنه أعلى من كل الناس فطرد من الجامعة.

بعد كل هذا الخطاب الطويل المدعوم بالإشارات اليدوية عرض عليّ الذهاب في إجازة لبضعة أيام عند جدته الكورسيكية. كانت الرغبة تتملكني في أن أرى وجه هذه الشريرة، تلك المرأة التي تبدّى

خزيها بكل فخار في سليلها الصغير. على أنني لم أكن أملك القوة التي تساعدني أن أقاتل عائلة بكاملها، إضافة إلى أنني خفت من اختطافي أو قتلي الذي يمكن أن يظهروه على أنه حادثة. لذلك شكرته على عرضه وقلت له إنني أفضل أن أرتاح في بيتي وإنني أنوي أن أتفرغ لقراءة التوراة لكي أمسي يهودية حقيقية. وقد شعر بأنني فاض بي فابتسم واختفى.

في اليوم التالي دخل الغرفة وعلى رأسه كيبا (مما يلبسه اليهود) وقال لي إنه ذهب إلى السيناغوغ ليتحدث مع الربانيين في موضوع هدايته إلى اليهودية. لاأعرف مادار في حديثه معهم ولكنه لم يكن مسروراً. عرفت فيما بعد أنه كان يكذب، فقد اخترع هذه القصة حجة لبث كراهيته لأنه مامن ربّاني يأخذ ذلك على محمل الجد، فالمرء لايهتدي هكذا بأن يدفع باب السيناغوغ ليعلن هدايته.

ـ لم يقبلني، حتى أنه قال لي إذا كان ثمة عدالة في هذه البلاد فيجب أن أودع السجن. عاملني كأنني أحد رجال المافيا. أتدركين قصدي؟ إنهم هكذا، اليهود! تمد لهم يدك فينبشون في جيوبك لينهبوك. لقد فهمت، إنه يريد نقوداً، كثيراً من النقود، فليس مايعجبهم غير ذلك. حدثته عنكِ، فزم شفتيه وهو يقول «المسكينة». لم أفهم. من حسن الحظ أنكِ لست مثل هذا الرباني القذر. أنت هنا في انتظاري يايهوديتي الصغيرة، أنت التي تجثين على ركبتيك ماأن أحرك إصبعي. هذه المرة ستأخذينه في فمك بكل لطف، ستطلينه بلعابك الساخن العذب، وستجتهدين حتى أنسى هذا الرباني القذر...

رغبت بالتقيؤ، وهو مافعلته وأنا أركض نحو الحمام. لحقني وعيناه تلمعان ويداه ترتجفان وهو يحاول الإمساك ببنطاله. رأيت بصورة أوضح وتختلف عن المرات السابقة أن بييرو كان وحشاً حقيقياً. هو عملاق ذلك القصير السمين الصغير الحشرة. عيناه تتكلمان عنه وله شقيقة في وجهه، عضلة ترتجف عند الغضب وسحنته محتقنة. كان الموت يحوّم في بيتنا، أحس به قريباً مداهماً، ولكني لاأعرف ماإذا كان هنا ليأخذه أم لينتهي مني. إنه يحوم، له

رائحة تكاد تكون عطرية، شيء ما بين رائحة التعفن ورائحة الزهور الذابلة. والواقع إنها رائحة كولونيا بييرو التي تحضِّرها له جدته خليطاً من العديد من المستحضرات.

كنت أتقيأ لأنني حامل ولم أكن أجرؤ أن أعترف له بذلك إذ لاأدري ماالذي ستكون ردود فعله. كنت موزعة بين الرغبة في أن يكون لي طفل والرغبة في أن أقيم العدالة بالانتقام من بييرو. كلا لن يكون لي طفل من هذا الوحش. ربما كان عليّ أن أستخدم هذه الورقة أيضاً في المعركة. أحسَّ بأن هناك شيئاً تغير في أحوالي، رأى أن لون بشرتي غدا شاحباًوفهم أنني أنتظر طفلاً. لم يقل شيئاً بل أمسى نومه في المنزل نادراً. دعاني يوماً في الهاتف وأخبرني أن له صديقاً طبيباً سيمر على البيت في الساعة الثامنة. لم يقل أكثر من ذلك. وفي الساعة المحددة دخل إلى الصالة سيد عجوز وهو يحمل صندوقاً صغيراً. كان هزيل الجسم، قبّل يدي وقال فوراً:

ـ خذيني إلى غرفتك، أريد أن أستمع إلى صدرك بسماعتي الطبية.

ـ ولكنني لست مريضة.

ـ أعرف أنك لست مريضة ولكن بييرو مقتنع بعكس ذلك. لديّ أوامر ويجب أن أقوم بالفحص. منذ كم من الأسابيع حصل ذلك؟

ـ ستة، سبعة، لاأعرف على وجه التحديد.

ـ لابأس، مازال أمامنا متسع من الوقت.

ـ وقت من أجل أن تفعل ماذا؟

ـ ولكن ياسيدتي من أجل إجهاضك، تلك هي أوامر السيد بييرو، أنت تعرفينه وليس لي مصلحة في عصيانه، إنني متمسك فيما بقي من حياتي كما أنني متمسك بحياة أخصائي.

ـ فهمت، ليس لك من حاجة لتفحص صدري من أجل ذلك. سأنظر في الأمر. سأقول له إنك قمت بعملك. شكراً.

ـ كلا، يجب أن أفحصك.

أطعتُ والدمع يجري على وجنتيّ، وكان الطبيب لطيفاً، أصدر

التعليمات وأعطاني موعداً في يوم الاثنين المقبل. لم يشأ أن يعمل أثناء العطلة الأسبوعية. أما أنا فبقيت متمددة على ظهري وساقاي منفرجتان أتلقى عليهما شيئاً من الهواء الطلق، وقد وجدت لذة في ألا أتحرك كما لو أنني أنتظر خروج الطفل من بطني. وعندما هبط الليل عاد بييرو ووجدني على هذا الوضع. كنت نائمة فبدأ يعوي ويرغي ويزبد:

ـ لامجال لأن تحتفظي بهذا الطفل! خير لي أن أطلق على نفسي رصاص بندقيتي على أن يكون لي طفل يهودي، ذلك لأن الأم عندكم هي التي تنقل الدين. خير لي أن أبقر بطني، ولكنني قبل ذلك سأقتل كل الناس.

ـ وأنا كذلك لاأريد أن يكون في جسدي أي أثر منك، ولكنني سأحتفظ بهذا الطفل لأنني لست متأكدة من أنه منك...

رد الفعل الأول هذا من جانبي جعله مجنوناً من الغضب. أعطاني ضربة من قبضته من القوة بحيث أفقدتني الوعي لبضع دقائق. وكان الدم يتدفق من أنفي. وعندما نهضت تلقيت ضربة من رجله في بطني حتى ظننت أنني متُّ، وضاعف هو وحشيته:

ـ يهودية قذرة تجعلني زوجاً مخدوعا! لقد طفح الكيل. سأذبحك، سأضعك أنت وجنينك في صندوق القمامة. نعم، النازيون معهم كل الحق، كانوا يعرفون ماذا يفعلون مع هذا الجنس القذر...

دق الهاتف. لابد أنه كان ينتظر مخابرة هامة، وكانت تلك هي الحال. نسيني لبضع ثوان راودتني خلالها الرغبة في قتله ولكن كان علي ألا أخطئ ضربتي. بحثت عن آلة قاطعة وتماسكت لأنني وعدت نفسي أن أقوم بالعمل بكامل هدوئي لاتحت تأثير الغضب. سجنت نفسي في الحمام، وفجأة أغرق دم غزير فخذيّ. كدت أفقد الوعي وطلبت النجدة بينما كنت أفقد دمي أكثر فأكثر. وأقبل بييرو مصحوباً بشاب ذي عينين فاتحتين، فأشرت إليه ألا يقترب وأن يستدعي أحد الأطباء.

أمضيت ثلاثة أيام في العيادة. ثلاثة أيام من الهدوء والوحدة لم يجرؤ بييرو خلالها على الظهور. أرسل لي بطاقة بريدية يطلب فيها مني الصفح. إنه روبيرتو من زارني في اليوم الثاني. كان قذر الرأس. هو أيضاً كان عليه أن يعتذر مني ولكنني لم أحمل ضغينة عليه لأنه هو أيضاً أسيئت معاملته على يد بييرو ثم رمي به كشيء غير صالح للاستعمال إلى الشارع. وقد عاش من إيجار بيتنا واعترف لي بأنه كان دائماً معقداً مني، من جمالي، من نشاطي ولم يكن يحتمل فرحي بالحياة. قال لي إن وقتاً مرّ عليه فقد فيه الرشد وكان مستعداً خلاله لأن يفعل أي شيء لكي يحقق ذاته، ومن أجل هذا رماني بين ذراعي ذلك الوحش. ربما قال له بييرو بأنه وقع في غرامي وجُنَّ بي وبأن عليه أن يساعده في التقرب مني وأن يقنعني بقبول لقائه وربما بعقد صلات معه. ولم يكن أخي على معرفة بأن بييرو مريض منحرف وعرقي، فقد وعدني بأنه لن يدعني أسقط أبداً وبأنه سيخف لمساعدتي.

ـ كلا، لاتفعل شيئاً، سأخرج من ذلك وحدي. شكراً لأنك أتيت، لقد تناقص قلقي وعلمت بأن هذه المحنة قرّبت مابيننا، وهذا هو المهم، أما الباقي فلا تهتم به فأنا قادرة تماماً على الدفاع عن نفسي.

ذهب والدموع في عينيه. روبيرتو نموذج الضعيف بعينه، لم يكن له عمود فقري صلب. كان يجعلني دائماً أشفق عليه وأنا أكره الإشفاق.

في صباح اليوم الثالث زارني الشاب ذو العينين الفاتحتين (إنه ماركو الشهير الذي أتى ذكره في القصة الأولى)، وقال لي:

ـ أتيت من قبل السيد بييرو، أُدعى ماركو وأنا غاضب منه. لقد سمعت كل شيء في ذلك المساء إذ أتيت معه في انتظار مخابرة هاتفية هامة. كنت في صالتك عندما كان يصرخ صراخاً عالياً يمكن لكل الناس أن يسمعوه. إنه شخصية مثيرة للفضول، وبما أنه

صديقي فإنني أقبله كما هو ولكنني لاأعيش معه. له عليّ الكثير: أنقذ حياتي مرة في صقلية، في تراباني، في عمل لم يكتب له النجاح. إنني مخلص له وهو يعرف أن في مقدوره أن يثق بي. كراهيته لليهود والعرب شديدة فهو ممسوس بهم. في أحد الأيام اشترى نسخة من «كفاحي» بخمسة ملايين لير لأن هتلر هو الذي كتبه. أظن أنه كان ينوي إهداءه لك وربما فعل ذلك في فرصة قادمة. أنا لست في كل هذه القصص وأفضل أن أحتفظ معه بعلاقات عمل وهذا كل شيء، وبذلك تكون الأمور واضحة. آخر صديقة صغيرة له قدّمها على أنها «خطيبته» كانت عربية من المغرب، جميلة رقيقة وذكية مثلك. أعتقد أنها تركته في الوقت المناسب، ادعت أن وراءها قضية عائلية وغادرت نابولي. وقد قال إنه لاينجذب إلا للنساء الساميّات ليسيء معاملتهن بقدر مايستطيع، وسيأتي يوم تسوء فيه الأمور.

عندما ذهب أعطاني لفافة.

ـ إنها من السيد بييرو فهو يعرف أنك تحبين المعكرونة. إلى اللقاء ياسيدتي، أنت طيبة، أريد أن أقول جميلة.

كان ينظر إليّ بعينين متأثرتين. وبما أنني محتاطة وقليلة الثقة فإنني لم آكل المعكرونة. نوع من الحذر. في اليوم التالي عاد ماركو لمرافقتي إلى البيت لأن بييرو كان في كاتان. أتى وفي يده باقة جميلة من الزهور وقال لي:

ـ هذه مني. بييرو قال لي أن أرافقك، هذا كل شيء.

ماركو كان يبدو شيئاً فشيئاً أكثر اهتماماً ويخمِّن ماكنت أقاسيه. يأتي تقريباً كل يوم إلى البيت تحت أية حجة. وفي أحد الأيام أتى في الساعة السادسة صباحاً وهو يظن أن بييرو كان هناك. كنت وحدي. منذ إجهاضي أصبحت أنام في غرفة هيّأتها لي الخادمة دون أن أعرف متى يأتي بييرو ومتى يذهب. رفضي له ازداد أكثر فأكثر فلابد من السيطرة على نفسي. قلت لنفسي إن ماركو أخبرني بأنه مرسل من سيده ليجربني، وقد بالغ أحياناً

بإظهار إشفاقه على حالي، وأعلمني أن بييرو استُدعيَ من قبل المنظمة في نيويورك ولابد من سفره بدون تأخير. وعندما تكلم كان في لهجته شيء يشبه الفرح إذ قال وعلى فمه ابتسامة صغيرة:

ـ أخيراً، أسبوع بدون بييرو، كما لو أنها إجازة صيفية، لااستعجال ولا اجتماع في منتصف الليل ولاصراخ ولاأزمة عصبية... سأرتاح وآمل أنك ستفعلين أنت أيضاً فأنت تستحقين راحة هادئة.

بييرو دق بابي ذات صباح وقال لي:

ـ لاأحب أن أراك في هذه الحال. اعذريني، ليس لدي الوقت للعناية بك... ورائي كثير من العمل. آه، ياحبذا الزمن الماضي السعيد حيث كنا نتناول العشاء وحدنا على الشرفة أمام البحر! أشعر بالحنين إلى زمن ولادة حبنا. أعترف بأنني لم أكن لطيفاً ولامتعاطفاً، لقد بالغت، ولكنك تعلمين أنني في أعماقي إنسان صالح ذو قلب طيب أبيض كالحرير رغم مشكلتي هذه مع اليهود. أعتقد أن بإمكاني أن أصبح قديساً، إلى هذا الحد أشعر فيَّ من الطيبة المتلهفة لتطفو على السطح وتمس من حولي. ولكن تلك هي الحياة. عليّ أن أسافر لبضعة أيام في رحلة، وقد كلفت ماركو بالسهر عليك لكي لاتحتاجي إلى شيء. عند عودتي، ياحبيبتي، ستكونين قد ارتحت تماماً والتأمت جراحك فنمارس الحب من جديد... هذا ماينقصني... الحب! الحب، كم هو جميل الحب، خصوصاً عندما يتحابُّ الحبيبان كما هو شأننا، أليس كذلك ياعزيزتي؟

تصنعت له ابتسامة وأرسلت له قبلة من بعيد آملة أن يقوم أحد في نيويورك بفري جلده. وفي المساء نفسه كان ماركو في البيت. «هي أوامر الرئيس»، قال لي.

خرجنا إلى الشرفة حيث تناولنا العشاء. وكان هذا أول مساء تعود إليّ فيه قابليتي منذ بداية المعركة. وفي نهاية السهرة شعرت

بالرغبة في أن أدع نفسي في ارتخاء لذيذ. ماركو كان جميلاً شاباً وذكياً. رغبت في أن ألمس نقرته وأن أضع يدي في شعره دون أن تكون لدي الرغبة في شيء آخر. وقد تركني أفعل ثم نهض وقال:

ـ تأخر الوقت. هاهو ذا رقم هاتفي. تستطيعين طلبي في أية ساعة من النهار أو الليل. ارتاحي جيداً.

في اليوم التالي أتى دون أن ينتظر دعوتي حاملاً معه زجاجة شمبانيا.

ـ سنحتفل! طلبني بييرو من نيويورك وأمرني أن أشرب معكِ على صحته، حتى أنه عيّن نوع الشمبانيا. وبما أنني خادم صالح فإنني أطيع.

ـ ولكن من قال لك بأن لدي الرغبة في أن أحتفل هذا المساء، وزيادة على ذلك مع خادم زوجي؟

ـ أعتقد ياسيدتي أنك مخطئة. فأنا هنا تلبية لأوامر المعلم لامن أجل أن أداعب وأصطاد زوجة ذلك الذي أدين له بحياتي. هنا ياسيدتي أنا أعمل. حسن، علينا أن نضع هذا على الشرفة ونشرب نخب بييرو ديلّا كازا.

اللهجة كانت حازمة. أحب هذا التسلط المفاجئ عند هذا الشاب ذي العينين الفاتحتين والبشرة السمراء. ولم تكن عندي الرغبة بأن تكون لي قصة معه، ولكن إذا كان في استطاعتي أن أخلق المشاكل لبييرو فإنني لن أتردد. عند القدح الثالث غير ماركو وضعه، حل ربطة الرقبة وأخذ يغني أغنية شعبية ويبتسم. انحنى نحوي وقبل يديّ. كان فرحاً وسعيداً مثل طفل. ركع على ركبتيه ووضع رأسه على فخذيّ دون أن أملك الرغبة في صده. اعترف لي بانجذابه إليّ وقال بأنه عاجز عن المقاومة وأصبح رقيقاً جداً. ولم تكن لي رغبة في ممارسة الحب بل في بعض التعاطف. بقي عاقلاً إلى جانبي وروى لي قصة طفولته في صقلية: أبوه قُتل في مسألة تسوية حسابات فلبست أمه الحداد بقية حياتها، النقود التي كانت تعوزهم

والتحايلات الصغيرة من أجل العيش والممارسات السيئة والمشاجرات والأخذ بالثأر والدم والدموع... كان مؤثراً، ربما ممثلاً بعض الشيء. لقد أحسن اللعب ولم يزعجني ذلك فالصقليون غالباً ممثلون متصنعون. كان يبتسم بلطف وعيناه تبرقان بالشهوة. وفي الليل عدت إلى التفكير به ولم أعد أعرف ماإذا كنت شغوفة بجسده لأتمتع بملامسة جلده أم أن رغبة الانتقام دفعتني إلى الذراع الأيمن للرجل الذي أذلني. وماذا يهم فماركو هو الذي خاطر بالمغامرة. لم أكن في حالة تسمح لي بقبول ذلك ولكن فكرة أن أفعل شيئاً يؤذي بييرو كانت تتملكني. المخاطرة كبيرة ولكن ليس ثمة ماأفقده فبييرو هو العدو الشخصي للعرب واليهود ولايحب أحداً، فهل السبب هو أنه يبالغ في حب ذاته؟ إنه يقضي وقتاً طويلاً في الحمام يعتني بجسده كان عتلياً ذا قامة متواضعة، لذلك ينتعل كعوباً عالية ليبدو أطول من حجمه ولكي يصلح أن يكون نموذجاً لعرق متفوق. وهو يعمد كذلك إلى صباغة شعره ليبدو أصغر سناً. بمراجعة الماضي فهمت بشكل أفضل نوع الرجل الذي كان بييرو. هو بكل بساطة رجل مسكين معقد لايملك سعة الأفق، فاشستي ابن لفاشستي متأثر بمبادئ حركة عنصرية تدعو إلى بعث الفاشستية، ومن أجل هذا السبب التحق بالكامورا، ولابد أنه جمع أموالاً طائلة لتمويل هذا الحزب السري.

في الصباح الباكر اقتحم ماركو غرفتي وقال لي:

ـ أسرعي ليس لدينا وقت نضيعه، من ذلك المكان الذي ذهب إليه لن يستطيع الاتصال هاتفياً بنا. علمت من العصابة أنه سيخضع لتجارب في إحدى الدارات خارج مانهاتن وسيستغرق ذلك أسبوعاً، ثمانية أيام من الاعتزال له ومن السعادة لنا.

ـ ولكن أين نذهب؟

ـ بعيداً عن هنا. أعرف صديقاً في طنجة يملك بيت أحلام فوق هضبة تقابل الخليج، وقد دعانا. سنذهب إلى ميلانو ومنها إلى الدار

البيضاء ثم نصل طنجة في الساعة الثالثة والعشرين. لقد رتبت كل شيء، وليس عليك إلا أن تقولي نعم ونغدو في بلاد الألف ليلة وليلة، أخيراً، ليس تماماً، ولكن يبدو أن طنجة مدينة أسطورية كل شيء فيها ممكن حتى أنها تبيح الحب في حالة المقاومة...

هل كان لي الخيار؟ أنت أيها الكاتب مارأيك في ذلك؟ تبدو قلقاً، تتساءل ماإذا أحسنت صنعاً باستخدام ماركو ضد بييرو؟ أنت تعلم أيها الصغير في الحرب لايملك المرء دائماً الخيار، تهاجم أو تُقتل.

- مالاأفهمه هو كيف تركتِ نفسك تقعين في الفخ.

- أعتقد أنني سبق أن قلت لك إن الحب له عدة مظاهر. العماوة شيء دارج، شكل من أشكال النوم المغناطيسي، يتلاعب الآخرون بك ولاتفعل شيئاً. لقد فقدت نشاطي وغريزتي.

- ولكن هل أحببت ماركو؟

- ليس الأمر بهذه البساطة. كنت في حالة لاأستطيع فيها أن أحب أحداً فقد انتابني القرف واليأس وأصبحت مستعدة لفعل أي شيء لأحرر نفسي وأتخلص من بييرو. وفي الوقت نفسه احتجت لسند ودعم، لوجود. وكان ماركو هو المعدُ لنيل بييرو في كبريائه. في البداية لم تتضح لي فكرة استخدام ماركو بل أتت متأخرة. كان لي من العمر أربعة وثلاثون عاماً في ذلك الوقت وله هو خمسة وعشرون. كان جميلاً متوحشاً ورقيقاً ويحب بييرو كأنه أبوه. في لحظة ما ظننت أن السفر إلى طنجة هو فخ، اختطاف بموجب مخطط وضعه بييرو. كان لي شكوكي وانتابني الخوف، كنت أغامر بكل شيء من أجل كل شيء. وطنجة ذات سمعة بأنها مدينة لكل أنواع التجارة غير المشروعة ومعلَم من معالم العصابات والمهربين، وهي مرفأ معروف بالتجسس وتجارة الرقيق الأبيض. في أثناء الرحلة كان ماركو متوتراً وعصبياً ولم أعرف ماإذا كان يخاف مني أو من معلمه، لم أكن مطمئنة ولكنني لاأملك شيئاً معرضاً للضياع.

عندما وصلنا في ساعة متأخرة من المساء إلى مطار طنجة شعرت بشيء غير واقعي، فالأمر أشبه بفيلم بالأسود والأبيض، فيلم شخصياته مضحكة كاريكاتورية. ثمة سيارة ليموزين تنتظرنا. سائقها في مثل سواد مومو يلبس طربوشاً أحمر ولاينطق بكلمة. ماركو لم يتكلم أيضاً. أصابتني لبرهة نوبة من الضحك المجنون إذ تخيلت أنني مشدودة الوثاق ومرمية في قبو حارسه هذا الأسود. أخذت يد ماركو المبلولة بينما تحملنا السيارة في الليل وأضحك لوحدي كأن بي مساً صغيراً من الجنون. شيء ما تعطّل فيّ فلم أعد أرى الناس كما هم، بل بدوا لي شاذين ذوي أعضاء أصغر من المعتاد وعيون يخرج منها الدخان. انتابني نوع من الهلوسة. كنت أؤمن بذلك ولم أقل لنفسي: إنهم صور اخترعها الهذيان، كلا، بل كنت مقتنعة بأن الناس هم كذلك، وأن العالم تغير على أثر ماأصابني من جراح. كنت أضحك وحدي وأبكي علانية. لم أعد أقدِّر العواقب والأخطار.

من البيت كنا نرى المدينة كلها، البلد والمرفأ والشط ورأس مالاباتا. أمسى الوقت بعد منتصف الليل. مضيفنا علي كان في انتظارنا وفي يده قدح من الشمبانيا. إنه رجل فتّان بشوش فيه بعض من ضخامة. قبّل ماركو على خديه وضمه إليه، ثم التفت إليّ وقبل يدي. انفجرت بالضحك. وماكدنا نستقر في صالة كبيرة ـ بحيث أن الناس الذين هم في أعماقها بدوا لي صغاراً جداً ـ حتى قدِمِ رئيس الخدم في حلته البيضاء وطربوشه الأحمر مثل طربوش سائق السيارة يحمل لنا الشراب. علي أخذ ماركو من ذراعه وأبعده عني ثم أخذا يتحدثان بصوت خفيض على الشرفة. مع بييرو اعتدت مثل هذه المناجيات. أما هنا فقد اعتقدت حقاً أنهما يناقشان حالتي لأن ماركو يلتفت نحوي من حين إلى حين. ولابد أن علياً هو واحد من العملاء التجاريين للإيطاليين وفي الوقت نفسه واحد من كبار موردي الحشيش لأوروبا. وفي هذا البيت الكثير من الترف والبذخ، مجهز بأثاث مجلوب من الصين وأمريكا، وليس فيه أثر لزوجة

وأولاد بل نساء جميلات يتألف منهن بلاط علي. إنه يحب أن يكنّ في متناول يده فهو يداعبهن بينما يتحدث معتمداً على حركات من يديه تكاد تكون طبيعية. يداه تقومان بسياحة فوق أجساد اللواتي يحطن به. إنه إقطاعي يحب أن يتباهى بعرض ثروته.

وقعت من النعاس بينما ماركو مشغول مع علي. إحدى النساء، مغربية اسمها ماريا قادتني إلى غرفة واسعة جداً وجميلة وقالت لي:

- هذه هي الغرفة الزرقاء، اللون الذي يفضله ماركو.

- ولكنني لست خطيبة ماركو. أفضل غرفة صغيرة بسيطة وحدي.

- آه، حسن، أعطوني معلومات خاطئة. أعرض عليك الغرفة ذات اللون الأزرق السماوي، إنها أصغر ولاتخلو من فتنة وستكونين فيها مرتاحة.

ماريا تتحدث الإيطالية جيداً وكذلك الفرنسية. قالت لي إنها ليست جزءاً من بلاط علي.

- إنني ابنة أخت علي. منذ بضع سنوات هربت من بيت الزوجية واستقبلني في بيته، فأنا تارة سكرتيرة وتارة مدبرة منزل، فعلي يستقبل الكثير من الزوار، تقريباً كل مساء وهذا لاينقطع. زوجي كان ضابطاً في الجيش ويملك كل السلطات ومنها الحق في أن يتخذ له زوجة ثانية.

وانتابني الفضول لأن أسألها ماذا يعمل علي.

- إنه من ملّاك الأراضي وذو دخل كبير. عنده أراض وفنادق ومقاهي ومراكب وبعض حقول لزراعة الكيف في الريف. هو من الحُسيْمة، باشا حقيقي، كما تقولون عندكم عمن يوزع الخير على من حوله.

- باشا كريم...

- يبدد أموالاً مجنونة ولايفعل الشر لأحد، إنه إنسان طيب حقاً. عمتِ مساءً!

في الصباح عندما استيقظت لمحت ماركو مشدود الملامح يتوجه إلى الغرفة الزرقاء. قال لي:

ـ لقد أخفقت ليلة حبنا الأولى! علي كثير الثرثرة فلا يمكن تركه والذهاب إلى النوم لأنه يتكدر. إنه يعمل وخاصة في الليل لاينال منه التعب.

ماريا رافقتني في زيارة للمنزل بينما كان ماركو مستغرقاً في النوم. مكتب الباشا يشبه غرفة القيادة في أحد المراكب. فيه عشرة هواتف أو مايقاربها وآلات كاتبة كتابة وتلكس ومنظار مقرب يعلو منصباً ثلاثي الأرجل ودفاتر حسابات وصندوقان رماديان كبيران جداً، وعلى رف جداري صورة لزوجين عجوزين من الفلاحين سيئي الملبس هما والدا علي، وقد قالت لي ماريا إنهما ماتا في العوز والبؤس، وأخذ علياً في كنفه عم له جعله يعمل بقسوة في الحقول. وفي أحد الأيام حط الرحال بعلي في طنجة وهو خالي الوفاض ولكنه يملك عزيمة ثابتة في أن يخرج من هذه الحال. عمل حمالاً في فندق كونتيننتال أقدم فندق في المدينة وفيه قام بمقابلات حاسمة. ثم اختفى مدة عامين دون أن يعرف أحد مكانه ظهر بعدها متغير الأحوال واستقر في الفندق نفسه ولكن كنزيل ومنه قاد عملياته.

ـ مع ذلك لم يشتر الفندق؟

ـ كلا، لم يشأ المالك بيعه.

لقد رجاني ماركو بأن أكون صبورة طويلة البال لأن عليه أن يسوي بعض المشاكل مع صديقه المغربي، وهذا ماساعدني على ألا أستقبله فوراً في سريري. ولم أكن مستعدة لذلك لأن قلبي لم يكن هناك. أردت فقط أن أوصل رسالة إلى عدوي: خيانة مزدوجة، الزوجة والمساعد. وفي اليوم الثالث انزلق ماركو تحت ملاءات سريري بينما كنت نائمة. لطالما حلمت أن أؤخذ وأنا نائمة، فكرة تقوم عندما يصبح الاستسلام منبعاً للذة المكثفة مع الشعور بأن ذلك حلم يترنح بين حالتين، بين نوعين من التعب، النوم واليقظة. شعرت

بيد تمر فوق صدري مرات عديدة، بين فخذيّ، استسلمت، ولكن ماركو رغب في أن يرى عيني مفتوحتين وأن يضع ساقيّ على كتفيه ورأسي غارق في بطني، عند ذلك أيقظني وهو يعض تحت إبطيّ. صرخت فوضع يده على فمي واخترقني بلطف ثم بعنف وغدا جسدي مغطىً بالبقع الزرق. وقال لي:

- مع كل هذه العلامات لن تدعي هذا القذر بييرو يرى جسدك في وقت قريب.

- ولكنه لن يرى جسدي عارياً أبداً. لقد انتهى الأمر، سأريه علامَ أنا قادرة، لن أتقهقر، لن أتلقى الضربات وأسكت.

هاأنت ترى أيها الصغير، أنت المغربي، أنني أحببت أن أشرع بانتقامي في بلدك. لم أر شيئاً من ماركو ولكنني فهمت أن ماركو يقوم هو أيضاً بحساباته. أتفهم؟

- ولكن علياً يستطيع أن يروي لبييرو كل شيء...

- مستحيل. ماركو كان يخون بييرو وهو يقوم بعمل مع المغربي. علمت فيما بعد أنهما عدوان وأن بييرو حاول فيما مضى أن يصفي علياً في برشلونة ولكن بعضهم حذّر هذا الأخير فأرسل هو الآخر قاتلاً إلى الموعد. وماهو مضحك في الأمر أن قاتلين محترفين تقابلاً أنفاً إلى أنف في المطعم الذي كان على بييرو وعلي أن يلتقيا فيه. وقد انفجرا بالضحك إذ كانا صديقين، ومثل هذه الأمور تحدث في مثل هذا الوسط.

- ولكن ماركو استخدمك لخيانة معلمه!

- استخدم أحدنا الآخر بالتبادل، عدا عن أن امرأة ولو كانت بذيئة فهي تحتفظ في أعماقها بشيء من العطف. إنها تحتاج للعواطف كي تعطي نفسها لرجل حتى ولو علمت علم اليقين أن ذلك لاغدَ له. أما الرجال فليس لهم حاجة لذلك فهم يتوترون ويفسقون. إذن أنا استخدمت ماركو مع شعوري بشيء من الضعف أمام عينيه

الفاتحتين. جعلني أحنو عليه، هو شاب وجميل، أخرق بعض الشيء ولكن مع مقدرة حسنة...

سأستمر في قصتي:

قضينا أياماً لاتنسى في هذا البيت الرائع الخارق. علي وماركو هما من شغيّلة الليل، أما ممارسة الحب فهي فيما بعد الظهيرة حتى غدا ذلك طقساً يسميه القيلولة وكان يحسنها. شعرت شيئاً فشيئاً أن جسدي يستعيد الحياة. لم أحب التفكير بالمستقبل لأن احتمال العودة إلى نابولي يجعلني أرتجف. ماريا التي كلفها علي بأن تكون في مجرى الأحداث سألتني أن أبقى في طنجة وقالت لي بأنني أستطيع أن أعيش هناك بكل أمان. ولكن شيئاً في داخلي كان يدفعني للرحيل لأنهي أمري مع بييرو ومع انتقامي. أما ماركو فله مخططه بينما أنتظر أنا الأحداث. وثقت بغريزتي التي طالما افتقدتها!

رحلنا ذات صباح وقلبي منقبض. احتضنني علي ودمدم في أذني جملة جميلة: «لقد ملأت بيتي بنورك والآن أصبح خالياً، عودي متى شئت. أنا أعرف كل شيء. لاتثقي بالرجال كلهم، كلهم. بييرو شرير لايحب أحداً لا اليهود ولا العرب ولا الأفريقيين. لاأحد البتة».

قدم لي عقداً بربرياً وأضاف: «هذا من أجل أن يحميك».

العودة إلى نابولي كانت متعبة وماركو قلق جداً فهناك شيء مختل في مخططاته، وأنا تعيسة لأنني أقترب من المنزل. الخوف كان واضحاً على وجه ماركو، خوف غريب داخلي مثل مرض يقرض الكبد. كان شاحباً لايتحدث إلا نادراً. ومنذ وصولنا إلى المطار أخذ يتحدث في الهاتف والعرق يكلل جبهته. أردت أن أطمئنه، أن أقول له أشياء لطيفة ولكنني كنت أشعر بأن مأساة تُنسج حولنا. وضعني في المنزل واحتفظ بسيارة الأجرة نفسها وقال لي: «انتبهي لنفسك، انتبهي جيداً!».

كنت نائمة عندما دخل بييرو إلى غرفتي في حوالى منتصف

الليل. سحب الملاءات بعنف ورمى نفسه فوقي وأنا عارية تمام العري، حاول معي محاولات فاشلة، ورائحة الكحول والثوم تنطلق منه، ثم مالبث أن توقف فجأة إذ رأى حول ثديي بقعة زرقاء هي أثر لامتصاص. لم يقل شيئاً نظر تحت ذراعي ورأى مثلها، نهض وقد انكمش قضيبه كما لو أنه ابتلعه ثم أشعل لفافة تبغ وعاد فلبس ثيابه. انتابني خوف حقيقي فنهضت وارتديت دثار بيت بينما سحق هو لفافة التبغ وذهاب صافقاً الباب وراءه. ركضت إلى الحمام حيث تركت عند المساء العقد البربري فلم أجده، اختفى. منذ تلك اللحظة عرفت أنه تلقى الرسالة بصورة جيدة فشعرت بالراحة ولابد أن المأساة وقعت. كنت مستعدة مثل جندي يوم الهجوم ولكنني قلقة ولست واثقة من نفسي. فكرت من جديد بالجملة التي قالها لي علي فأعادت لي الثقة. ماهي الطريقة التي سيتصرف بها بييرو؟ أيقتل كل الناس ثم يقتل نفسه؟ أيقتل ماركو أولاً ثم يتبعني به؟ كل شيء ممكن ولابد أنه يحضر الآن خطته.

لم تصلني أخبار من ماركو فهل هو في مهمة؟ هل هو مختبئ؟ بييرو دعاني لتناول كأس من الشاي في الشرفة وهو هادئ وبارد. كنت في كامل استعدادي ولم يقل هو كلمة عن شكوكه. حدثني عن مهمة حرجة، أي خطرة، لابد من أن يعهد بها إلى ماركو:

ـ إنه ذراعي الأيمن. هو الوحيد الذي أثق به كل الثقة. إنني أعرفه لم يقم بخيانتي قط، ومن النادر أن يحصل المرء على رجل مثله. يدين لي بحياته وقد أحسنت تربيته، وهو يفضل الموت على أن يخونني. يؤسفني أنني سأوكل إليه هذه القضية ولكن النيويوركيين هم الذين طلبوه. أخيراً، سأصلّب أصابعي وصلّي له أنت صلاة يهودية صالحة، صلاة تحفظه. اليهود يعرفون كل ذلك: يعرفون أن يرسلوا الموجات السلبية كما يعرفون إيقافها وتحويلها إلى موجات إيجابية. صديق مغربي أنبأني بذلك لأنه يعرفهم جيداً ويشعر بأنه قريب جداً منهم، وعندما يتحدث عن اليهود يقول عنهم «أولاد عمي».

وهكذا مات ماركو في المرفأ تحت رصاص رجال الجمارك الإيطاليين. لابد أنه كان يقوم باستلام بضاعة، وما أن وصل إلى المستودع حتى بدأ الرجال بتفريغ الشاحنة من الأكياس، ولكن الشرطة كانت هناك تنتظر وراء عربة النقل. أطلقت الإنذارات المعتادة بأن يرمي الجميع أسلحتهم ولكن رصاصة خرجت من الشاحنة فأخذ رجال الجمارك بإطلاق النار بينما كان ماركو يرفع يديه في الهواء علامة الاستسلام.

نعم، قتلوا فتاي ماركو الجميل. أنت أيها الكاتب لك هيئة غير المصدق. أما أنت مومو فأعرف ماستقول لي. لقد رويت في البداية أي شيء لأسوغ مجيئي إلى النزل، قصة ماركو المتعيّش على النساء. النصّاب واللاعب الخاسر هي من نسج الخيال، يمكن أن تكون تلك الحقيقة، ولكن ماركو لم يكن لديه الوقت ليلحق بي السوء.

بعد عملية القتل عاد بييرو إلى المنزل متحمساً وفخوراً وأخبرني بموت ماركو:

ـ من يمس شرفي لم يُخلق بعد. فتاي الصغير المتعيش على النساء هو الآن في جهنم. هذا العجز الصغير الجميل لابد أنه في هذه اللحظة يحرق في النار. كان مخلصاً مستقيماً نزيهاً حتى اليوم الذي تدخلت فيه اليهودية في أمره. من المعروف أن اليهود هم حثالة الشيطان وقد اتبعت أنتِ خطأ ذويك وحاولت تدمير حياتي وذرها في الهواء. والآن ستدفعين ساعة بعد ساعة، لن أتركك أبداً. جحيمك سيكون كل يوم وسيكون هنا في غرفتك ليل نهار. لن تخرجي أبداً ولن تري النور. لقد بدأت بتنفيذ خطة لمتعة تتصاعد باستمرار. أنتِ لم تري شيئاً بعد.

لم أقل شيئاً وبقيت دموعي في داخلي. شعرت بحلقي وصدري يغصان بهذه الدموع العاجزة عن الخروج. كل جسدي كان يتلقاها ورأيت نفسي أغرق في مياه تعاستي المالحة. تقدمت بي السن

وأمسيت عجوزاً خلال بضعة أيام، انطفأت عيناي وغدا صوتي سجين جسدي، وكما هي الدموع بقي في أعماقي. كنت أشعر بأن كل ما احتفظت به في داخلي يرافقني ويعزيني. لم أعد أميز الأشياء. بييرو كان قد أغلق النوافذ وسحب السجف. خُيل لي أنني رأيته يزيل الرسوم المعلقة على الجدار والثريات، ويسحب المصابيح الكهربائية. كان ينبح دون أن أسمعه، يذهب ويجيء وفي يده سلاح. تحدث عن روبيرتو أخي قائلاً بأنه سيصدر له أمره للعناية بأمري: «يهودي يقتل يهودية، وليست هذه جريمة، إنها تماماً طقس صغير بينما أخ وأخت يتضاجعان حتى الموت، آه، صحيح، أنتما تتضاجعان فيما بينكما!» لم أجب على هذا الهذيان وفكرت بأنني تخلصت منه. وهذه الفكرة منحتني الشجاعة: أن أكون بعيدة المنال. لأول مرة منذ أن تعرفت به شعرت بأنني يهودية، لايهودية بالوراثة بل يهودية عليها أن تقاوم لتنتقم لذويها، كل أولئك الذين ذبحوا على يد الوحوش من طينة بييرو. شعرت أنني عربية أيضاً، ومسلمة ودخيلة وأفريقية وكل من كان بييرو يكن لهم الكراهية والعداء. لم أكن أنظر إليه كزوج مخدوع وغيور، لم أعد أعتبره عدواً شخصياً لي بل عدواً للجنس البشري كله. هذا الوحش غدا في ناظري ضئيلاً، جسدياً صغيراً جداً، دبوساً أسود. برغوثاً، أو هو بالأحرى جرذ سِغبٌ يتضور من الجوع وينفق بتأثير من الطاعون الذي يحمله فيه. نهضت وبصقت في وجهه فانهال عليّ بالضرب على رأسي بالسلاح الذي يحمله ثم أفرغ بعد ذلك خزائني ودروجي من كل ماأملكه: فساتين وحلي وكتب ودفاتر وصور ثم كومها في الحديقة وبللها بالبنزين وأشعل فيها النار. صرخت طالبة النجدة، نهضت مترنحة وتوصلت إلى أن أغادر الغرفة فرأيت الخادمة أمام باب الخروج وبييرو يفتشها ثم لاذت راكضة بالفرار. وتصاعد الدخان في الهواء بينما كان هو مهتاجاً يضيف الأعشاب الجافة إلى الكومة الملتهبة. وفي نهاية الساعة تقريباً لم يكن قد بقي شيء. أما هو فرحل وبقيت وحدي. وكان خط الهاتف مقطوعاً والأبواب مغلقة بمفاتيحها. وبعد

منتصف الليل بقليل عاد يصحبة رجلان أحدهما أمريكي والثاني صقلي، وقال لي:

ـ عزيزتي، أصدقاؤنا يريدون أن يطرحوا بعض الأسئلة عن الخادمة التي أحرقت ثيابك. إنها مجنونة، أليس كذلك؟

ـ بكل طيبة خاطر، هل هما من الشرطة؟

ـ كلا ياعزيزتي. أنت تعرفين أن الشرطة لم تضع قدمها هنا قط. كلا، هما أصدقاء عمل.

الصقلي، وهو شديد السمرة، التفت إلى بييرو وأشار إليه أن يتركهما وحدهما معي، فتراجع، ودفعه الأمريكي خارجاً.

ـ اسمي برونو كاڤالييري وهو بيلّي ستوناكو. إنه أمريكي من الساحل الشرقي، لايتكلم الإيطالية ولكنه يفهمها. حدثنا بما جرى. نحن لانهتم بالألبسة التي احترقت فهذا يحدث حتى لدى الناس الطيبين، مايهمنا ياسيدتي هو موت ماركو، أنت تعرفينه جيداً أليس كذلك؟ لاتقولي لا لأننا نعرف بالتفصيل هروبك معه إلى طنجة وإقامتك في بيت علي. نعرف ما أكلتما وشربتما وكم مرة تضاجعتما ومافعله معك وقاله...

ـ ماالذي تريدان معرفته؟

ـ ماذا فعل ماركو لدى عودتكما من المغرب. لايهمنا معرفة من قتّل من، ولكن مايعرقل أعمالنا.

فهمت أن جماعة هؤلاء الناس لم يكونوا يمزحون. تحققت فجأة من أن بييرو روى لهم الأكاذيب وأن حياته تتعلق بي. وقد أصبح بديهياً أنه من أجل أن يتخلص من ماركو سلمه للشرطة. وكانت المنظمة قد خسرت الملايين وخسرت الرجال وهي الآن معرضة للدمار لأن جريحاً من رجالها وقع بين يدي الشرطة ويمكن أن يتكلم، وكل هذا بسبب انتقام من النوع الشخصي الخالص.

ـ لدى رجوعي من طنجة اختفى ماركو ولم أره بعد ذلك. ظننت

أنه مختبئ. والواقع أن كل شيء جرى بسرعة قصوى. كانت هناك مسألة الاستلام في المرفأ. بييرو نصب فخاً لماركو بسببي، وهذا واضح، والآن أنا خائفة على حياتي وقد حاول فعلاً قتلي، إنه مجنون.

ـ أأنت يهودية؟ سأل الأمريكي.

ـ نعم.

ـ هل تعرفين أن بييرو ديلّا كازا معاد للسامية وأنه عضو في حركة نازية ـ محدثة، فاشية ـ محدثة، سمّي ذلك كما تشائين؟

ـ كلا، كل ماااكتشفته بعد زواجنا أنه لايحب اليهود ولا العرب وقد عذبني بسبب أصولي.

الصقلّي فتح الباب ورأيت بييرو خافض الرأس محاطاً برجلين مسلحين.

ـ أنت ترين أن حياته بين يديك. نحن لانهتم بكونه عنصرياً أو فاشستياً ولكننا نهتم بالباقي، والباقي هو قضية المرفأ. ثلاثة ملايين دولار ضاعت كأنها دخان، هكذا، لأن هذا الأبله مخدوع بزوجته. إنه يستحق ذلك. لقد أحسنت صنعاً بأن جللته بالعار.

ـ لاأعرف تماماً ماجرى. هو الذي أخبرني بموت ماركو. وصل مثل المجنون محتقن الوجه من الغضب وقال لي: «خانني وقضيت عليه».

قادوا معهم بييرو ولم أره بعد ذلك قط.

تلك هي قصتي. رواية حقيقية فيها من الكراهية أكثر مما فيها من الحب. أنت تتساءل كيف انتهيت إلى هنا؟ الأمر بسيط، بعد بضعة أيام من اختفاء بييرو عاد الصقلي لرؤيتي:

ـ يجب عليك ترك المنزل فهو جزء من الأملاك المستردة لمصلحة المنظمة التي كانت قد اشترتها في الماضي. ولاكلمة منك. إذا لم تفعلي فأنت تعرفين القاعدة. إليك بعض المال واختفي.

ماتزالين فتية وجميلة وتستطيعين أن تصنعي حياتك من جديد. من حسن الحظ أن الذين يعرفون أنك كنت زوجة بييرو هم قلة من الناس. لاتسألي عن مصيره ولن يكون ثمة ماتخافين منه، فهناك حيث هو لايستطيع أن يؤذي أحداً.

طلب كوباً من الماء المثلج وذهبت إلى المطبخ فلم أجد فيه الثلاجة فعدت مذعورة بعض الشيء أحمل قدحاً من الماء أخذته من الحنفية.

- آه، لقد نسيت، احتجنا لثلاجتك ولانستطيع ردها ولاتعويضك عنها بثلاجة أخرى طالما أنك سترحلين.

أحببت كثيراً تلك الثلاجة، فهي كبيرة ولم أفهم كيف اختفت. ولقد علمت بعد ذلك أن رجالاً أتوا وأخذوها بينما كان الأمريكي والصقلي يقومان باستجوابي. وبعد أن أفرغوها وضعوا بييرو فيها موثق اليدين والرجلين وأحكموا إغلاق بابها بسلاسل وأقفال ورموا كل ذلك في الخليج، في عرض بحر نابولي. مثل هذا النوع من القتل شائع عند الكامورا فهم هكذا يسوون الأمر مع الخيانات الكبيرة.

قبل رحيلي طفت بهذا المنزل الكبير الشقي الذي لم أشعر فيه بالراحة قط. لم أكن فيه في بيتي. وقد تراكم الغبار على قطع الأثاث والأشياء التي مازالت فيه. تهريب مياه ينطلق في الحمام، مياه في كل مكان، المرآة متسخة تعكس لي صورة غريبة أحياناً مضحكة وأحياناً كئيبة، المطبخ قذر، بعض أوانيه مكدّسة، بعض من الخبز يابس، بعض الفواكه فاسدة عفنة، منفضة مليئة بأعقاب السجائر، صحن متلوم، بعض القناني البلاستيكية، مماسح وسخة، وبدلاً من الثلاجة دهن وسناج، على جدران الممر لم يعد يوجد أية لوحات. حملوا كل شيء، أفرغوا المنزل بينما كنت نائمة تحت تأثير المنومات. كنت قد بقيت في السرير ثلاثة أيام وأكثر من ثلاث ليال. كنت أنهض فقط لأذهب إلى دورة المياه، أكتفي بشرب الماء ولاآكل شيئاً. على كل حال لم يعد يوجد شيء يؤكل. هذا المنزل الذي كان له

أحلى إطلالة على مناظر نابولي لم يؤو فيه إلا الشقاء والغم، ياله من جنون! مجنون غاضب عنصري منحرف قاد ضحيته إلى منزله ولعبتُ أنا كالعمياء هذا الدور. لم يكن بيتاً بل مسرحاً لمأساة غير مستساغة. واجتاز ماركو هذا الديكور وفي عروة سترته زهرة. ورأيته أنا رجلاً مشبوب العاطفة جميلاً معرضاً حياته للخطر في سبيل الحب، في سبيل حب امرأة. ولم يكن أمام حبنا الوقت ليعيش. ثمة خطر يبلل عينيه الفاتحتين عندما ضمني بشدة بين ذراعيه كما لو أنه آخر عناق قبل الموت. قال لي في إحدى الأمسيات بأنه لم يسبق له أن قتل أحداً قط، وأن عمله يقوم على عقد الصلات بين الأشخاص. وفي المقابل اعترف لي بأن بييرو قاتل يشعر باللذة عندما يقوم بالقتل، بل وعندها يعذب ضحاياه قبل القضاء عليهم.

لقد فتح ماركو نافذة على السعادة ثم اختفى. رأيته يمضي، جسده تجتذبه السماء، أذكر ذلك جيداً. كان يضحك وهو يحوم فوق الخليج في رحلته إلى الأعالي التي كانت مشهداً مذهلاً. أقول لك هذا لأنني لاأشك بالسماء. ذهب ماركو إلى هناك وقلبه على راحته ولاأثر للدم علي جسده المغربل بالرصاص. رأيته ينتزع شيئاً لم أدرِ ماهو تماماً، وقد رماه. كان كرة من الكريستال تلتمع في النور. ماركو كان ساحراً، يتلعثم بالكلام ولكنه يحسن القيام بحركات الحب. كرة الكريستال هي في هذا الصندوق. عندما أرغب برؤية ماركو أخرجها وأمسحها وأركّز ذهني وأنتظر ظهور صورة حبيبي الغالي. مات شاباً في عز شبابه فمن الطبيعي إذن أن يبقى شيء منه، مثل رائحته، صورته، رنة صوته وكل ذكريات لقائنا القصير الذي لم يطل به الأجل.

9

ـ مابك مومو؟ لِمَ تبكِ؟ ليس ذلك آخر العالم. قالت العجوز.

ـ أشعر بالضيق لأنهم ألحقوا بأمي الأذى الكبير...

ـ ولكن كل هذا قديم، هو من الماضي.

ثم التفتت نحوي وقالت:

ـ تلك هي المرة الأولى التي أروي فيها قصتي. لقد وجب أن تأتي إلى نابولي وتضيع في هذا النفق، جحر الجرذان، لكي أروي لك قصة حياتي.

مومو نهض أمام المصباح المضيء وأقسم بآلهته أن ينتقم للعجوز:

ـ باسم الساقانا، والسماء المليئة بالنفوس البريئة، باسم الحجر الأسود، بالشجرة ذات الألف عام، أتعهد بأن أعيد إلى أمي الضياء الذي حرمت منه بقسوة، وأن أعيد لها مجوهراتها وملابسها وحتى ماركو إذا كان مختبئاً بالسماء!

ـ شكراً مومو، أنت شجاع.

سألتها أن تروي لنا كيف وصلت إلى النزل.

ـ هذا أيها الصغير قصة أخرى. أشعر بالتعب وأحتاج لأن أبقى بمفردي. اذهب مع مومو في جولة فقد يساعدك هذا في إيجاد إيزا.

كان مطر دقيق يهطل فوق نابولي فمشينا دون أن ننبس ببنت شفة. مومو كان مضطرباً يتمتم بشيء كأنه صلوات أو وعود، خيل إلي أن العجوز انتظرتني طول هذه الفترة من حياتها كي تزيل عن كاهلها هذا العبء، قصة ثقيلة ولكنها ليست تافهة، في نهاية الشارع ثمة محل للبتزا اسمه برناردو تانوتشي مازال فاتحاً وعلى مومو أن ينال منه شيئاً بموجب عادة جرى عليها لأنه استُقبل فيه كزبون مألوف للمحل. ابتلع اثنين من أقراص البيتزا بينما لم أتمكن من إتمام قرصي، وما أن شعر بالامتلاء حتى بدأ يتكلم:

ـ تعرف أيها الكاتب، لقد اكتشفت لتوي أنني عشت سنوات مع امرأة غريبة عني إذ لم أتمكن من معرفة ماذا جرى لها في حياتها. ربما نجحت في هدايتها للإسلام إذ غدت تعرف أن تقول «لاإله إلا الله محمد رسول الله». أعد ذلك أنت أيضاً لأنني أعرف أنك مسلم وإن كنت تتحدث مثل الأوروبيين. عجوزي المسكينة، أمي، عانت الكثير. من المرعب أن الرجل سر مغلق لايتوقع أحد مايمكن أن يصدر عنه، كيف يمكن كشف مريض، مجنون قاتل؟ عندما أفكر بألمها أبكي. من حسن الحظ أننا هنا لنقيم لها احتفالاً، احتفالاً جميلاً جداً لايعرفه إلا الأفريقيون وحدهم. سنحتفل بعيد ميلادها!

ـ أتعرف متى وُلدت؟

ـ كلا، لاحاجة لمعرفة تاريخ الولادة لإقامة حفلة ميلاد.

ـ حسن، لِمَ لا!

ـ سنزرع وسط قرص الحلوى شمعة تصدر أنغاماً موسيقية. جميلة هي الموسيقى والنجوم والشرارات.

ـ أجل، هذا جميل جداً، شمعة تصدر موسيقى.

مومو يبتهج مثل صبي صغير. أراد أن يبتاع الشمعة فوراً وقد عانيت لتهدئة نفاد صبره.

كانت العجوز تنام على أريكتها وفمها مفتوح وهي تشخر.

نقلناها إلى سريرها ففتحت إحدى عينيها وقالت لنا: «شكراً ياأولاد، إذا عاد ماركو أيقظوني».

كنت قد تركت غرفتي في الفندق وعرضت على العجوز أن تؤجرني سرير ميدان فرفضت نقودي. اشتريت مؤونة وهدايا وأزهاراً وخمراً وأمسيت فرداً من العائلة وبعد بضعة أيام تابعت رواية قصتها:

كل شيء له نهاية حتى الجحيم.

نظرتُ للمرة الأخيرة إلى البيت الذي سكنت فيه لسوء حظي وقلت لنفسي: «لن أعود إليه أبداً». رجلان كانا ينتظرانني أمام الباب. أعدت لهما المفاتيح وعرضا عليّ أن يأخذاني عند روبيرتو فرفضت إذ لم يكن في مقدوري أن أعطي لأخي الفرصة للإشفاق على مصيري. ربما ليس هو من صنعه ولكنني تذكرت بخله ولم يكن معي النقود أقدمها له من أجل إيوائي عنده لبضعة أيام. هو من النوع الذي يدعوك إلى المطعم ويطلب منك المساهمة في دفع فاتورة الطعام. في إحدى المرات، وأعتقد أن ذلك حدث في عيد الميلاد، عرض علي الفاتورة بعد العشاء، فدفعت وانفجرت بالضحك. لذلك لن أغامر في محاولة جديدة لإظهار المسكنة والبؤس. على أنه في كل الأحوال كان مريضاً، انفجر عصب في رأسه ولم يعد قادراً على تحريك رجليه. كلا، كنت بحاجة إلى العزلة، بحاجة لأن أغسل جسدي ورأسي وأسكب على شعري مستحضراً خاصاً لتهدئة دماغي. كان الطقس جميلاً والهواء لطيفاً، ورغم التجربة والحزن شعرت بنفسي خفيفة وحرة على الأخص. على أنني لم أصل إلى درجة الاعتقاد بموت بييرو. كنت أتلفت إلى الخلف لأرى ماإذا كان يتبعني فربما كان موته نوعاً من الإخراج المسرحي. كلا، مامن شك، هو قطعاً في قاع البحر في تلك الثلاجة الأمريكية التي أحببتها كثيراً. كم تمنيت أن أنذر أسماك القرش لكي لاتفترسه ليس إشفاقاً عليه بل عليها. ولكن مامن خطر: فالثلاجة مغلقة بإحكام وجسده لن يفلت منها أبداً. في كل الأحوال، وسواء افترسته أسماك القرش أم لا فإن الأمر

عندي سيان. وإنني لأشعر بالعرفان للكامورا لأنها خلصتني من هذا الوحش.

تملكني شعور ملفت للفضول: كنت أمشي في الشارع دون أن أحس بجسدي. حصل لي انسلاخ في كياني فأصبحت أتقدم دون أن أطرح على نفسي الكثير من الأسئلة. أتعثر بالناس دون أن أراهم وشُدَّ ناظري إلى أفق وهمي. قدماي قادتني إلى مكان ليس لي به معرفة ولكنني كنت واثقة من أنهما لاتخدعانني. ربما كان في استطاعتي أن أطلب المساعدة من أصدقاء لو أنني كنت في حالتي العادية، ولكنني منذ أن التقيت ببييرو لم أعد أراهم فأضعتهم كلهم. من الصعب أن يعيد المرء ارتباطه بمعارفه بعد غياب طويل. بعضهم كان قد حاول ردعي عن ربط حياتي بهذا المتشرد والشرير ولكنني لم أصغ إليهم إذ غدوت مسحورة وركبت رأسي في أن أبعد عني كل شك. لابد أنني كنت مريضة. على كل حال أنا لم أعد أذكر الحالة التي كنت عليها في تلك الفترة بشكل واضح، فقد وقعت في الحب ولم أعد أرى شيئاً آخر سوى وجه بييرو المبتسم. أعتقد أننا كلنا في حياتنا نتعرض للحظات غياب، حالة من فقدان الوعي تسيطر علينا وتجعلنا نقوم بأمور نأسف عليها فيما بعد. هذا ما أسميه القدر، والمرء ليس سيد قدره. لست من النوع المتشائم، ولكن ثمة فترة يتحمل فيها المرء الحياة وهو يعتقد أننا نحن الذين قررناها. لقد خبِرت بالرجال: عشاقي كنت أختارهم بقلبي وعقلي، أما هنا فإن العقل تخلى عني. وأعتقد أن الخفة التي عشتها، ذلك الإطمئنان بعد الحرب الذي نسيت فيه أنني يهودية وأن والديّ أبعدا، لابد أن ينتهي بطريقة لامناص منها إلى هذه المأساة. إن المرء لايستطيع العيش وهو ناسٍ لجذوره، عاجلاً أو آجلاً ستمسك بك وهنا يلحقك الأذى.

لست قادرة أن أقول لكم كيف جرى ذلك. ولكن بعد ساعتين من المسير وجدت نفسي عند باب نزل المساكين. خمنت فوراً أمرين: في الطابق الأول يوجد شخص على وشك أن يموت، ثم أدركت أنني هنا سأنهي ماتبقى من حياتي. ستقولون لي هذا سهل، ففي ملجأ ما

يوجد دائماً شخص يحتضر. أجل، ولكن كان لديّ رؤيا، حدس صادق ودقيق، حتى أنني رأيت وجه الميت. ظن الحارس بأنني الطبيب الذي ينتظرون، ولكنه عندما اقترب مني فهم أنني النزيلة الجديدة. قال لي: «تلك هي غرفتك». فتحت الباب ومرت عليّ لحظة تراجع. دفعني وهو يقول: «ادخلي، لن يبقى فيها طويلاً، وهو بحاجة لرفقة أكثر مما مضى». وهكذا استقر بي المقام في غرفة الميت، وقضيت الليل ساهرة عليه دون أن يخطر على بالي بأنني سأحل محله. كان ممثلاً مسرحياً عجوزاً خسر كل شيء بالقمار. اسمه ماسّيمو بيني. رؤية إنسان يموت كانت بالنسبة لي ولوجاً ممتازاً إلى عالم العزلة الكبرى. لم أعترض، قبلت أن أعتني بهذا الرجل الذي يُحتضر بهدوء. بالنسبة لي كان الأمر طبيعياً أن أكون هناك في رفقة واحد يودع الحياة، فالموت يأتي ببطء، يبدأ من أصابع القدمين ويصعد بدون استعجال حتى القلب، ومن هناك إلى الرأس أو بالأحرى إلى النقرة التي تتصلب فيسلم الجسد نفسه إلى الموت. الممثل العجوز مات ميتة أنيقة عند شروق الشمس. أغلقت له عينيه واستدعيت البواب الذي أخذ وقته كله في تناول الإفطار، ونُقل الجسد إلى المشرحة، ثم بدّلت الملاءات امرأتان قويتان، غسلتا الأرض ونشرتا مطهراً في الحمام البالغ الصغر وتمنتا لي سفراً سعيداً وذهبتا. كان معهما الحق في أن تتحدثا عن السفر. لقد شعرت بأنني أسافر نحو بلد غريب بعيد كما لو أنني في مركب. ومن جهة أخرى أحسست بدوار البحر. في الأيام الأولى تقيأت. كنت أمشي متمسكة بالجدران وأقول لكل الناس إن العاصفة قاسية ولايعارضني أحد. الناس غير مبالين فلِمَ يتوقفون أمام امرأة تتألم، حتى أنها ليست في سنهم؟ كنت الأكثر صبا، أو إذا شئتم، أصغر عجوز في النزل.

في الليلة الأولى التفقت على نفسي في التجويف الذي تركه الميت، فالأسرّة في حالة تستدر الشفقة، كلها تَصرف، وقد أقنعت نفسي بأن هذا السرير هو قبر، جحر ساء رسمه، ووعدت نفسي بأن

الأرض ستنغلق عليّ في منتصف الليل. لابد أن الموت شبيه بهذا الشعور حيث لاشيء له أية أهمية. لم أعد أخاف من شيء ولامن أحد. الموت أصبح مألوفاً أمام طعم العزلة الناصل. نمت دون قلق مما يمكن أن يحدث لي. لقد تخلصت، لامشكلة في النوم، أنا التي تعذبت من الأرق والمهدئات قبل وصولي إلى هذا المركب الصدئ. لم تعتورني الأحلام لأن الموتى لايحلمون. عرفت أن البحر هادئ وبدون أمواج، لامع وجميل، على الطرف الآخر من الشارع، وأنه مستعد لأن يحملني بعيداً، بعيداً جداً، عن الأعماق التي يتعفّن فيها بييرو مسجوناً في الثلاجة.

منذ تلك الليلة أمسيت عجوزاً ولم أنقطع عن التقدم في السن. سمنت وصرت أنسى أن أغتسل. أصبحت أرضاً جافة يابسة، قلباً مجروحاً، ماء أُجاجاً، تينة برية لاثمر فيها، كومة من الفضلات، نبتة محروقة. شمشار متروك مصفرٌ من الداخل، ورقة علاها الدهن، كتاباً غير مقروء، صوتاً خافتاً في قاع بئر في بلد ليس له اسم، لحاء شجرة مر، مرآة معتمة، حجراً قديماً نخره الماء والملح، أشنة معلقة بذكريات مليئة بالذباب، ذكريات تعبة من أنها هنا، ملتصقة بامرأة عجوز لم تعد تملك الرشد...

- إذا فقدتِ الرشد فإنني هالك! قال مومو

- كلا مومو، أمامنا أيام جميلة...

- إذن باركيني، ماما، أحتاج لأن أشعر بيدك على رأسي. أشعر بالحرارة، أنا خائف، أنت وحدك تستطيعين تهدئتي.

مومو وضع رأسه على ركبتي العجوز وبكى طويلاً بينما هي تغني له تعويذة أفريقية. كانا مؤثرين. العجوز تلبس مئزر الحمام الأحمر الممزق وثدياها الضخمان نصف مكشوفين، ومومو يداعبهما من حين إلى حين، وفي إحدى المرات رضعهما مثل طفل جائع. كانت العجوز منفرجة الساقين تجفف دموع هذا العملاق الذي يحتاج إلى العطف. كان الصمت ثقيلاً. نهضت باحثاً عن كوب

ماء، لم أكن منزعجاً ولكنني لاأعرف ماذا أفعل. وقد ذكرني هذا بلوحة يمكن رؤيتها في كتاب للتاريخ أعيد نشره: فتاة جميلة مربوطة الشعر وردية الوجنتين، نظرتها متجهة إلى مصراعي نافذة سجن، وهي تقدم ثديها لعجوز، رجل جائع عطِش ذي شعر رمادي وعينين جاحظتين. إنها تشريف للإحسان الروماني: العجوز كان محكوماً بالموت جوعاً في السجن من قبل الرومان، وابنته تزوره كل يوم وتقدم له ثديها لتغذيته.

في هذا العنبر عجوز تعطي ثديها لرجل في كامل صحته، علماً بأنها لاتعرف لاهي ولاهو تلك اللوحة. وقد علمت فيما بعد أنها في اللوڤر وأنها رسمت في حوالى 1630 على يد شارل ميلر المسمى لورين، ونسخه من هذه اللوحة كانت جزءاً من مجموعة لويس الرابع عشر.

هر نفذ إلى العنبر وسمعنا ضجة فئران وجرذ أخذها الرعب. مومو قفز والعجوز كانت غافية، وقد أفدت من ذلك لكي أزلق في أذن مومو كلمة «عيد الميلاد». قام بحركتين أو ثلاث من حركات الرقص، نشف عينيه وأخذ ورقة وقلماً وأشرت إليه بالخروج. جلسنا على طاولة في أحد المقاهي في شارع فوريا. بكثير من الاهتمام سجل مومو مع أخطاء إملائية لاتحصى مايجب أن يشتريه. كتب الكلمات كما يلفظها، ثم توقف:

ـ وإذا دعونا الأميرة مليكة؟

ـ لِمَ لا؟ وجينو عازف البيانو، ومارسيلّو الحداد، وكذلك إيزا نظيرتي في الحب الضائع...

ـ سنقول ذلك لكل الناس، العجوز تستحق احتفالاً كبيراً.

ـ في البداية يجب ترتيب العنبر.

ـ لن ترغب بذلك، حاولت من قبل، إنها تحب فوضاه وتعتقد أن الغبار مؤات لأغراضها.

ـ سنطلب من جينو أن يعزف قطعة موسيقية.

ـ على بيانو العنبر؟ سيسر الجرذان! جينو يعيش عند الحداد. لقد كتب قصته ويبحث عنك ليعطيها إليك لقراءتها، أنت كاتب وستصلح أخطاءه.

من أجل العيد ارتدى مومو البياض حتى ليقال إنه وقع في كيس طحين. اعتمر شعراً مستعاراً متيبساً وتحدث بدون لكنة تقريباً. الأميرة مليكة وصلت مع بلاطها، ويالهن من نساء جميلات. إحداهن تحمل على كتفها ترانزيستور كبير الحجم، وقد تقدمت على إيقاع الموسيقى. جينو لبس حلة مدعوكة أكبر من مقاسه وكان متأثراً، ومنذ أن رآني أشار إليّ بأن أقترب ومد إليَّ دفتراً. كان قد أنشأ بعض الأشياء ولكنني لم أعرف قراءة ماكتب. قال لي إنه بعد السوناتا يوجد نص: «إنها الذكريات التي تُروى وتُذكر وتهدهد الحاضر». أما العجوز فإنها لم تبد دهشة من أن ترى كل هؤلاء الناس يحط بهم المقام عندها. ظنت أن مومو تلقى أوراق إقامته وأنه يحتفل بهذا الحدث. الأميرة مليكة أحضرت صندوق نبيذ، جينو زجاجة شمبانيا. مومو اهتم بقرص الحلوى وبالشمعة التي تصدر الموسيقى، واهتممت أنا بالبيتزا والمعجنات.

كانت العجوز مذهولة فعلاً من هذه الحفلة غير المتوقعة. مومو كان يضمها غالباً بين ذراعيه. كان قد شرب. غنى ورقص، وعندما ثارت عاطفته تذكر قصة العجوز:

ـ أمي اليهودية التي هديتها إلى الإسلام أضاعت حبها ولكنها وجدتني. لقد تبنتني وأنا أحبها، أحبها لاأعيش إلا من أجلها. هي تحبني لأنني أبله. ثم اتسعت العائلة، فبعد عازف البيانو أصبح بيننا كاتب، لم يعد ينقصنا إلا صاحب مصرف، ولكن جماعة المال لايطاوعهم قلبهم لذلك لن يأتوا للانضمام إلينا. ينقصنا مهرج. أنا مهرج، مهرج أسود كامل السواد دُهن بالطحين الأمريكي. ياماماتي،

ياكنزي، ياحياتي، يانفسي الذي يتردد، يامسبحتي، ياجدتي، ياأختي، ياحبيبتي، ياموسيقاي، يانزلي، ياأفريقتي، ياعجوزي، سأجعلك تعودين إلى الشباب، ياحياتي، ياعنبري، يامخدري، ياحلمي... هيا انهضي، تعالي ارقصي، ارفعي صوتك ياموسيقى، يابنات، أنتن يابنات، هيا اركعن أمام قديسة، هيا فتمحى خطاياكن.

جينو صفق بيديه وكذلك الحداد الذي كان ينظر إلى هذا الخليط من الألوان والأغاني. وعند رحيل الأميرة مليكة وحاشيتها انتهى الاحتفال وأخذ جينو يدخن الحشيش الذي جهزه له مومو، ودخنت أنا أيضاً، ونامت العجوز وعلى شفتيها ابتسامة، صحتها كانت سيئة. نظر بعضنا إلى بعض وفهمنا أنها فعلتها تحتها، دفعَنا مومو واهتم بتنظيفها. لم أكن نعساً ولاجينو. لم أر قط رجلاً بهذا الهزال. قمنا ببضع خطوات حول النزل. كان يتمتم لي السوناتا وتخيلت لو أنها تُعزف على بيانو حسن الانضباط. لاشك أنه رغب في أن يحدثني عن حبه لإيدي، وقد قال لي إنه اقتنع بأن الزمن لايقتل الحب.

10

جينو:

كلما مر الزمان كلما فكرتُ بإيدي. إنها ترافقني في كل مكان. قلبي المحطم يحتفظ بصورة هذه الحبيبة، وجسدها وروحها سجناء فيه. مضحك هو الرجل الذي يتحدث بهذا الحديث. إن الرجل العاشق هو دائماً مضحك خاصة عندما يُهجَر، عندما يفقد كل شيء. أنا الفنان أتذوق انحطاطي ساعة بعد ساعة. ليس لي الحق بالانتحاب، لاضرورة لبذل الجهد كي أكون لائق الملبس. أحب النزل كثيراً لأن ما من أحد فيه يريد أن يكون لائقاً. إيدي هنا في رأسي. أمشي في الشارع ويصل بي الأمر لأن أضع صورة وجهها على كل النساء. هكذا الأمر. أشعر أن الرغبة عادت لي كي أفعل شيئاً. مهنتي عند الحداد أفادتني فيداي تعملان وهذا حررني. كنت أفضل نجاراً ولكن ليس لي الخيار فهذا لايوجد في النزل. وماذا أيضاً؟ أنا أحب أن أكون خبازاً في النزل. أعبد رائحة الخبز الساخن. تعرف، عائلتي مقتنعة بأنني مجنون، وهي لم تعد تكلمني فالمرء لايتحدث مع المجانين، وهذا يناسبني لأنني أحب أن أكون وحدي، سيما وأن إيدي لاتحب أن يزعجنا أحد. في المساء بعد الحمام أضع نفسي في السرير في الغرفة الصغيرة التي أعارها لي الحداد. وعندما أشعر أن الوحدة وشيكة أستدعي إيدي. الاستدعاء، تعبير إداري، لنقل إنني أسألها المجيء بإلحاح وحزم والانضمام إليّ. على أن ذلك

ليس سهلاً، فيجب التفكير بقوة، وإغلاق العينين، ومد الذراعين، وهي تأتي مرة من مرتين ولكنها تأتي، أقسم لك، أنت لاتصدقني، أنت مثل عائلتي، لست سريع التصديق. سترى ذلك عندما تغدو عاشقاً مثلي لاشفاء لك، سترى أن الأمور ليست سهلة سهلة. إذا لم تفكر بقوة بها فإنها لاتأتي، هذا طبيعي، امرأة جميلة بهذا المقدار لها مطالبها، إنها لاتنتقل هكذا لمجرد رغبة منك، رغبتك الكبيرة لاتهمها، ماتريده هو أن تأتي لتفاجئك مثل منام، نعم، إيدي تأتي مثل منام. في البداية تراها غامضة وبعد ذلك تتضح وتصبح شديدة الوضوح، صافية صافية. تأتي بعد أن تجتاز المحيطات والمدينة والأنفاق وكل شيء، ثم تنزلق في سريري، نعم، في السرير الصغير جداً الذي يصرف ويصر، تصل إما مبلولة أو متجمدة وأحياناً كلاهما. أنا. لذتي في أن أدفئها، آه، أن أعطيها الحرارة، هذا عظيم، أنا ينبوع حرارة لاينضب، ذلك هو الحب، أدفئها بطريقة منهجية وهي تحب ذلك. أبدأ بيديها أفركهما بيديّ، بعدها آخذ قدميها وأفركهما بنشاط، السرير ضيق، هذا جيد وغير جيد، سرير ضيق يؤمن الدفء، يلتصق أحدنا بالآخر، عاريين، عاريين تماماً، بعد قدميها أهتم بساقيها، أجتازهما صعوداً حتى أقف عند إليتيها، هما طريتان، دائماً طريتان هاتان الإليتان، إليتا إيدي، الأمر هكذا، بالنسبة لي هما نبع ماء صاف وبارد. تستلقي على بطنها وأضع رأسي بين إليتيها وأنفخ، أرسل إليها كل الحرارة التي أحملها فيّ، وهناك أرتاح، وكلما مضى الوقت كلما ازدادت الحرارة وتكاثفت، إنها تعبد أن أنفخ في إليتيها فذلك يضحكها، عندئذ أعمِّق التدفئة بمداعبات. لساني، أترى هذا اللسان الكثير الاحمرار، غدا خبيراً بالمداعبات الحميمية. بعد ذلك أهتم بالظهر وخاصة بالحقوين، هنا ألثمها ميليمتراً بعد ميليمتر، لاأنسى شيئاً، ويطول ذلك ويبطئ، إنه لذيذ. إنها تحب أن يتنزه فمي ببطء على طول ظهرها، وتشترك يداي بهذه النزهة، وما أن تشعر بالدفء حتى تنقلب على ظهرها، هنا أسقط على الأرض، طبيعي، فهنا ليس من مكان إلا لواحد، هي على

ظهرها وتستقبلني بحرارة وحنان وحب. أحب أن أكون فوقها أنظر إلى خضرة عينيها. أواه ياصديقي. امرأة عاشقة هذا يبدو في عينيها، عيناها خطيرتان، أكثر خطورة منك ومني. في إحدى الليالي بكت، نعم، ستقول لي إن النساء يبكين غالباً، نعم، انتحبت، لاأدري لماذا، طلبت مني أن أضمها بقوة وأن أقسم على حمايتها، أنا أقسمت، أنت أيضاً لكنتَ أقسمت، طبيعي، امرأة جميلة تبكي وتطلب الحماية هذا عظيم، أقسمت وتابعت حمايتها حتى عندما كنت لاأعرف مكانها، ذلك هو الحب، أعتقد أن أي جرح يسبب له الأذى، يجب أن يكون حلواً ناعماً، ليس فيه غلظة ولاحركة عنيفة. عندما كنا نمارس الحب كنت أحب أن أكلمها بالبرتغالية. تعلمت منذ زمن طويل جملاً حميمية في البرازيل كنت ألقيها في مسامعها وهي تحبها. هذا يثيرها، ربما كان يذكرها بحب برازيلي أو برتغالي. أعتقد أنها من هناك. إنها تعرف عدة لغات. أنا أردد الكلمات وهي تتلقاها مثل رسالة حميمية، لأن ذلك يسعدها، أصبح هذا طقساً، فما أن أنطق بكلمة فودا حتى تهتز وتجذبني إليها وتأخذني بكاملي. في أحد الأيام، كان يوم أحد، كنت حزيناً عديم النشاط، قلت لنفسي: آه لو أن إيدي هنا، عادت إليّ الحياة، فوضعت نفسي في السرير وأغلقت عينيّ وأخذت أغني واحدة من السوناتا، سوناتاتي المسكينة تضجر بدوني، إن لم أعزفها تهلك وتموت. أخاف من ذلك. سافرتُ في تلك الرحلة، لم أفكر بأن إيدي ستظهر في هذا المساء الكئيب الذي لاأمل فيه، ومع ذلك أتت، نعم هي بذاتها، أنت لاتصدقني، معك حق، إنه أجمل من أن يكون حقيقياً، كل ماأرويه لك لايُصدّق، ولكن افعل ماتشاء، صدق أو لاتصدق، ولكن اعلم أنني أنا أصدقه، والدليل أن لدي آثار ماعشته تلك الليلة، أنظر هنا على عنقي توجد آثار عضة، عضة حب. لن تقول لي إن خُلداً هو الذي عضني أثناء نومي، كلا، أقول ذلك لأن عائلتي وأصدقائي يعتقدون أنني مجنون ولايصغون إليّ عندما أتكلم، يقولون إنهم يشفقون علي، أما أنا فلا أشفق على نفسي إذ ذهبتُ في اللحظة التي اعتادت إيدي غالباً أن

تأتي لزيارتي. أتت وعشنا ساعات رائعة، لذلك أنا في هذا النزل، هي تحب ذلك، يثيرها أن تمارس الحب على سرير بالغ الضيق في غرفة قميئة ومع رجل هزيل ولكنه موله بحبها. ما من سر، النساء يحببن الحب. إذن إيدي وصلت مرتدية فستاناً من الكتان الشفاف. دخلت الغرفة وهي تبتسم ابتسامة عريضة. نهضت وأنا أفرك عينيّ، كانت هي حقاً، لم تكن تلبس شيئاً تحت فستانها، مامن سروال، مامن صدريات، لاشيء، هذا بادٍ، طلبت مني أن أسحب عنها فستانها، ركعت على ركبتيّ ووضعت رأسي على عانتها حيث كانت تنتشر رائحة الحب، يالها من روعة، يالها من رائحة من روائح الجنة. تعرف، تلك الرائحة فريدة في العالم لاتشبهها أية رائحة في النساء الأُخَر، وهي تختلف من امرأة لأخرى. أنت لاتعرف أية رائحة أو أنك تتظاهر بأنك لاتعرف. بالاختصار هي رائحة المسك والجمال والطيبة والحياة، هذا هو الأمر، إنها رائحة الحياة، رائحة السعادة، هذا طبيعي، ليس خدعة، ليست إحدى تلك الروائح المزيفة التي يرشونها على أنفسهم، كلا، هي رائحة الحب، هي وردة مسحوقة بين شفري حيائها تعطي الحياة للحياة، الحياة للحب، إذا أردت أن تسكر من هذه الرائحة فاقترب ببطء من حياء محبوبتك ـ على أن تكون عاشقاً ـ وقدم له التحية باحترام واضعاً قبلة بسيطة وناعمة على البظر على الشفرين وماتلبث أن ترشف مسك الحياة، ولاينبغي لك أن تكون عنيفاً، كل شيء بنعومة ورقة ومحبة. هكذا علمتني إيدي كيف أرتشف السعادة ببطء، قضيت أنا وإيدي ساعات طويلة وجميلة... تريد أن أستمر في روايتي أيها الفضولي الصغير، ماذا تريد، الحب شيء عظيم مرعب، وعندما يكون المرء سعيداً يريد للآخرين أن يكونوا سعداء مثله. الحب يمنحك جناحين وقوة ومقدرة، ويعطيك طبعاً لذة تقوى وتزداد أكثر فأكثر. جسدانا يتحابان، جلدانا صديقان متآمران متكاملان، يسعدان بأن يكونا جنباً إلى جنب. إذا لم تعرف ذلك فأنت لاتعرف شيئاً أيها العجوز، ممارسة الحب هي نوع من الخلق، من الكتابة، من التأليف. لقد

أمضيت وقتاً قبل أن أدرك أن حب إيدي لاوجود له إذا لم أستمر في إبداع موسيقاي، لاموسيقى معناه لاحب، على أن هذا ليس منهجاً ينطبق على الجميع، ماأريد قوله لك هو أن حب إيدي هو الذي كان يغذي إبداعي، طبعاً، بعد كل زيارة منها أباشر العمل. هي ليست موسيقى، إنها أكثر من موسيقى، إنها خلق... هل تصغي إليّ؟ لك هيئة الشارد... بِمَ تفكر؟

ـ أفكر بإيزا. هذا غريب، قصتانا فيهما شيء مشترك هو الحنين، الاختلاف بيننا هو أنك عشت مع إيدي عندما تدعوها إلى جحر الجرذان، أنت تعرف ماذا تشبه. أما أنا فلا أعرف إيزا إلا من خلال الخيال. تكاتبنا وتحادثنا على الهاتف، ثم لاشيء. إنني أبحث عنها، أنا في نابولي من أجلها وبفضلها ولكنني لاأعرف أين هي. لشدة مابحثت عنها انتهيت لأن أخلق لها صورة وأصبحت أعرف كيف هي. إنها أنيقة مثل إيدي، عيناها خضراوان، هي غزالة أكثر مني طولاً بقليل، لها شعر كثيف أجعد، لها ثديان في حجم راحة يدي، بطن مسطح ورائحة من روائح الجنة... لم أعد قادراً على أن أحلم بها وأن أكدس صوراً فوق صور وكأن إيزا ليست إلا كائناً على ورق، كأنها لم توجد قط. على أن صورتها تتضح أكثر فأكثر. إنها تهوى المطلق، وهي متطلبة وجميلة ومسيطرة. لقد أردتها كذلك. اخترعتها، ولكنها في الأساس هي التي أملت علي ملامح صورتها. إنها تسكنني، من الطبيعي أن تتدخل في طريقة تخيلي إياها. لاأدري ماإذا كنت قد عشت حباً وهمياً، ذلك جنون، ينتهي بك الأمر بأن يختلط عليك كل شيء. ولكن عندما أصغيت إليك وأنت تتكلم كنت أرى إيزا، وشعرت بأنني أستطيع أن أدخلها في قصتك، أنت تستدعي إيدي وأنا أرى إيزا، الخلاف بينك وبيني هو أنني ربما لاأجرؤ أبداً على أن أقود إيزا إلى هذا العنبر فربما هي لاتحب ذلك، أنا أقودها إلى أماكن كأنها الأحلام وأن أغصبها على ذلك طالما أنني أحلم بها. وعندما نصل إلى أحد هذه الأماكن السحرية حيث الطبيعة تشاركنا وتتحد معنا أشعر بجسدها يحترق من الرغبة.

جمالها المتغطرس يربكني. تصل دائماً حاملة الحب والرغبة في الجسد. طريقتها في المشي والحديث واللمس كل ذلك يدعوك إلى الحب. تلبس بطريقة تجعل جسدها مبهجاً ومبعثاً للسرور، ترتدي فساتين على قد جسدها وأحياناً شفافة.

ـ ولكن هل أنت متأكد من أنك تحلم؟ من الجنون أن تخلط الواقع مع ماتخترعه. ربما ذلك نوع من جنون الكتّاب...

ـ أواه ياصديقي، من حسن الحظ أن نصل إلى إلغاء الحدود بين النهار والليل، بين الحقيقة والكذب.

ـ اعذرني، ولكنني لست بكاذب.

ـ طبعاً، أنت لاتكذب ولاأنا أيضاً، ولكننا من أحلامنا نشيد بيوتاً مفتوحة مضيافة وندعو أنفسنا إلى هذه المساكن التي كل شيء فيها ممكن الحدوث.

ـ أأنت تقول ذلك بدافع من الحب؟

ـ نعم، هو كذلك، أعرف أننا مجنونان، معك حق، ولكننا نحب جنوننا. بفضلك أتحدث وأقول ماكنت أحتفظ به سراً في خاطري، وماكنت لأجرؤ على قوله للعجوز والاحتمال أقل من ذلك مع مومو. أنت ستفهمني أفضل من الآخرين. أواه ياصديقي، ياشريكي، نحن نحبهن هؤلاء النساء، نعبدهن، نضعهن فوق أمهاتنا ومبادئنا، وهن كلهن يردن ضياعنا، ولكننا نسامحهن لأنهن يحببننا بأفضل مما نحبهن. مارويته لي جميل. إن إيدي هي التي اخترعت رغبتك وغذتها فيك. هي التي جهزتها لك وسددتها إليك وجعلتها تعيش فيك. أنا واثق من أن أمري يشبه أمرك، فـ إيزا هي التي ستضعني على طريق أعظم متعة. لقد عينتها سيدة للحب الذي ليس فيه عوائق، وللذة التي تتربع على قمة رغائبنا. يجب أن أروي لك إحدى لقاءاتنا الأخيرة.

ـ إذن ليس هذا حلماً!

ـ يجب أن تكف عن التساؤل ما إذا كان حلماً أم حقيقة. يجب أن تصدقني كما صدقتك في كل ماقلت. هذا بيننا، إذن هل أنت مستعد؟ مستعد للرحلة؟

ـ أنا دائماً مستعد للإصغاء إلى قصة جميلة. إنني بحاجة لشيء يسعدني ويبعدني عن الحزن الذي أعيشه. هيا، حدثني، أنا مضغ إليك.

ـ كان ذلك في الصيف، في بدايته. أعطتني إيزا موعداً في قرية صغيرة من قرى صقلية في بيت صغير جداً فوق صخرة تطل على البحر يسمونها «بيت البستاني»، لأنها مليئة بأدوات البستنة، إنها غرفة مهملات منسية من المالكين، يمكن القول إنها غرفة بنيت للحب. فيها فراش على الأرض. شمعة في كل جانب من السرير، طاولة صغيرة، آنية للزهور، سلال مليئة بالليمون، نوافذ يمكن منها رؤية البحر بعيداً عن المدينة. كانت تكره نابولي بسبب الضجيج. وصلت في نهاية مابعد الظهر. كنت قد مشيت طويلاً. رأيت إيزا ممددة على كرسي في كامل عريها وهي تقرأ في كتاب ظننته «آدا دي نابوكوف». على الطريق كنت قد توقفت واشتريت سلة صغيرة من التين الطازج يبيعه فلاح في زاوية. آه! التين! إنه فاكهتي المفضلة، أفقد رشدي عندما آكل منه. قل لي جينو، هل تحب فاكهة الجنة؟ إذا كان الجواب نعم فما الذي توحيه إليك.

ـ طبعاً أحبها. عندما كنا صغاراً كنا نسمي التين فرج المرأة فنأكله بشراهة ونحن نفكر عند أكله بأننا نأكل الفاكهة المحرمة لدى المرأة. في الجامعة جعلونا ندرس «الأغذية الأرضية» لأندريه جيد، وقد حفظت عن ظهر قلب قصيدة التين. اصغِ إلي:

قالت: أتغنّى بالتين

خفيّ الصبابات اللذيذة

فإزهاره منطو على نفسه

غرفة مغلقة تقام فيها الأعراس

ولاينم عنها خارجاً أيُّ عطر

وبما أنه لايتبخر منه أي شيء

يتحول العطر كله عصارة ونكهة

حُرِمَ الجمالَ زهراً ولذ طعمُه ثمراً

ثمر ماهو إلا زهرته الناضجة

قالت: هاقد تغنيت بالتينة

فتغني الآن بكل ثمار التين

ـ يالها من ذاكرة! حسن، سأستمر. عندما رأت إيزا سلة التين وضعت الكتاب الذي تقرأه وتقدمت نحوي وقبلتني في عنقي وجرتني إلى السرير. هي التي خلعت عني ثيابي. إنها تملك واحداً من تلك الأرداف، ردفاً متسلطاً متناسقاً فاخراً وعاشقاً. لم آخذها بتذوق بل افترستها، يومئذ لم أستطع أن أقاوم سحق تينة طيبة في تمام نضجها وأن آكلها مثل طفل جائع. وليس هذا إلا المقدمة، سحقت تينات أخرى في صدرها وبين شفتيها، كأنما العسل يسيل فوق جسدها. وسحقت هي كذلك تينات على جسدي وابتلعتها بنفاد الصبر نفسه والشهية نفسها حتى بلغت متعتنا قمتها وغاياتها. كنا على كوكب آخر لانحسب حساباً لشيء، لاشيء له وجود سوانا في هذا البيت الصغير المعلق فوق البحر المتوسط. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أستطيع رؤية ثمرة تين سواء كانت خضراء أم سمراء، نحيفة أو بدينة، قاسية أم ناضجة دون أن أستثار. ولكنني لم أعد آكل التين، ذلك لأن أكل تين ليس فيه إحساس مثل أكل ذرارة من قش. هذه الثمرة خلقت للعاشقين وليست كأية فاكهة يتحلى بها الناس بعد وجبات الطعام.

ـ وهل عشتَ كل هذا؟ أنت تتخيل، ذلك هو الأمر، أنت تخترع، ولكن كما لو أنك عشته. طالما حسدت الكتّاب فهم يتصورون مايشاؤون ويجعلونك تصدق أن هذا صحيح. وماذا يهم، هي قابلة

للتصديق، قصتك، لقد رأيت رؤية واضحة هذا البيت الصغير فوق الصخرة، ورأيت كذلك جسد إيدي وإيزا الرائع، هما أختان توأمان فوق هذا السرير تتزاحمان على دخول جنات النعيم... في زيارة إيدي القادمة سأجرّب التين. ولكن لسوء الحظ ليس هذا موسمه إلا أنني سأعتمد على خيالِ إيدي. النساء لهن من الخيال والجرأة أكثر مما لنا. استمع إلى هذا: في إحدى المرات وصلت إيدي إلى غرفتي وعلى عينيها عصابة من نسيج أسود. قالت لي: «خذني على عماي، خذني بكل قوتك، أحببني دون أن تقول شيئاً، فاجئني، مُرني وأنا أطيع، أنا ملك يديك، في الظلمة لاأرى سواك، اخلع عني ملابسي دون أن تقول ماذا ستفعل، دعني أخمِّن ماذا ستفعل، فاجئني ياحبيبي، أنت حبيبي أليس كذلك؟ أنت جينو الحبيب، أنت جينو عازف البيانو، أنت لصي، أنت قاطع طريقي، ذلك يفترسني، يسحقني ويحررني. ياحبيبي أحب أنفاسك عندما تقترب من رقبتي، أحب شفتيك عندما تحتكان بشفتيّ، جينو تعال وخذني كما تشاء، أنا كلبتك».

نالني الاضطراب. هذه الكلمات التي همستها في أذني جعلتني في حالة من الإثارة الحارقة. جسدها كان ساخناً ولم أكن بحاجة لتدفئة يديها وقدميها، كانت ترتجف من الرغبة. عندما نزعت العصابة عن عينيها اكتشفت أنهما مخضلتان بالدموع، كانت سعيدة، نشوى من الحب الذي حملته إليها وفي الوقت نفسه مغيظة لأنها تعرف أننا قد لانعيش أبداً كزوجين عاديين. آه ياصديقي، أنا لايهمني أن نشكل زوجين عاديين كما يقولون، لقد عرفت هذا إذ كنت متزوجاً، زوجتي شجاعة وحساسة أحبتني كثيراً ولكنني لم أعد أنتمي إليها، أصبحت شقية لأنني كنت أسافر في أغلب الأحيان، سافرت بسبب عملي، مررت بمغامرات صغيرة لاأهمية لها. لقد اكتفيت من هذه الحياة التي تسمى عادية لأن شيئاً كان ينقصني وقد بدا ذلك في موسيقاي. انتهى بي الأمر أن تخليت عن الحياة وعن الحب وغدوت رجلاً مرموقاً وموسيقياً محترماً. ومضت حياتي دون هزّات، دون تموجات، لم أعد أستطيع حتى أن أحقد على زوجتي

لأنها لاتستحق اللوم. ثم أتت إيدي، أرسلها القدر، سدت علي الطريق ووقعت مكتوف اليدين والقدمين في ذلك الحب الذي لاأمل فيه. وقعت في الحب رافعاً نفسي إلى قمم عالية، تمتصني الأعالي، تمتصني إيدي، عدت إلى الصبا وشعرت بأنني غدوت الأفضل، مبدعاً، حراً، مستعداً لأن أذهب بعيداً أي أن أعيش أخيراً. في تلك الفترة التقيت عازف البيانو الكبير أرتورو بينيديتي ميشيل ـ أنجيلي الذي يعزف مثل إله، ولكنه كان ضجِراً ليس في طريقة عزفه انفعال ولامفاجأة. تحدثنا في الموسيقى بينما فكري في مكان آخر، قلت في نفسي لو أنني تابعت عملي بدون انقطاع فربما غدوت مثل ميشيل ـ أنجيلي، ولكن الحب كان أهم. قال لي: «هل أنت عاشق؟ إذا كان الجواب نعم فلا تتردد، عش ذلك الحب وستُحسُن به موسيقاك وستغدو أفضل طالما أن حبك صادق وجميل. وإذا أضعت هذه الفرصة فستقضي الباقي من حياتك في الأسف عليها، والأسف سلبي لايأتي بشيء حسن». واليوم لم أعد شيئاً أو أنني تقريباً لم أعد شيئاً. أقول هذا لأنني رغم كل شيء نجحت في تأليف سوناتا، لاأدري قيمتها ولكنني ألفتها بروحي بكياني بأوتار ذكرياتي الممزقة. لاأعرف أين هي إيدي في هذه اللحظة التي أحدثك فيها، لقد رحلت وتركتني. ألمي أمسى أكثر قابلية للاحتمال بسبب قدرتي على التخيّل. مايؤلمني أيضاً أن إيدي لم تعطني إلا القليل القليل من الوقت الذي لم أنجح خلاله في أن أقدم لها كل ماتستحق. رحلت وتركتني أعيش في أوهامي، أعيش مع أشياء مجرّدة، محروماً، مهجوراً، هالكاً، أجل أنا هالك أتظاهر بالحياة. أضعت كل شيء وأنا خائف من أن أفقد الذاكرة. إذا حدث لي ذلك فإنني أنتحر. نعم، ليس من سبب للحياة، ولكن هل سأتذكر على الأقل وعدي بأن أنتحر إذا هجرتني ذكرياتي؟. يجب أن أكتب ذلك هناك على قميصي، أو أنك ستقوم أنت بتذكيري، أتعدني بذلك؟ قل إنك تعد بتذكيري... في النزل أدركت كل مافقدته بسبب خطئي. كنت حذراً متمهلاً كثير الاحتياط، أردت أن أداري هؤلاء وهؤلاء، بينما الحب إعصار،

عصفة رائعة لايتطلب إلا إعدادات صغيرة. ولأن إيدي لم تشأ أن يقع حبنا في مستنقع من الصغائر فقد اختفت. إنني أفهمها. معها كل الحق، وهنا شقائي. الآن أنا مستعد، هجرت كل شيء، تركت كل شيء على حاله وأشعر بأنني نظيف. إيدي تستطيع الرجوع، الرجوع الحقيقي. أشعر أن الموسيقى استعادتني. لقد فهمت أخيراً أن الحياة ليس فيها مايستحق المشاهدة مع هذه التنازلات الحقيرة صغيرة كانت أم كبيرة، مع هذه التسويات التافهة التي ترفع دعائم النفاق بين الناس، والأسوأ من ذلك أنهم بها راضون. لايضيرهم أن يعيشوا حياة ضيقة صغيرة ليس لها مدى، بدون جنون بدون شِعر، النزل مدرسة جيدة أصبحت فيه إنساناً آخر. استغرقت وقتاً طويلاً لكي أجتاز هذه الصحراء أو هذا النفق. أقول «نفق» لأن أقبية النزل في ظلمات حالكة، فالأطفال كسروا المصابيح، والمشكلة هي أن الزمن قام بعمله. في نظري إيدي هي دائماً نفسها، لاتتحرك، خالدة، تمثال للزمن المتوقف الذي لاينتظر إلا أغنية، سوناتا جميلة لكي تستيقظ، لكي تفتح عينيها وتتقدم نحو ذراعيّ الممدودتين. أجرؤ على الاعتقاد أن إيدي هي دائماً هنا، دائماً مشرقة باهرة. ذلك الحب هو نعمة أعيش في ذكراها، على أملها. فلتأتِ، فلتُعد، فلتظهر نفسها، فلتغطيني بردائها كما لو كنت أشعر بالبرد، فلتقدم لي الشراب. سأجثو على ركبتيّ وأنتظر أن يأتي الفرج ليقدم لي الينبوع، ينبوع حب يقول لي إنني حي، حي مع موسيقاي، مع أهوائي، مع أحلامي في أن أنزل إلى الشارع وألعب لعبة الاستغماء وراء موكب لراهبات بسيطات ضالّات أسكرتهن الرغبة في ممارسة الحب في الكاتدرائية الصامتة مع كل الجنون الذي يرافق مثل هذا الانتظار الطويل.

كلما كان جينو يتحدث عن حبه لإيدي كلما عرفت نفسي هذيانه وهلوساته. ربما كان كل عشاق العالم يتحدثون اللغة نفسها ويتحمسون للمحاسن نفسها ويحتفلون بالطقوس نفسها في الجسد نفسه. جينو ممسوس مثلما أنا ممسوس، عدا أنني لم أعش أنا حياة

جسدية. ومنذ أن ركن إليّ عدت أفكر بإيزا بتكثيف جميل. وجه الحب هو انفراج في كل مكان، مرج مفتوح على السماء، بحر لامع أملس يعطي لعيني الحبيبة زرقتهما أو خضرتهما.

أعرف أنني سأقضي الليل في انتظار إيزا كما ينتظر إيدا جينو المسكين. هو مقتنع بأنها تأتي لزيارته لقوة مايفكر بها، أما أنا فأبقى رائق الفكر، أو أعتقد بأنني سأبقى رائق الفكر وأنتظرها بدون أوهام. ربما كان من حسن حظ جينو أن يصدّق أحلامه، معه حق، فبذلك يغدو أقل تعاسة. فهمت وأنا أنظر إليه أن الحب هو دمار لذيذ، تلذذ بالموت، بالسقوط في العدم بعد أن غدا رفيقاً للذرى والقمم.

أخذته من ذراعه البالغ الهزال وقمنا ببضع خطوات في اتجاه مدخل النزل، فجأة توقف ونظر إليّ في عينيّ وقال:

ـ إنها قصة رجل مسكين هبطت كتفاه وانحنى ظهره وامتلأ رأسه بالأحلام وحطام الأحلام حتى الانفجار. أنا ذلك الرجل كما سأصبح في أحد الأيام كل الرجال.

رافقته حتى غرفته. روى لي قصة أمه التي ماتت من الحزن بعد أن سحرها أحد مشايخ أثيوبيا. أخرافة جديدة؟ لاشك، جينو نفسه قصة خرافية، قصة تنسكب في قصة أخرى وهكذا إلى مالانهاية.

في العنبر وجدت مومو نائماً على الأرض عند قدمي العجوز التي تشخر كالعادة. كان ثمة هر أيضاً وكلب وأرنب. ودون أن أثير ضجة تمددت على سرير المعسكر وأخذت أفكر بإيزا. صور تتالت ببطء أمامي. كانت عارية فهي تعبد أن تبقى عارية. طلبت منها أن تتغطى فرفضت وغضبت:

ـ جسدي كامل التكوين وأجده جميلاً فلِمَ أستره وخاصة عندما تكون هنا؟

ـ ولكن ياحبيبتي شيء من الغموض لايؤذي حبنا.

وافقت برأسها وارتدت غندورة مغربية. صرت أخمن معالمها وأثارني ذلك كثيراً.

ليلي كان مترعاً بها.

وعند الصباح أعادني صراخ مومو إلى الحقيقة الحزينة جداً.

أعدت التفكير بجينو والمطابقة الغريبة بين إيدي وإيزا. فعندما تحدث عن إيدي تخيلت إيزا، رأيتها مهزوزة غامضة. كان يصف إيدي بالملامح نفسها التي كنت أستخدمها في رسم صورة لإيزا. لقد وجد جينو راحة وحتى توازناً في عالمه الخيالي، اكتفى بالذكرى ولم يعد يتألم. بل ربما انتابه الخوف ولاذ بالفرار لو أن إيدي ظهرت حقيقة في هذه الغرفة القميئة الخالية من أية وسيلة من وسائل الراحة. بعض الناس يكتفون بتغطية الأشياء ويتدبرون أمرهم على ألا يواجهوا بعد ذلك الحياة.

خفت أن أصبح مثل جينو وشعرت أنني على الطريق. أتيت إلى نابولي لأدبج كتاباً وخاصة لكي ألتقي بإيزا، وهاأنذا أتذوق هذه الحياة في العنبر مطابقاً نفسي أكثر فأكثر مع قصص مومو والعجوز وأغراضهم. يجب أن أعود إلى العمل، أن أتحرك، أن أستيقظ. ربما كان من الأفضل أن أعود لاستئجار غرفة في فندق صغير طالما مازال معي نقود. وأدركت أنني لم أغتسل منذ العديد من الأيام، ونسيت أن أحلق وأن أغير قميصي. منحدر خطر. شممت رائحة نتنة فاعتقدت أو جعلت نفسي أعتقد أن العجوز هي التي أنتنت، والواقع أن رائحتنا كلنا كانت نتنة.

أول قرار: أن آخذ حماماً ثم أصعد المنحدر.

والقرار الثاني: أن أعود إلى الكتاب، فالمحافظة لم يعد عندها شيء من أخباري. ربما نسوني، لابد من الانعزال، مغادرة النزل، والقيام ببعض التسلية.

والقرار الثالث: أن أذهب للبحث عن إيزا بطريقة أجدى، أن أستعلم عنها بجد.

والقرار الأخير: أن أتحدث مع والدتي التي تعيش وحيدة في مراكش وأطمئنها عن صحتي وعملي وأقول لها ماذا أفعل هنا وأطلب منها الرضا والبركة. فعندما أقضي مدة طويلة دون الحصول على أخبارها أشعر بأنني تُركت لنفسي دون حماية. لم أعد أرى يدها فوق رأسي. لم أعد أسمع صوتها مصعّداً إلى السماء. عندما سأراها أحب أن أجلس بجانبها وأصغي إليها وهي تمدني بآخر الأخبار عن العائلة والجيران. إنها تملك ذاكرة طيبة، حضور ذهن ممتاز رغم بلوغها الثمانين. تبدأ دائماً بالدعاء إلى الله واستغفاره عندما تفلت من لسانها فكرة سيئة. لاتعرف القراءة والكتابة ولكنها تعرف الكثير من الأشياء. تقدم لي خليطاً من الأخبار: «بقالنا بورجلة الأعرج تزوج منذ فترة وجيزة الخادمة التي تشتغل عند الجيران، تلك التي تغلُّ دائماً إلى دكانه، أنت تعرفها، البنت التي عندها عاهة في عينها اليمنى، تلك التي تنظر إلى جنب وهي تتحدث إليك. خادمة المنزل التي تعمل عندنا، تلك التي تعمل هنا منذ عشرين سنة فقدت واحداً من أسنانها وهي تأكل فولاً محمصاً، وهذا سيعلمها ألا تعتبر نفسها صبيّة. عمك عزيز زوَّج بنته البكر، تلك المدللة جداً والتي أفسدها الدلال إلى طالب مفلس، ولدت له صبياً وأُجبر الأهل على تزويجهما تفادياً للفضيحة والعار. أخوك محمد يعمل كثيراً، أصبح جاداً جداً ويضحك أقل من ذي قبل، بدّل سيارته، كل نقوده تذهب في دراسة أولاده الذين يفضلون الجامعات الأجنبية على جامعات البلد. يبدو أن هذا أفضل. زوجته ستذهب لقضاء العطلة الصيفية في إسبانيا ولاتحب مراكش في الصيف، تقول إنها حارة جداً، إنها تبالغ. الجار الذي يسكن في آخر الزقاق المسدود ذهب إلى الحج في مكة، التقى هناك بسنغالية فتزوجها على الفور. زوجته المراكشية أقامت مأتماً قائلة بأنها ضحية الحريق الذي حدث في مينان. الحياة في غلاء مستمر. وأنت ماذا تفعل من خير؟

أخبرني. أولادك هم في الغربة على مايبدو، وزوجتك هل تساعدك، هل تشتغل؟ لِمَ لاتأتي لرؤيتي والبقاء عندي قليلاً؟ هذا مفيد. ولكنني لاألح، أعرف أن الحياة صعبة. كل النساء يفعلن الشيء نفسه، منذ أن يأخذن الزوج يحتفظن به لهن، ينسين أن له أماً. الحياة الحديثة تتطلب ذلك. لست غيورة، فليحمني الله من هذه الخسة! ماأريده حصراً هو القليل من الصحبة، أكثر قليلاً من التقدير، كل أبنائي وعندي ستة منهم ابتلعتهم زوجاتهم، فهل تجد ذلك طبيعياً؟ حسن، لقد تحدثت طويلاً، أسأل الله أن يحرسك من الأعين الشريرة ويبعدك عن طريق محبي الأذى والمنافقين والأشرار والأعداء الذين لاتعرف وجوههم، اذهب، فكّر فيّ وفكّر كذلك بعناية بنفسك...».

أجل، يجب أن أُعنى بنفسي. هذا أيضاً قرار ينبغي أن يكون دائماً. أنام وحدي، نعم، أحب عزلتي. إيزا قد لاتفهم ذلك، لم أكتب لها عنه. في الوقت نفسه أحب، في منتصف الليل، أن أمد ذراعي وأضع يدي على ردفي زوجتي الحارقتين.

عندما سأرى إيزا سأقوم باستثناء. سننام سوية وسأضع يدي على جلدها الذي هو في لون عسل الشتاء، في لون القرفة الصيفية، أنظر إليها ثم أداعبها.

هذا قرار: أن أضع النظام في حياتي وأن أبدأ بإيجاد إيزا، وإذا لم أفعل سأغدو عجوزاً مختل العقل مثل جينو.

11

بينما كنت في أحلامي هزني مومو بعنف. كدت أقع من فوق سرير الميدان. كان يلهث ويستحثني على النهوض:

ـ تعال بسرعة، العجوز، ماماتي ليست بخير، مريضة، عندها سوء تنفس، يجب أن نفعل شيئاً، هيا بسرعة، بسرعة...

العجوز كان لديها نوع من أزمة ضيق تنفس «آزم ASTHME». بعصاها أشارت لنا إلى باب الخروج. أجلسناها في مقعدها المتحرك وأخرجناها إلى الشمس. لم تعد تتكلم. عيناها مخضلتان بالدموع بسبب الجهد الذي تبذله من أجل التنفس. ولم تعد ترانا بهما. مومو دفع المقعد وتبعتهما. وصلنا إلى الساحة الصغيرة مقابل مدخل النزل. هناك كان يوجد دائماً الكاتب المتسكع محاطاً بكلابه. كانت تتنفس بصعوبة. الكاتب المتسكع نهض وفحصها كأنه طبيب، نبش في واحد من أكياسه وأخرج منه أنبوب ڤانتولين تنشقت منه. دفعت بتنهيدة ارتياح كبيرة وقالت لنا:

ـ هذا أفضل، أعيدوني إلى غرفتي.

وهي ذاهبة قالت للمتسكع:

ـ أندري، لِمَ لم تعد تأتي لزيارتي؟

ـ احتفظي بالأنبوب ذكرى من أيامنا القديمة الطيبة.

أندري كان شاعراً فرنسياً عرفته في إحدى سهراتها التي

تقيمها في دارتها في بوسيليبو قبل التقائها ببيبرو. وقد عشق إيطالياً جميلاً زير نساء، ولكن هذا الإيطالي فضّل عليه دوقة نمساوية واسعة الثراء ومشهورة. ومنذ ذلك الوقت عاش أندري في هذه الساحة مع كلابه. على كل حال هذا مايرويه لأولئك الذين يهتمون بأمره. «ولكن المرء لايصبح متسكعاً، قالت لنا العجوز، بسبب حب فاشل، لابد أن في الأمر شيئاً آخر». لم ترغب في أن تروي لنا قصته كلها، اكتفت بالقول إن أندري كان شاعراً مجيداً، رجلاً صالحاً ويستحق أن يعيش حياة سعيدة.

حالتها الصحية أقلقتنا. تنتابها أكثر فأكثر لحظات من الغيبوبة، تنام في عز النهار أو تبقى مركزة بعينيها المفتوحتين على نقطة في العنبر. مومو انتابه الخوف. وفي أحد الأيام أتى بشافٍ أفريقي، عجوز طويل القامة يقوم بإشارات واسعة من يديه وذي مظهر مؤثر. ماكادت تراه حتى ابتسمت، وهو شيء لم يحدث منذ زمن طويل. الشيخ المرابط ـ هكذا قدمه لنا مومو ـ جثا، وضع يديه المضمومتين على رأس العجوز وأصغى لما يقال في داخله، حتى لَتقول إنه يفحص بطيخة حمراء (ليعرف من نقرته عليها مقدار نضجها). وفي نهاية فترة طويلة بقينا خلالها صامتين، نهض وقال تشخيصه:

ـ إنها مسكونة.

ـ ممن؟ قال مومو.

ـ من أرواح شريرة تمنعها من التنفس.

ـ أية أرواح؟

ـ لاأدري. ماسمعته واضح، أنا شكليّ دقيق: لقد تلقت إشارات سلبية جداً، كأنها موجات. إنهم يعملون. إذا لم نفعل شيئاً سينفذون إلى الدم ويسممونه.

ـ ماالعمل؟

ـ مومو، دعني أفكر، سأفحصها من جديد.

نهض حتى احتك رأسه بالمصباح، خطا بضع خطوات ونظر إليّ بتركيز، ثم قال وهو يستدير إلى مومو:

ـ هو أيضاً.

ـ هو أيضاً ماذا؟

ـ مسكون. انظر إلى عينيه، إنهما ليسا عينيه.

ألصق أذنه بصدغي:

ـ هذا أكيد. ليسوا الأرواح أنفسهم. عنده الأمر مختلف. هو مسكون بشيء جميل. لاأعرف ماهو، ولكنه ليس مستقلاً بنفسه مالكاً أمره. حسن. لنعد إلى السيدة. يجب استئصال الشر الذي استقر فيها. مومو، يجب أن أفصدها. أتظن أنها ترضى؟ امرأة بيضاء لاتحب أن يكون في جسدها آثار جرح في الجبهة. سلها.

العجوز بادرت بالكلام:

ـ في الحالة التي وصلت إليها جرحٌ أكثر بِمَ يضيرني؟ لاأهتم. أليس كذلك يامومو، أنت أيضاً لاتهتم بأن تكون لك ماما مليئة بآثار الجروح؟

الشيخ المرابطي أوضح:

ـ بلى ياسيدتي، ولكن هنا سيكون الجرح جسدياً تمكن رؤيته، وهذا ليس جميلاً وخاصة مع امرأة لها هاتان العينان الجميلتان.

ثم أضاف وهو مستدير نحوي:

ـ أما أنت فعند أول فصد سيظهر هذا الشيء الجميل لأنه لن يحتمل رؤية هذا الدم السائل، ربما هو من حظك، فذلك سيجعله أو سيجعلها تأتي حيث كان أو حيث كانت، هو أو هي ستشعر بالحاجة لأن تأتي أو لأن تعود إليك. لاأعرف ماهذا، ماإذا كان حيواناً أو كائناً بشرياً أو قطعة من الموسيقى أو صلاة أو ذكرى أو بكل

بساطة نذراً عليك أن توفيه. إنه شيء، في اعتقادي، يحطم لك القلب والكبد.

حذّره مومو:

ـ انتبه، ماما هي أميرة، ملكة، هي جوهرة، مليئة بالنور والألم، وكل هذا قابل للتلف، إذا فصدتها تعرضت لأن تعطيك كل دمها وتموت. لست كبيراً بما فيه الكفاية لأعيش من دونها.

ـ ولكن أيها الغبي، لقد نسيت ثقافتك وأصولك. إننا نسحب منها دمها الفاسد لكي تعيش. انظر إلى جبهتي التي خططتها التجاعيد، وهذا ماجعلني صالحاً وفاضلاً. لو أنني احتفظت في داخلي بكل فظائع الحياة، بكل الأشياء الشريرة التي فعلتها بدونٍ وعي مني أو برغبتي لأمسيت اليوم متشرداً متسكعاً حثالة أو رجلاً يأكله المرض.

ـ ما الذي فعلته من سوء؟ صرحت العجوز التي أرهقها غرور المرابطي.

نظر بعضنا إلى بعض ونحن صامتون. فتح مومو الثلاجة وأعاد إغلاقها لأنها فارغة.

ـ سيدتي، الشر ليس أنت، هم الآخرون من ألحقوا بك الأذى. أشعر بذلك وأسمعه ويجب أن أتدخل. لقد احتفظت بكراهيتهم في نفسك ولم ترمها إلى الخارج. إذا كنت لاتريدين أن أتدخل فإنني ذاهب.

انحنى ليلتقط صندوقه الصغير العتيق المصنوع من جلد مزيف، ركز نظره فيّ وقال:

ـ أنت، حالتك ليست خطيرة. إذا أردت أن تخرج ذاك أو تلك التي تسكن فيك فيكفي شق صغير، وما أن تسقط القطرة الأولى من دمك سترى أية طريق ستسلكها لتجد ذلك الكائن.

ـ لم آخذ الشافين قط على محمل الجد، ولا المبصِّرين التقليديين منهم والمحدثين، ولامفسري الأحلام، ولا المشعوذين ذوي القميص

الأبيض أو الغندورة الزرقاء، ولم أعتقد قط بقصص المرابطين، القديسين منهم والقديسات، المجانين والمتسكعين، الشحاذين والأدلة، لاعبي الورق ومرقصي الأفاعي، بائعي الأعشاب العجيبة، ولا المهرجين الذين يتلاعبون بسذاجتنا! والآن قل لي ماهو اسمك وماهو أصلك.

ـ هذا بسيط. اسمي مامادو ديالّو تامي ولد الحاج كاراسيكلوانتالجيكا المسمى المرابطي مامادوديا، ولكي تلفظه بشكل أفضل هو ماديا. وُلدت مباشرة بعد الحرب في أحد أيام الجمعة في حوالى الساعة العاشرة في القرية الأكثر فقراً في المقاطعة والتي تقابل جزيرة غوري عندما تنظر إليها من الجهة اليسرى مائلاً قليلاً إلى اليمين دون أن تسقط لأنك لن تكون الأول في كسر وجهك لشدة ماتريد تركيز نظرك في النقطة الصغيرة جداً التي رأيت فيها النور بفضل الله، لاإله إلا هو، وبفضل نبينا محمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم وعلى كل صحابته من المسلمين في كل أنحاء الأرض. هل أنت راض؟

ـ كلا، ماذا تفعل في نابولي؟

ـ عندما تنتقل القرية يتبعها شيخها المرابطي. هذا طبيعي. قرية بلا مرابطي ليست قرية، ومرابطي بلا قرية لاوجود له. أخواني هنا، ومن الطبيعي أن أرافقهم لأخفف عنهم آلامهم. ماقولك في ذلك؟

ـ ما أنت إلا طبيب دجال. مادمتُ هنا لن أدعك تلمس هذه السيدة. تلك القصة عن الدم الأسود والفصد، كل ذلك من الفولكلور، من التقاليد الشعبية، نحن كلنا مسكونون وهذا بديهي.

التفت المرابطي إلى مومو، أخذ حوائجه وذهب بدون كلمة، وقد أزعج ذلك مومو، أما العجوز فكانت تضحك بلطف فهي لاتريد أن يلحق بها الألم.

12

نسي المرابطي جريدة نابولي «الصباح» التي كانت موضوعة فوق إحدى العُلب. توصلت العجوز لأن تقرأ عنواناً: «لقاء حول الإسلام والغرب». كررت الجملة وعلى وجهها ملامح التفكير، ثم أشارت إليّ بطرف عصاها:

ـ هذا يخصك، أو لابد أنه يخصك. الإسلام، الغرب، صدام الثقافات، العصر الذهبي للعرب، انحطاطهم، النفط، الحرب، كل هذا هو مجالك تقريباً، أليس كذلك؟

ـ ليس بالضرورة. هذا النوع من اللقاءات لايهم إلا الذين ينظمونها. إنها عموميات غامضة تعطي الفرصة لبعض المثقفين المدَّعين كي يخترقوا أبواباً مفتوحة. الإسلام يعني لهم ويفعل مايشاؤون. الدين هو غالباً الكل ونقيض الكل. يجب على كل إنسان أن يغرف منه عسله، لذلك يدوم آلاف السنين. الغرب هو ماذا، هو من، أهو الشمال، أهو الشرق، أهو جزء من الجنوب؟ ثم إنني لم أعد أحتمل عويل أولئك الذين ـ من أجل أن يُعزّوا أنفسهم ـ يعودون إلى موضوع أن العرب عرفوا عصراً ذهبياً في الأندلس وأنهم أدخلوا إلى الغرب المسيحي فلسفة الإغريق والجبر والطب. كفى! يكفي البكاء على حظ العرب والمسلمين. لقد عرفوا عصراً ذهبياً واليوم هم يعرفون الانحطاط. من يريد أن يكون اليوم عربياً. ليس عليك إلا

أن تنظر إلى آلاف الشباب من العرب الذين يعرضون حياتهم للخطر لكي يدخلوا سراً إلى أوروبا بحثاً عن أي عمل. إنهم مشبوهون ما أن يظهروا على حدودكم، لكي آتي إلى هنا انتظرت شهرين قبل أن أحصل على تأشيرة الدخول، وقد حصلت عليها لأنني أملك دعوة من محافظ نابولي. وحتى في مطار نابولي جعلوني أنتظر مع السيريلانكيين والأثيوبيين والناس المهانين. قالوا لي: «تأشيرة الدخول ليست حقاً!» كلا لاأحب البكاء على الماضي. صورتنا لم تعد مقبولة، دولنا هي غالباً دكتاتورية، لسنا جادين. إنني غاضب لمعرفتي أنه لاشيء يمكن أن نفعله. نفط الأمراء لاينفع إلا الأمراء والمصارف الأمريكية، أخيراً، ليس لي رغبة في ذكر كل هذه المآسي، وزيادة على ذلك أن هذه اللقاءات لاتخدم شيئاً. هي غالباً نوع من الثرثرات...

ـ ثرثرات تفسَّر غالباً بصورة حسنة!

ـ وما المردود؟

ـ المردود هو التالي: عندي حدس قوي جداً بأن حبك وجميلتك التي أتت بك إلى هنا، تلك التي تبحث عنها دون أن تعرف وجهها بل تعرف صوتها، أعني إيزا، ستكون غدا في «قصر البيضْ» لتترجم اللقاءات. إنه حدس، يمكن أن أكون مخدوعة، ولكن اذهب إلى هناك فلن تضيع شيئاً وليس عندك ماتفعله.

ـ وعندئذ؟

ـ أقترح عليك أن تذهب وتتسكع هناك فالبحر جميل المنظر من شرفة القصر.

ـ وكيف أعرف إيزا وماذا عليّ أن أفعل إذا كانت حقاً هناك؟

ـ ياصغيري، لستُ شيخاً مرابطياً ولا أُدعى مامادو ديالو... الخ، ولكن لدي حدس، هذا كل مافي الأمر. كيف تلقاها؟ هذا بديهي: صوتها، نعم صوتها سيقودك إليها.

ـ نعم، صوتها...ولكن...

ـ اصغ إلي جيداً: اذهب إلى المؤتمر وافتح عينيك على سعتهما، واختر أجمل النساء بين الموجودات وستكون هي المرأة التي تحملها فيك منذ أمد طويل. قل لنفسك إنها هي وستكون هي!

وكالمصادفة المسرحية دخل جينو وفي يده ليمونة كبيرة.

ـ اعذراني، جفاني النوم. سمعت أنكما تتحدثان عن مرابطي، حتى أنني رأيته يمر ضخماً مخيفاً، فهل ترك لي عشبة حلوة تطرد عني الأرق؟ ثم سمعت أنكما تتحدثان عن إيزا وأنها قد تكون في هذه النواحي، قل لي أيها الكاتب، هل ستمضي للقائها؟

ـ لاأعرف بعد.

ـ سأرافقك. سيكون هذا يوماً عظيماً لك ولي. سترى كي هي جميلة. الأمر بسيط، من أجل أن تعرفها ليس من مشكلة، الأكثر أناقة هذا كل شيء. لن تتعرض للخطأ. إذا شعرت بأي تردد فإنني هناك لمساعدتك لأنني أعرفها!

ـ كيف هذا، أأنت تعرفها؟

ـ أعني أنها تشبه إيدي، إذا كانت أجمل امرأة في المؤتمر فليس من شك إذ لايمكن أن تكون إلا إيزا أو إيدي، هل أنت موافق؟ أنا واثق أنك أنت أيضاً تعشق إيدي وأنك تخلطها مع إيزا وهذا لايزعجني.

ـ لنقل إنك قررت أن إيزا تشبه إيدي، فهذا معناه أن هذا البيت بيت للمجانين. ولكن هذا حسن، على الأقل لأنه لايوجد هنا شيء معقول.

ـ اسمع، أنت تحب إيزا وأنا أحب إيدي، وعندما أتكلم عن إيدي تتخيل أنت إيزا، هذا بسيط، أليس كذلك؟

مومو بدا في مظهر جميل في لباسه التقليدي حتى ليمكن القول إنه أستاذ في الجامعة. يمشي بأناقة وثقة. تبعناه جينو وأنا، وقد قدم نفسه على أنه محمد سان من جامعة دكار. ولم يكن لمنظمي

المؤتمر أية معرفة بهذا الاسم ولكنهم تأثروا بشخصية هذا الأستاذ الذي يلبس البوبو. أما نحن فقد جلسنا بين الجمهور ووضعنا السماعات على آذاننا. جينو كان يشم الليمونة التي يحملها بيده من حين إلى حين وهو متعب تظهر على وجهه آثار الأرق. كنت قلقاً وقلبي يخفق بشدة قال لي جينو إنه متأثر وإنه عاد إلى شبابه من فكرة أنه سيلتقي وجهاً لوجه بشخص يمكن أن يذكره بإيدي. أما مومو فقد لعب دوره كأستاذ. بكل وقار كان ينظر إلينا وعلى فمه ابتسامة تواطؤ مقتنعاً بأن هذا اليوم هو اليوم العظيم ومتأكداً من أن إيدي وإيزا هما شخصية واحدة أطلق عليها إيزائيدي، وقد تركناه يقول ويفكر كما يشاء.

خطابات الافتتاح لم تكن لها نهاية. ثرثرات عن أشياء عامة، عموميات لاتعني شيئاً، كلمات بعد كلمات... ما أقل اهتمامنا بما يقال. أدرنا أزرار جهاز الترجمة بحثاً عن صوت إيزا. جينو كان يعتقد أن إيدي تقوم بعمل إيزا نفسه. ذكّرته بأنه قال لنا إن عملها هو في دار نشر للموسيقى ولكنه أصر على أنها مترجمة. في الجلسة كان يوجد الكثير من الرجال وقلة من النساء، على كل حال ليس ثمة نساء تذكر أناقتهن ولطافتهن بإيزا.

ـ إذا وُجدت هنا فإيدي موجودة أيضاً. هذا حدسي. أنا أيضاً لي حدسي.

فجأة لم أعد أذكر صوت إيزا، ذلك الصوت المميز، الصوت الذي تبعني منذ أشهر وأشهر. هل هو جهوري، حار أو ناعم، خافت ومداعب؟ انتابني الشك وأخذني الذعر. صورتها الصوتية اختفت. بياض. فراغ. ثقب في الذاكرة والقلب. مثل هذا الاختفاء ليس قابلاً للفهم. فقدان الذاكرة هذا هل هو عارض؟ صُدمت وسط هذه التساؤلات ونظرت إلى جينو الذي كان ينظر إليّ بالقلق نفسه قال لي:

ـ لنخرج، هذا خطير.

سال عرقي. وفي الخارج أخذت بتذكر أفعال وحركات المساء وأنا أجرب ذاكرتي.

ـ ماذا أكلت عند العشاء؟ وعند الغداء؟ أكنت وحدي؟ هل كتبت شيئاً؟ هل هتفت لأحد أو أجبت على هاتف؟ متى كنت في المرحاض آخر مرة؟ هل كنت مصاباً بالقبض؟ ياله من ارتباك... ولكن أين ذهبت صورة إيزا تلك التي كونتها لشدة مافكرت بها وأنا أصغي وأعيد الإصغاء لصوتها؟ يجب أن أستعيدها، أن أعود لرسم وجهها، أن أغرق بعينيها، أن أمسك يدها. يجب أن تعود وأن أعود إليها لأنني بحاجة لها ومن المستحيل أن أعود إلى العنبر بدونها.

لفت جينو نظري إلى مسألة أخرى:

ـ أذكر قطعي الموسيقية السوناتا تمر في خاطري في مظهر مجنون. ليس هذا حسناً هذا لايحتمل. كأن أحداً يتسلى في مرورها على إيقاع أعلى من المعتاد لكي يغيظني. ثم أرى امرأة ذات شعر أجعد، لبوة متوحشة، إيدي، إنها هي التي تدير القرص في أقصى سرعة.

ـ صفها لي، هذا سيساعدني.

ـ إنها طويلة القامة، ذات شعر رائع أجعد أو مفلفل، لاأرى الفرق. عيناها فاتحتان زرقاوان أو خضراوان، لاأدري. قامتها رشيقة وصدرها حسن التكوين على قد راحتي يديّ. مؤخرتها، لاأرى مؤخرتها. أراها مواجهة، إنها تبتسم مهتمة بي. ساقاها طويلتان جميلتان. آه، هي إيدي، تقول لي كلا برأسها. عندها شامة جميلة في عنقها من الجهة اليسرى. تشير لي أن أقترب...

ـ ولكن هل أنت تتخيل أو أنت تراها؟

ـ كلا، هي هناك قرب الكافيتريا.

إيزا، إيزا، النور والجمال، كيف أنسى وجهها؟ كيف ينسى

المرء وجهاً لم يره قط. كيف يُشكِّل وجه انطلاقاً من ذكرى صوت؟ إيزا كانت هناك، مامن شك. العجوز كان معها حق، حدسها صادق. حضور إيزا القريب لابد أنه هزّ إدراكي. نظرت إليها دون كلمة ولكنها لم تنتبه لي، فأية صورة يمكن أن ترسمها لي انطلاقاً من صوتي؟ ربما لم ترسم شيئاً على الإطلاق. ربما ليست إيزا. أو ربما هي إيزا ولكنها لم تعد تذكر هذا الكاتب المغربي من مدينة مراكش. جينو كان ملتصقاً بي ينظر إليها بتدقيق وهو غير مصدِّق. كانت عينه الغائمة تلمع. تقدم نحوها خطوة ثم عاد.

ـ إنها هي، غرام حياتي، لم تتغير، ولكن لِمَ تتظاهر بأنها لاتعرفني؟

ـ ربما هي ليست إيدي ولاإيزا ولكنها امرأة تشبه الهوى والغرام الذي ينهش فينا، يفرحنا ويحزننا، هذا كل شيء.

ـ أهو صديقك؟ قالت لي.

ـ أجل، هو جينو صديقي، هل عرفتِه من جديد؟ إنه عازف بيانو كبير، تلميذ أرتورو بينيديتي ميشيل ـ أنجيلي. إنه الآن منهك قليلاً، قصة حب انتهت بأبكر مما هو منتظر. هو مجروح أعمق جرح. ظننت أنك عرفتِه من جديد. هذا مؤسف، لابد أنه خائب الأمل وتعيس أشد تعاسة.

ـ عرفت عازف بيانو على موسيقى الجاز ولكنه مات من جرعة مخدرات كبيرة.

ـ كلا، جينو لم يلمس المخدرات قط. مااسمكِ؟ أأنت ترجمانة في هذا المؤتمر؟

ـ نعم أنا أترجم، هذا متعب. اسمي آڤا ماريا ڤارجاس. أترجم من الإيطالية إلى الفرنسية والإنكليزية. أتعلم العربية لأنهم يقولون إنها لغة المستقبل. أعتقد أن اللغة الصينية هي الأجدر بأن تصبح لغة المستقبل، ولكنني أحتاج لحياة ثانية كي أتعلم الصينية.

بينما هي تتحدث أغلقت عينيّ لأتحقق من صوتها. إنه يشبه صوت إيزا ولكن لم يكن لديّ أي يقين. جينو اليائس سحبني من كم سترتي وهمس في أذني: «كلا، ليست هي. فلنبق هنا، إنها امرأة جميلة ولكنها ليست من نبحث عنها».

ـ لكِ اسم جميل.

ـ إنه مزيف. أحب أن أضيع الأثر، وماذا يهم. أحب الآن أن أدعى آڤا ماريا، أما ڤارجاس فهو اسم اسباني. عائلتي لها اسم آخر، اسم إيطالي خالص.

وصل مومو مرتدياً البوبو ووجه كلامه إلى آڤا كأنما هو يعرفها منذ زمن طويل:

ـ أخيراً هاأنتِ أيتها السيدة إيزائيدي! امرأة الحب. هذان الرجلان مغرمان بك، معهما حق، لو أن لدي الوقت لانضممت إليهما عن طيب خاطر. يالها من رفقة جميلة! على كل حال أن يكون المرء عاشقاً فهذا سهل، أفكر بكِ، لذيذ، تعطينني موعداً وتخلفينه وأبقى في انتظارك، ثم تعطينني موعداً آخر وتأتين متأخرة، وتختفين لتظهري من جديد، وهكذا، هذا هو الحب.

ـ نعم، هذا هو على وجه التقريب، وماذا تفعل في نابولي؟

جينو كان قلقاً. أخذه مومو بين ذراعيه وهو يعزيه ويخفف عنه قائلاً له إن العجوز ستفعل شيئاً من أجله.

ـ أحاول أن أكتب كتاباً عن هذه المدينة، ولكن يوجد في رأسي الكثير من التشويش والغموض.

ـ أفهم، أعرف ذلك، القصص التي تختلط. كل الناس يبحثون عن حد، عن خط واضح بين الحقيقة والحلم. لم أعد أنام أو أكاد بسبب هذا الغموض، إنه يشبه المرض والعجز. هذا غريب، لانكاد نتعارف حتى يبوح أحدنا للآخر بأسراره.

ـ أشعر أننا نعرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل، أما الآن فثمة انقطاع في سلسلة ذكرياتنا، قلت لها.

ـ تريد أن تتحدث عن الذكريات التي تتحقق منها أو عن تلك التي تخترعها؟

ـ هيا اعرفي أين هو الصحيح!

ـ عندما كنت في السادسة من عمري كنت أجلس على ركبتي والدي وأنظر إلى الناس وهم يمرّون: كل شخص هو خزانة مليئة بالقصص. يكفي أن تفتح الأدراج، الأمر مثل مسبحة مفروطة. حياتي مليئة بالأدراج. إذا فتحتها أنا وجدتها خالية، وإذا فتحها شخص آخر، شخص آخر مجنون بالحب والهوى والغضب، وجدها مليئة، هذا إذا كان يملك يداً محظوظة!

ـ هنا ياسيدتي تجدين مبتغاك! قال مومو، يوجد الحب والغضب وحتى اليد المحظوظة. هذان الرجلان لايتكلمان إلا عن الحب حتى ليمكن القول إنهما من النساء. جينو مؤلف موسيقي كبير. أما الكاتب فيكتب أشعاراً تهدئ القطط نفسها...

ثم قام مومو بدعوة آڤا ماريا لزيارة عنبرنا:

ـ سترين. إنه الكهف الذي تستريح فيه كل القصص، كما أنه ميدان العجائب خاصة عندما يقام فيه احتفال. ولكنني واثق من أن قصتك هي في هذا الكهف. هذه المقابلة فيها شيء سحري، ليست فقط من عمل المصادفة بل لابد أن تحتها خدعة.

وقد بدت آڤا ماريا مهتمة بكهفنا المحشو بالقصص.

ـ ماقصة هذا الكهف؟

ـ مومو، ذلك الطفل الكبير، يعتقد أن للقصص ملجأ تلجأ إليه، منزلاً تستريح فيه، شيئاً يشبه مقبرة ولكن مع إمكانية عودتها للحياة ما أن يبدأ المرء بروايتها.

بعد انتهاء المؤتمر الذي دام يوماً كاملاً انضمت آڤا ماريا إلينا. في خلال ذلك كنت قد اشتريت أزهاراً من أحد الغجريين. جينو

اختفى برهة ثم عاد وبين ذراعيه حزمة من نبات البقس التزييني أخفت وجهه.

وعندما قدم جينو البقس إلى آڤا ماريا دعاها إيدي، ودعوتها أنا إيزا عندما قدمت لها باقة الورد فلم تقم بالتصحيح.

ـ سمّوني بما يسركم. على كل حال آڤا ليس اسمي الحقيقي، إذن هيا، طالما أنتم تحبونني فأنا أقبل. إنني راضية ومسرورة.

ـ أجل، نحن نحبك.

انفجرت بالضحك، ولاحظت أن عينيها قد اخضلتا بفعل التأثر. أمضينا برهة من السعادة، من الرغبة في أن نضحك وأن نخفف عن كواهلنا. كنا نخفي اضطرابنا. جماعة المؤتمر المتحفظون الجادون كما هم دائماً رجال المؤتمرات كانوا ينظرون إلينا وهم يتساءلون ماإذا كنا جزءاً من المشهد أم أننا هزليون أتينا لتسليتهم بتمثيلنا بعض المشاهد المضحكة. وكلما كانوا يراقبوننا كلما بالغنا في حركاتنا. كنا نشكل، نحن الأربعة، جماعة خارجة من كوميديا موسيقية من كوميديات الخمسينات، خصوصاً وأن مومو له هيئة شيخ مرابط حقيقي بلباسه الجميل وألوانه الصارخة، بينما يحمل جينو البقس بين ذراعيه وآڤا باقة الورد الأصفر في يدها وأنا أقوم بالحركات راوياً لهم قصة بيت الطرشان حيث كل واحد لايسمع إلا مايريد أن يسمعه.

قالت آڤا ماريا:

ـ كلنا طرشان عندما يحقق ذلك سعادتنا، وهذا يساعد قليلاً على ألا يسمع المرء كل شيء.

ـ وقلت: الأكثر طرشاً بيننا ليس مومو البسيط بل جينو المعذَّب، حتى أنه ليس سعيداً.

وتدخل جينو مؤكداً:

ـ منذ أن التقيت بإيدي، امرأة حياتي، أصبحت سعيداً جداً، أستطيع العودة إلى البيانو، أشعر أنني حر.

ـ انحنت آفا نحوي وسألتني في أذني من هي إيدي.

ـ الحب الكبير لعازفنا. كان رجلاً هادئاً يعيش عيشة بسيطة بدون صدمات في حياة زوجية رتيبة، نوع من عدم الوجود، متفرغاً تماماً لفنه حتى اليوم الذي لقي فيه إيدي، الحب والهوى الجارف، التي حملت في مرورها كل شيء. بعدها السقوط، سقوط رهيب، وعندها لم يتحمل جينو المسكين، وهكذا وجد نفسه في العنبر، في قبو نزل المساكين. هو يرى فيك إيدي لأنك جميلة وأنيقة، أخيراً أنت تشبهين الحبيبة فيما أعتقد... والآن هيا إلى العنبر في زيارة للعجوز منبع حياتنا وأحلامنا.

ـ هذه القصة ليست غريبة عني. من المضحك أن يؤخذ المرء بشخص آخر. بعد كل شيء لِمَ لا؟ كنت أريد أن أصبح ممثلة هزلية.

ـ كلنا كذلك إلى حد ما. مومو ممثل متنقل فاشل يبالغ بالتمثيل. العجوز لم تعد لها الرغبة في التمثيل، هي نفسها في هذا الجحر، الكهف أو العنبر، حيث يتخلص الناس من أغراضهم التي لم يعد لهم فيها نفع.

ـ سنجد كلنا أنفسنا يوماً ما في قبو، مكان تحت الأرض، نفق أو بئر. أحياناً هذا هو الثمن الذي يجب دفعه لما سرقه المرء من الزمن، من الآخرين، أولئك الذين ينتظرون منا كل شيء. ماتطلبه المرأة هو أن تكون محبوبة دائماً وبإخلاص وصدق ورقة وأحياناً بجنون واندفاع. لايحب المرء إلا إذا أثملته الحياة. الحياة والحب هما الشيء نفسه. عندما يغيب الحب تغيب الحياة وتنطفئ المرأة وتصبح شخصاً آخر، امرأة ذابلة، وهذا ليس حسناً. النساء لهن حاجة أكثر من الآخرين للمشاعر، للشعر، للسحر، ليبقين على قيد الحياة. عندي شعور بأن صديقك عازف البيانو يحب على الطريقة النسائية.

ـ وقلت: إذن عندما يحب المرء حباً حقيقياً فهو امرأة.

ـ أوه، دعنا لانبالغ! النساء يعطين، يتعرضن للأخطار، يمضين إلى غاية جنونهن. الأمر مختلف مع الرجال. يحبون المغناجة ثم يضجرون، ليسوا شجعاناً كما ينبغي.

ـ العجوز كانت كذلك قبل أن تمسي عجوزاً. جمالها سمح لها بذلك. الرجال كانوا عند قدميها حتى اليوم الذي ديست فيه على يد قدر غير مطواع.

ـ ماهو هذا القدر غير المطواع؟

ـ كارثة!

ـ أملي أن أتجنب مثل هذه اللقاءات السيئة لأن جلدي احتفظ ببضعة آثار لاتسر رؤيتها. فرغم أن المرء يحتاط فإن العاصفة عندما تأتي تفقدك المحاكمة والرشد. حسن ألا يكون المرء طول الوقت محكوماً بالعقل، ولكن يجب أن يعرف أنه مامن شيء بلا مقابل، تعيش ساعة من السعادة فانتظر أن تدفع الثمن، على أن هذا ليس منهجياً قياسياً ولكن الزمن علمنا ألا نعتقد بدوام الأمور. ذلك مثل الخلود، إنه قصة بنيت على الوهم. أفهم أن فناناً يطمح إلى مثل هذه الحالة، ولكن هذا لايتعلق به إلا قليلاً. فكل شيء يتعلق بنوعية ماخلفه وراءه للأجيال. أخيراً، فلنقنع بأن نعيش الحاضر بملء جوانحنا ولندع الآمال الكبيرة لأولئك الذين يقذفون بأنفسهم في الزمن البعيد.

كانت تكلمني وأنا أتذكر بعض رسائل إيزا. هي أيضاً قالت لي إن النساء هن أكثر جرأة من الرجال. ولكن هل عرفتُ الحب، ذلك الذي ذكرته آنفاً؟ أعتقد أنني أحببت إيزا التي كانت تمثل بالنسبة لي فكرة الحب، الصورة الكاملة لعلاقة الحب، أحببتها بدون حساب، بدون تحفّظ، كنت أتخيلها إلى درجة أنني كنت أخترع عنها كل شيء، أو تقريباً كل شيء. كان لدي عنها توقعات غير واضحة،

تراودني ليلاً نهاراً، توقعات عما لاأعرف أي حب، ولم أكن قد عرفت قط مثل هذه الحالة من قبل، جاهزية متألقة، أمل في أمر غير محدد، مجرد أمل في أن الكائن المحبوب له وجود حقيقي. أذكر الفترة التي كنت فيها أتبعها بفكري في شوارع نابولي. لابد أنني كنت مجرداً كلياً من العقل حتى يصل بي الأمر لأن أتبع صورة. قررت أنها تحب الشمس وكنت أبقى في الظل. وأنها ترتدي قبعات كبيرة من القش لونها أزرق، لونها المفضل، ربما يجب أن أقول: لوننا المفضل. الشمس تسبقها لتدلها على الطريق جلدها يستقبل نور النهار الجميل ليحيله من العسلي إلى لون القرفة.

تولدت لدي اللذة في أن أنظر إلى آڤا ماريا وأنا أفكر بإيزا. ليس هذا من باب قلة الوفاء، ولكن من باب أن آڤا يمكن أن تكون إيزا. الأمر بسيط، فإيزا لايمكن أن تكون أقل جمالاً وأقل ذكاء وأقل إشراقاً من آڤا. امتنعت أن أحدثها عن فترة المراسلة. كان في ذلك طبعاً شك، شكٌّ دقيق مثل خيط من حرير. ولِمَ المخاطرة؟ فلأدع الأمر ماضياً في سبيله. آڤا تكلمني، هي موجودة هنا أمامي، حية، متألقة، ربما حرة. ولكن امرأة بهذا الجمال لايمكن أن تكون خالية الفؤاد، تعيش بلا رجل، تعيش بلا قصة كبيرة. قررت إذن أن أنسى الأوهام، ألا أتحدث عن إيزا وأن أنظر إلى آڤا ليس كبطلة في ميلودراما ملونة ولاكشخصية روائية اختُرعت من أجل حبكة في الرواية أو بكل بساطة بدافع من عذاب الوحدة بل باعتبارها امرأة حرة، بمعنى أنها حية. لم تكن بنا حاجة للكلام بل للاحساس بالأشياء، لنترك أنفسنا في الضجيج السحري لعيد يجري تحت أعيننا. مومو وجينو كانا يحتفلان بهذا اللقاء في فوضى الارتجال الرائعة، فوضى الفرح والضحك، فأعلنت:

ـ لن نذهب فوراً عند العجوز، ففي هذه الساعة يبدأ دواؤها في أخذ مفعوله وعليها أن تنام. الأفضل أن نذهب إليها في يوم آخر بعد إخبارها وبعد أن نجهز أنفسنا لزيارتها، لأنها هي أيضاً، كما أفترض، تنتظر آڤا.

- أنا في غاية الفضول للقاء هذه السيدة. إذن لنذهب عند عمي في بوسيليبو فهو مسافر وقد ترك لي مفاتيح البيت، اقترحت آفا.

جينو سأل عما إذا كان يوجد بيانو في ذلك البيت.

- طبعاً. إنه بيت كبير، وأعتقد أن عمي وضع البيانو في الشرفة.

مومو أراد أن يعرف ما إذا كان ثمة شيء يُدخَّن هناك.

- لاأدري، ولكن معي مايلزم.

لم أكن أعرف أن مومو يدخن القنب الهندي (الحشيش). نظر إليّ كما لو أنه وقع في خطأ، ثم قال لي:

- لاأدخن إلا المغربي، إنه الأفضل، ولكن منذ أن أصبحتَ هنا فإنني أدخن في السر.

البيت يقع على هضبة، بيت بورجوازي من الثلاثينات. كل شيء فيه حسن الترتيب حتى أننا فكرنا بالرجوع. افتقدنا فوضى العنبر وغباره. عندما يكون البيت حسن الترتيب فهو خال من الحياة. ولكن الحياة هي آفا تبثها في هذا المكان الذي يملك منظراً رائعاً. مالكه في إجازة. آفا حضّرت معجنات بالريحان وفتحت بعض قناني النبيذ الأبيض. وجلس جينو أمام البيانو الذي كان فعلاً في الشرفة، وقد أحطنا به وانتظرنا. البيانو كان مضبوطاً. مضى جينو إلى الحمام واغتسل وحلق ذقنه وعاد إلينا مرتدياً بدلة من السموكنغ أكبر من مقاسه. كان مؤثراً، يمشي متردداً، يحرك أصابعه لترويضها وينظر إلينا بعيني طفل سيتقدم لأول امتحان. سكتنا، وتوقف مومو عن الأكل لاعن الشرب. آفا المسترخية الهادئة الأعصاب بدلت لباسها فهي ترتدي فستاناً خفيفاً يشدّ قامتها. عندما نظرت إليها تذكرت الزيارات التي كانت إيدي تقوم بها لجينو وتصل مبلولة في فساتين مشدودة على جسدها. ثم عدت فرأيت إيزا كما كنت أتخيلها، تمشي أمامي بحركاتها المتناسقة وجسدها الرشيق ونظرتها العاشقة. وقلت لنفسي إن عليّ أن أنتهي من هذا الحب الموهوم، من هذه

الصور، وأن أتمتع بالحاضر الحقيقي المجسد الذي تمثله آڤا وأن أعجب ببساطتها.

بدأ جينو بداية سيئة عندما أخذ يعزف. كان يتموج في بدلته السموكنغ الواسعة ولكنه تماسك، ثم مالبث فجأة أن أخذ يعزف بثقة. لم يعد يتردد، نسي أين هو بل نسي لمن يعزف. أخذ منا التأثر فالعزف رائع، لقد عاد إليه كل شيء كما لو أن ذاكرته اجتاحته في اندفاعة كبيرة من الطيبة. استمعنا إليه ساعة كاملة بقلب مقبوض. ظننت أن جينو قد نجا وأسفت لأن العجوز ليست هنا لتشهد مولده الجديد. آڤا كانت متأثرة، نهضت وعانقته فكاد جينو أن يغمى عليه. قال لنا إن إيدي كانت تحتضنه بالقوة نفسها والحنان نفسه، ثم عاد إلى البيانو وعزف مقطوعات خفيفة، قليلاً من الجاز ومن الروك هو عازف الموسيقى الكلاسيكية. رقصنا نحن الثلاثة على هذه الموسيقى، وهمست آڤا في أذني: «أنا سعيدة رغم أننا لم نكن نعرف بعضنا بعضاً هذا الصباح! وأجبتها: ليس بهذه الثقة»، فابتسمت وقبلتني في عنقي.

جينو خلع السموكنغ وعاد إلى ملابسه العتيقة وهو بالغ السعادة وتسلق ظهر مومو الذي يبلغ طوله حوالى المترين وقال له:

- إلى الأمام. سنترك العاشقين وسنذهب لإيقاظ العجوز على أنغام الموسيقى وستحب ذلك...

ومضا يغنيان مضحكين وسعيدين وهما متعة للنظر.

13

أصبحنا وحدنا في البيت الكبير الذي يسوده هدوء مطمئن. بقينا فترة طويلة دون أن نتحرك أو نتكلم. عيوننا تتلاقى ثم نخفضها في الوقت نفسه. أحببنا هذا الصمت وهذه النظرات. لم نكن بحاجة لأن نقوم بتعليقات حول السهرة. كنا جالسين وقد نال منا بعض التعب عندما انحنت آنّا عليّ وهمست:

ـ المعجزات موجودة!

ـ المعجزة الوحيدة التي أعترف بها دائماً هي معجزة الحب، معجزة اللقاء الواقعي العفوي. قلت لها.

من الشرفة يبدو خليج نابولي. ضباب خفيف يجعل أنوار المدينة غير واضحة. تمددت آنّا على بطنها على الصوفا وسألتني أن أدلِّك ظهرها. هي على وشك أن تنام وهي مطمئنة واثقة ومحشورة بعض الشيء في فستانها. فككت أزراره بكل لطف وجعلته ينزلق إلى الأسفل فأصبحت عارية. كانت مغلقة العينين تنتظر التدليك، وكنت مضطرباً لأنني لم أر جسداً بمثل هذا الجمال منذ أمد طويل ولم أمارس الحب منذ حين، والواقع أنني أقلعت عن الحياة الجنسية منذ شهور. تملكني الخوف، نضحت بالعرق مثل مراهق يجد نفسه للمرة الأولى أمام امرأة عارية. قررت أن أقوم بالتدليل بصورة جدية واجتهد بأن أتجنب لمس إليتيها، وبعد برهة قالت لي:

ـ رجلاي وإليتاي باردة، أتريد أن تدفئها، من فضلك؟

ـ كيف؟

ـ كما تفعل في العادة.

ابتسمت. بدأتُ بقدميها وأخذت أفركهما بين يدي وأنا أدلكهما. أحبت كثيراً هذه الملامسة. مع الإليتين كنت أعرف أن مداعبتهما قد لاتكفي، عندئذ تذكرت كيف كان يفعل جينو وكما كنت أفعله أنا في خيالي. أخذت أنفخ وأرسل حرارتي بين إليتيها اللتين تتحركان حركة خفيفة، ترتفعان قليلاً ثم تقعان ببطء جميل. فمي المنفرج يصعد على ظهرها وأنا مسند شفتي بقوة على جلدها كما لو أن التدليك مستمر. عندما أصبحت فوقها مغطياً كامل جسدها بجسدي لاحظت وجود مرآة كبيرة موضوعة بشكل منحرف ترى فيها كل ما أفعله لها. رأيت نفسي أنا أيضاً وانتابني شعور بأنني لست إلا هذه الصورة في المرآة. غرقت في موج من الصور الأخرى بعضها قديم وأخرى من الحاضر، تختلط حتى أصابتني بالدوار. لم أعد أنظر في المرآة، وثبّتُ عينيّ على الظهر والنقرة وماتحت الحقوين، وعلى الإليتين والساقين، إليتي آڤا وساقيها. قلت في نفسي: أنت مع آڤا الآن، امرأة، جسداً رائعاً، جلداً جميلاً، أنت مع امرأة ليست صورة، لاتغلق عينيك، انظر إلى ماأرسلته لك السماء، داعب، انفخ، إلحس، افترس، ابتلع، أعطِ من ريقك لهذا الجلد، افرشه بلسانك، اسكب مابقي لديك من رضاب في فم آڤا، شُمَّ عطرها الطبيعي، لاتتراجع، افتح فخذيها وضع رأسك هناك واستنشق عبير الجنة، قبّل، خذ وأعطِ، دع حواسك متيقظة فهي بحاجة لأن تحيا من جديد. لاتنسَ أن جسدك لم يلمس منذ أمد طويل جسداً آخر، وأنك غالباً ما اكتفيت بالتفكير تحت الملاءات بامرأة ليس لها وجود أو ربما ليس لها وجود. هنا لستَ في حلم وأنت لست نائماً، إنها الحقيقة، شيء حي، باشرها ولاتتردد فأنت مع امرأة ترغب بك، اخترق بطنها بلطف ولا تشتد، كن ماهراً، قبّل أطراف ثدييها ولاتعضهما، لا تكن عنيفاً، كن طيباً فآڤا امرأة طيبة، لاتخف، إنها لك، تعطي لك نفسها بدون تحفظ، بدون حساب،

ضمّها بقوة بين ذراعيك، وإذا بكت فاعلم أنها دموع السعادة.

في آخر الليل كنت ماأزال أرغب بها مرة أخرى. آڤا التي تعبت بعض الشيء لم تكن ترغب بالنوم. قالت لي:

ـ انتظرتك منذ زمن طويل. لم يباشرني أحد من قبل مثلما فعلت، وذلك منذ سنوات، منذ حبي الكبير الأول. شيء فيك وفيّ كان ينتظر ليلة الحب هذه. أشعر بأن جسدينا كانا يبحثان أحدهما عن الآخر على غفلة منا. ماأقوله حيواني ولكن فيه بعضاً من الحقيقة. عندما رأيتك لأول وهلة عرفت فوراً أن جسدينا سيتحابان. تخيلت الأسوأ. رأيت نفسي مِلكاً لك بغبطة آتية من بعيد، من حيث لم أعد مالكة لنفسي. والأسوأ هي النهاية، القمة ثم مايأتي بعدها. تخيلت مايتبعها وارتجفت، ثم أغلقت عينيّ وتركت نفسي في تيار النهر. لم أفعل شيئاً من أجل ذلك، إلا القليل القليل، رأيتك محرجاً بعض الشيء، قليل النشاط، باهت الرغبة، ولم أتخيل أنك تستطيع أن تمارس معي الحب مرات عديدة في ليلة واحدة، وأنني عند الصباح أجد نفسي أمامك وأنا على وشك أن أسألك: ماذا حدث لي؟ ماذا حصل لنا؟ ورغبت من جديد أن تدفئني، أن تداعبني، أن تضمني إليك بقوة بحيث لاأستطيع الإفلات منك. إذا كان متاع هذا البيت يستطيع أن يشهد فإنه سيروي ماشهده من حب ليس له حدود، ومن صراخ ودموع وخصومات ومصالحات، ومن خمر ومن شمس غاربة بينما نابولي غارقة في ضباب شعري... هذا ماقيل لي. فهذا البيت كان لعائلة من الأرستقراطيين المفلسين كما يحدث في الروايات، فالأرستقراطيون دائماً مفلسون ومنحطون، ولكن هنا، كما قيل لي، كانت امرأة جميلة جداً تستقبل عشاقها عندما تغرب الشمس في الخليج. كانت مستهترة تغري النفوس الطيبة، حتى اليوم الذي اختطفها فيه إعصار مشؤوم، واحد من الرجال الأشرار، واختفت المرأة، مجنونة ومتشردة، ضاعت في حثالة الناس، في طرقات الحزن الضيقة. أما الأعصار المشؤوم فمات في حادثة مركب... قيل الكثير من الأشياء، فمن يعرف الحقيقة. ولكن الناس يحبون رواية

الحكايات، يروون منها الكثير حتى يأتي اليوم الذي يجدون فيه أنفسهم وجهاً لوجه مع ماتخيلوه وحلموا به. هذا ماحدث لي، لاأعرف عنك، ولكنني قلقة ولاأريد انتظار التتمة، لاأريد أن أعيش الخاتمة، الرحيل والدموع والأحزان.

بقينا على هذه الأريكة وفي شرفة الحب هذه عدة أيام تخلينا خلالها عن مفاهيم الزمن اليومية وعن اللباقة والمجاملات. كأننا في رحلة كبيرة اجتزنا فيها المحيطات والصحارى، في هذا الخمول الذي لايقلقنا فيه شيء. في نهاية الرحلة عندما أصبحت أعضاؤنا ثقيلة ورؤوسنا دائخة ونظراتنا محملة بالأحاسيس النشيطة قالت لي: «سأكون التمثال الحي لرغبتك». فكرت عندئذ بجسدها الأعمى الذي يرتجف وهو منتصب في الظل بحثاً عن العناق المشؤوم، ذلك الذي يحرك الرماد ويستدعي دموع الطفولة. جسدها يقول ويكرر القول: «هدئني» بينما عيناها فارغتان من كل بريق وهما تسعيان إلى الأخذ بيد هذه البنت الصغيرة الخائفة وإبعادها عن الخوف، ذلك الثقب الأسود الذي يسقط فيه المرء كما يسقط حجر ثقيل في بئر. ولكن الخوف رشح إلى الساقين وخنق الصوت وبلل العينين بدموع بيض وحرك كل شيء قبل أن يصبح صراخاً عميقاً قادماً من بعيد، شهيقاً هو بين الضحك والانقباض. شخص في داخلي ينخر مثل حيوان جائع، لاينبس ببنت شفة، يُبحُ الصوت برغبة العنف، رغبة أقوى من الخوف.

كامرأة امتلكها الحب، مغطية ضعفها بالحرير والكبرياء كان عليها أن تتحفظ. بعد عناق طويل انتابها دوار وكادت تفقد الوعي، ليس بسبب العناق ولكن بسبب ما أسمته: «التأثر بالذِكرى المستقبلية». قالت لي في مرة أخرى: «هدئني، قل لي من الكلمات التي تجعلني أذوب، أثبت لي أنني مخطئة، أشعرني بأنك قوي، أقوى مني، وأنت أنت الذي يقرر أنني ملك يديك لأنك تريد ذلك بكل قوة، لاتدعني أذهب، اعرف كيف تمسك بي، لاتخف، إنني لاأعرف سوى

أن أمضي، خذ بيدي ولكنني لاأشعر بك، لم أعد أشعر بك، أين أنت، أين نحن ياحبيبي، حبي، حبك...».

بعد تلك السلسلة من اللقطات الذهنية التي تشبه نوعاً من الانفصال، علمت أن ماعشته هو نوع من الموت الوشيك الوقوع وأنني لن أعيشه مرة أخرى أبداً. علمت بمعرفة قوية أنه يجب على الأخص ألا يُكتب في الزمان أو في مذكرة عادية، وأنني يجب أن أعمل كل شيء لكي أبتعد دون أسف ولاتوبيخ من ضمير ودون حنين. نظراتنا توقفت برهة طويلة، تركزت كما لو أنها تقول «وداعاً»، ومضينا في انطلاقة ضحك كبيرة، وتابعت الحياة مجراها كأن شيئاً لم يحدث. ومن المثير للفضول أنه لم يتحرك شيء في ذاكرتي، فهي بيضاء فارغة مع شعوري بأن كل شيء يمضي بشكل حسن، كل شيء هادئ حتى مومو وجينو والعجوز، كل الناس كانوا رائقين وهادئين.

وصلنا إلى العنبر بعد الظهر من أحد الأيام. جينو كان يتدرب على بيانو عتيق، ومومو يقشّر بطاطا، والعجوز ترتب دفاترها. وقد صدمت آقا:

ـ هذا عجيب فالمكان ليس غريباً عني، رأيته من قبل، رأيته حتى أنني زرته في الحلم. له مئة وعشر نوافذ وثلاثة وعشرون باباً وأربعة مداخل، ونفق يحيط بالبناء. بناه ملك أراد أن يستغفر عن امتلاكه لقصر واسع بناه في كاسيرتي من أموال الشعب. نُزُل المساكين! كان الأولى به أن يسمى نزل غرقى الحياة، أظن أنني سأجنح إليه في أحد الأيام مثل مركب بلا ركاب.

ـ ولكن يا آنسة، امرأة جميلة مثلك لايمكن أن تغرق، هذا مستحيل، قال جينو.

آقا ماريا، إيدي، إيزا، مريم العذراء، الحب، المحبوبة، تعالي

إلى هنا لأقدم لك ماماتي اليهودية ـ المسلمة، تحفة عتيقة ولكنها ماتزال تحمل قلباً مليئاً بالحب. يحصل لها أن تختنق بعض الشيء ولكنها طيبة ماماتي هذه، الإيطالية ـ الأفريقية، خلطة من العديد من البهارات. تعالي آفا...

العجوز كانت متزينة. قالت لآفا:

ـ لاتتخضبي أبداً يابنتي لأن «الماكياج، كما تعلمين، هو كفن الجمال».

مومو كان يرش الهواء بمزيل للروائح كريه. آفا لم تتردد لحظة وارتمت بين ذراعي العجوز الممدودتين. تعانقتا طويلاً بينما كانت الدهشة تتملكنا. مومو فتح زجاجة من النبيذ وشربنا على صحة... أخته المستردَّة. نظرنا بعضنا إلى بعض مذهولين كان مومو قد عودنا على نزواته، ولكن هذه كانت غريبة بعض الشيء.

ـ آفا أختك؟ قلت له.

ـ أختي غير الشقيقة، وهذا مع ذلك باد للعيان، فالشبه واضح، ولكن الشبه عندكم هو نوع من التطابق، كلا، إنه سر. نحن مختلفان أكثر من أن نكون متشابهين. هل تفهمون؟

جينو انحنى نحوي وقال لي بصوت خافت:

ـ إنه يهذي. إيدي لايمكن أن تكون أخته ولاأخته غير الشقيقة، هذا مستحيل.

ـ أنت أيضاً تهذي. الموجودة هنا ليست إيدي، إنها آفا ماريا. على كل حال إذا أعجبك الاعتقاد بأنها إيدي حبيبة حياتك فإنني لاأرى في ذلك مانعاً.

ـ ولكن الشبه بينهما يدعو إلى الجنون! لم أحلم. عشت هوى محرقاً مع امرأة قالت إن اسمها إيدي، طولها متر ومئة وستة وسبعون، أي أطول مني بستة سنتمترات، عيناها خضراوان، جلدها عسلي أو بلون القرفة، جميلة كالحياة، تلك التي زارتني عندما

انتابني البرد. إنها هي قطعاً، لقد غدوت مجنوناً، كلا أنا مجنون منذ أن التقيت بها.

ـ كلنا مجانين، صاحت العجوز، ومع ذلك فإن الجنون ليس الحيرة والغموض. إنه شجرة تمر تطرح تمراً بدون نواة، إنه حرقة لاتؤذي، هو قبلة الغائب،الصوت المنساب من مغنية سوداء، هو طير أعور أمسِكَ به في طيرانه. اقتربي ياعزيزتي آڤا ماريا، افتحي هذا الصندوق، إنه مليء بجماجم هذبتها أيدي أطفال. كل جمجمة قصة. اختاري واحدة منها وأعطيها لي. لاأدري ماإذا كان أحد قد وضعك في مجرى الأحداث، ولكن هذا العنبر هو مكان يأتي إليه الناس المحبَطين أو التعساء باختصار ليبوحوا بقصصهم. هو نوع من مكتبة قديمة، متحف للقصص. سيقول ناس هذه الأيام: إنه مصرف، ولكن المصرف يحوي الذهب وصغار العملات، أما هنا فلايوجد إلا الجرذان، إلا علب كرتونية وبعض البلهاء وأنا ممثلتهم العليا. أنتِ ليس لديك أحزان تبوحين لي بها، قصتك ستجدينها هنا في هذا الصندوق. إذن اغمسي يدك فيه وأخرجي لي واحدة من الجماجم.

أطاعت آڤا وهي تبتسم. فتحت الصندوق وأغلقت عينيها وأخرجت جمجمة سيئة التهذيب عليها بقايا شعر أجعد من الأمام ومدت يدها به للعجوز.

ـ هذا مثير للفضول، لقد وقعتِ على الجمجمة الأفريقية الوحيدة.

ـ ماذا عليّ أن أفعل؟

ـ داعبيها بلطف ولمدة طويلة حتى تجتاحك ذاكرتها وتقدم لك صوراً قادمة من أعماق أفريقيا. خذي وقتك في انتظارها لأن عليها أن تجتاز محيطات وقارات.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك سترين. أنت وحظك. يدك اختارت أفريقيا. كان يمكنها أن تقع على جمجمة بسيطة، جمجمة واحد من المنطقة،

تفاهات مثلاً، جمجمة ربما حدثتك عن قصة كاستل ديل مونتي، هذا القصر المليء بالأسرار. هناك انتظارك سيكون قصيراً. وكان يمكن ليدك أن تقع على أسوأ من ذلك: جمجمة تان الصيني الوحيد في نابولي الذي يدعي أنه يهودي، وهنا قد تجدين المصاعب.

في خلال ذلك كانت آڤا تبحث عن مسند تجلس عليه. أغلقت عينيها نصف إغلاقة فاستقرت في الأريكة العرجاء مقابل العجوز. مومو أسرع ليأتي ببصلة، قطعها نصفين ووضعها تحت أنف آڤا التي استيقظت وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة.

ـ أين أنا؟

ـ في غابة رطبة، قال مومو، اتبعيني سأقودك إلى البئر المقدس الذي تستريح فيه الحقيقة، هناك حيث يختبئ نور عيني ماما اليهودية والمسلمة، هناك حيث نابولي لم تعد مدينة، هناك حيث سألجأ في أحد الأيام كي أموت.

ـ مومو! صرخت العجوز، لاتتحدث عن البئر المقدس، دعها تعثر عليه وحدها.

ـ ولكن ماما أنت من قلتِ لي إنني سأذهب في أحد الأيام إلى قعر هذا البئر بحثاً عن الحقيقة...

ـ بلى، ولكن ليس في هذه اللحظة، ودورك لن يأتي عما قريب.

وكما لو أن آڤا كانت تحت تأثير تنويم مغناطيسي فإنها أخذت تتكلم وعيناها مغلقتان:

«ارقصي، ارقصي ياغابة الذكريات، الأرز العالي، ياأشجار السرو، والسنديان، سنديان طفولتنا. أمشي ويتبعني أطفال ذوو بطن منتفخ وعيون جاحظة. أمشي، أركض، الخوف، أيد تمتد نحوي، صراخ أطفال، بكاء، جلدي يؤلمني، تغير لونه، قسا، لون قهوة، شعري ينتصب، تجعد ثم تفلفل. يدي في شعري تلقى مسامير، أرى ظلالاً، صوراً قاتمة، رجلاً يتبعني، يركض ولكنه لايتوصل

للإمساك بي، ناس يصفقون، إنهم يستقبلونني، أجداد يتذكرونني، فتاة متمردة قليلة الاصطبار، أنا فتاة الغابة، أبي، أعتقد أنه أبي الذي يجري دائماً خلفي، لاأراه ولكنني أسمعه يزمجر كما كان يزمجر عندما كنت طفلة فأُغلق على نفسي من الخوف. يزمجر: «عودي، سيلحقون بك الأذى». هو الذي سبب لي أكبر الأذى، أبي فظ، قاس، أمي غائبة، أمي أُرسلت عند المجانين، وظلال الشر هذه احتفظ بها الجدود، من أنا؟ من أنا؟ الشجرة الأعتق تنحني، أمشي وأشعر بأنني حرة، أبي الآن بعيد، ليس من تهديد، لم تعد بي حاجة للاختباء، ظلي يتبعني، يتقدمني، يتخلف عني ويعود، ظلي يحميني، صوت في داخلي يقول لي إن جذوري في هذه الغابة امتزجت بجذور الأرز. أنا هناك الآن، أرزة أفريقية، صوتي يقول لي كينزه، كينزه، كَنز، كَنز، أنا كينزة ابنة خديجة خادمة المنزل في نابولي، أمي ليست مجنونة، أمي ماتت، هي في داخلي، تعيش فيَّ، أسمع صوتها يطمئنني، صوتها يبعد عني خيال أبي، أبي شديد القسوة يستحق أن يُرمى بالرصاص على الفور، نعم، أبي وحش. أعطوني ساطوراً ذا شفرة مسنونة جداً، ساطوراً لأنتهي من هذا الكابوس، ولكنني لاأستطيع أن أرى سيلان الدم. زرعت الساطور في جذع الشجرة فجرى منها نسغ أحمر، كل الناس صاحوا كينزه، كينزه، شعرت بالدوار في رأسي، لقد تحررت، أنا كينزه بنت خديجة. هذا الرأس الذي أداعبه هو رأس طفل، أنا حرة، أشعر أنني غريبة، أنني امرأة أخرى، أشعر أنني بخير...».

كينزه، آڤا، إيدي، إيزا... كل هذه الأسماء تدل على الشجرة نفسها، امرأة التطرفات، ظاهرة زائلة مع آثار صور وظلال في الذكريات، كينزه لغز الزمان والحب، فتاة حرة في غابة من الرجال القساة.

مومو نهض ومد يده لجينو فأخذها وضغط عليها بكل قواه. كينزه اقتربت من عازف البيانو وأخذت يده الأخرى، واستولى مومو

على يدي، وأمسكتُ بيد العجوز التي نهضت. لقد اتحدنا كلنا. العملاق الأفريقي ترنح كما لو أنه يبحث عن التوازن وأخذ يترنم بلغة مجهولة. وأخذنا نحن بالدوران على شكل حلقة كما لو أننا نطرد أرواح الشر عنا ونبعد الشر الذي لحق بكينزه وبالعجوز، واقتنعنا بأن مصيراً واحداً لمّ شملنا في عائلة واحدة أو قبيلة صغيرة جداً لاتعيش إلا في سبيل الحرية ومن أجل مقاومة الأعمال الشائنة.

كينزه، التي بقيتُ على تسميتها آڤا ماريا أتت لتكمل قبيلتنا. وعندما أراها في هذا العنبر الحقير أتذكر الليالي الماضية التي قضيناها في الحب، وقد تملكتني بإلحاح جملة هي الأولى في حكاية لكارلوس دروموند دي أندراد: «كان في قديم الزمان رجل يأكل أصابع السيدات لاأصابع الآنسات». وسيطرت عليّ رغبة لاتقاوم في أخذ اليد اليسرى للعجوز وأكل إصبعها الصغيرة. اليد المبسوطة فوق ذراع الأريكة كانت ترتجف قليلاً مكتنزة ثقيلة. أمعنت النظر في أصابعها. كلها ذوات خواتم إلا الصغيرة منها، حتى الإبهام كان فيه خيط أحمر جالب للحظ. لست مصاص دماء ولاآكلاً للحوم البشر. راقبت أصابع آڤا. إنها أصابع طويلة دقيقة. يداها أكبر من يديّ. عيناها جعلتاني أضطرب، يداها كانتا قد بعثتا الرعشة في جسدي. هل سأقوم بقرط واحدة من أصابعها؟ إنها ماتزال آنسة، ولكنني لست مضطراً لتوفير الآنسات مثل شخصية الحكاية البرازيلية. ربما لو أكلت إصبعاً من آڤا فقد يُشفى جينو. آكل، أفترس، أبتلع، أرتوي، أمتص، ألحس، أُتخم... فاللسان العاشق مليء بهذه الاستعارات المكتسبة من آكلي لحوم البشر! بعد الحب كان يحدث لي أن آخذ يد آڤا وألحس أصابعها واحدة واحدة. آڤا لم تعد عاشقة على غرار إيدي وإيزا، أدركت ذلك منذ أن انضمت إلى الحلقة. عنبر العجوز كان مثل مشهد في مسرح تنعقد فيه وتنحلّ قصص الحب، كما أن هذا المكان الساحر كان أيضاً مكاناً للحقيقة. بعد وصول آڤا غير المتوقع ـ التي استمر جينو يعتبرها إيدي، ولكن

هل كان مخطئاً ـ عادت إلى جينو الحياة وأصبحت حالته الصحية أفضل ونظرته أكثر حيوية وحركته أدق ونفسه في سبيل أن تكون مترعة. وهذا واضح في وجهه الذي عاد إلى الشباب. لقد عادت الحياة، فآقا تملك القدرة على تبديل الشخص الذي تحب، تُشِع. العجوز لم تكن تزيح عنها عينيها حتى ليمكن القول إنها تحصي عليها حركاتها، تحرضها بصمت كي تذهب إلى جينو. لم يكن ذلك إلا للحظة قصيرة كانت كافية لتألقه وإنقاذه. كانت العجوز تملك أكثر من الحدس، تملك معلومات. بين آقا وبينها أكثر من تواطؤ عارض، شيء أعمق من ذلك أفلتَ منا، نوع من انتقال الأفكار وتطابق الشخصية.

جينو غدا على طريق الشفاء. مومو ذو العقل البسيط غدا أكثر فأكثر ذلك الذي لابد أن تجري الأمور عن طريقه. كنت قد ألقيت الرحال في هذه المغارة مصادفة وهكذا أمسيت غير قادر على ترك العجوز ومومو وجينو وهذه المرأة التي لم تكن تعرفني أبداً، والتي أعطتني الكثير ثم نسيت كل شيء. كانت العجوز تنظر إليّ من حين إلى آخر كما لو أنها تريد أن تقول لي كن صبوراً وأن أقبل مايحدث دون اعتراض. كان هذا هو درس الظلمات، درس المسير الطويل في دروب الطفولة الضيقة المعتمة. كل واحد منا يشعر في أحد الأيام بالحاجة لأن يطرد عنه شياطينه التي تركبه، تلك التي يعرفها وخاصة تلك التي يجهلها والتي تدفعه في وهاد لايراها.

انطفأت الأنوار. بصوته الأجش باشر مومو بغناء حزين. العجوز أوقدت شمعة وكان جينو متأثراً يمسك بيد آقا. كنت أجلس فوق صندوق الجماجم المهذبة، لم أكن مرتاحاً إذ كان عليّ أن أكتب الفصل الأخير من الحب المتوفّى، من الحب الضائع، من الموسم المقطوع. عليّ أن أفعل ذلك كي أفهم. أكتب كي أفهم! كان هذا عندي جنوناً حتى ولو كنت لاأفهم الكثير من الأشياء. النساء بحاجة إلى المشاعر والعواطف والانفعالات لا إلى الكلمات. لشدة ماكتبت هذه القصة نسيت أن أحياها. وضعتها في بيت مليء بالكلمات والجمل

والصور والأغاني. ظننت أن الكلمات يمكن أن تكون أقوى وأكثر إقناعاً من الأفعال. شعرت بأنني تأخرت عن أن أفعل. طول عمري لدي من ردود الفعل أكثر مما لدي من الفعل. كنت أخضع تاركاً للمصادفة أن تقرر بدلاً عني، والمصادفة تعني الآخرين في معظم الأحيان. عند لقائي بآڤا كدت أن أخرج من غابة الكلمات والصور التي اعتزلت فيها. آڤا أعطتني الحياة بكثافة ثم اختفت، حتى ولو كانت هنا أمامي فإن روحها في مكان آخر بعيد عني. عشت على وهم سحري، وهي أمور لاتحدث في غالب الأحيان، تدفعك وتتركك لاهثاً غبياً بدون دفاع. يرويها المرء ويتأثر بها الناس. أن تعيشها هو أمر آخر، تجربة، غوص في عالم الأسرار.

قصتي مع آڤا، حتى ولو أنها وُجدت بحق، هي رواية، خاطفة وكثيفة، موجزة وقوية، لوثت حياتي كما لو أنني عشت في كتاب، في مخطوط حبره بلون العنبر أو الكستنائي الغامق.

منذ أن قرأت *المخطوطة التي وجدت في سرقسطة* حلمت بأن أكون في أصل مؤلَّف يسعى إليه كل الناس وليس له وجود إلا في خيالي. قد أكون هذا الكتاب، ومن أجل قراءته ولمس صفحاته وتقليبها بنوع من الحمى ينبغي المجيء إليّ وتعلُّم القراءة في عينيّ وعلى جلدي، ولمسي، وملاطفة ظهر يديّ لكي تسيل الجُمل واحدة بعد الأخرى، ثم تأتي لتصطفَّ في عيون أخرى ونظرات أخرى كما لو أنني الذاكرة البدئية، تلك التي تروي إلى مالانهاية قصة هذا الوهم السحري.

14

هذا الجسد الأعتق من الذاكرة والأكثر تلفاً من النظرة، هذا الوجه المخضّب المبيَّض بالطحين، وهاتان اليدان المرتجفتان، تخلت كلها عن كل مقاومة. وستموت العجوز كما لو أنها داخلة في حلم من باب خفيّ، من نقب، كما لو أن اللعبة انتهت وأن عليها المضي على رؤوس أصابعها دون إزعاج للحياة المستمرة.

أرادت، وهي متعبة، أن تتجرد من الزمن وتغلق جفنيها وتنام على الدوام.

ساد صمت كبير في انتظار الإشارات الأخيرة من تلك التي هي لنا أكثر من أم، أكثر من شريكة نلقي عندها بأسرارنا، بل نوراً يقود خطانا.

هدوء، لايتحرك أي شيء، حتى الجرذان بقيت بدون حراك في زاويتها، وقد غطى مومو وجهه بيديه وبكى، وأخذ الفراغ يسكن ببطء في العنبر. كل شيء منظم، كينزه واقفة إلى جانب جينو الذي لم يجرؤ على النظر ناحية العجوز، بينما نسمع تنفسه يزداد صعوبة أكثر فأكثر. لم نكن نتبادل النظرات. ننظر بإمعان إلى الأرض. ومثل غصن من شجرة تعبة انحنت العجوز إلى الأسفل وأبقتنا على مسافة منها بوساطة عصاها. لم تكن قد تناولت أدويتها ولم تعد تريد تناولها. حبوب حمر وأُخر بيض مبعثرة على الأرض. خيط دقيق من

البول سقط من الأريكة. وجهت عصاها نحوي فأسرعت، تمتمت بنتف من الجمل ففهمت أنه يجب علي إحضار صور من صندوق الجماجم المهذبة. فتحته وأزحت بعض الجماجم وأخرجت ملفاً مغلفاً بالسيلوفان. إنه ألبوم صور قديم وضعتُه على ركبتيها. بحركة من عينيها أمرتني أن أقلِّب صفحاته فسقطت بعض الصور ورأى جينو صورة بالأبيض والأسود لامرأة جميلة جداً ذات عينين فاتحتين وشعر أجعد وابتسامة ملغَّزة. أخذها وأراني إياها وأصبتُ أنا كذلك بصدمة، والتقط مومو صوراً أخرى وصرخ: «ماما! ماما!» فظننا أنها أسلمت الروح، كان يعوي لأنه تعرّف على العجوز لما كانت صبيَّة، ثم التفت إلى آڤا كينزه وصرخ بصوت أعلى. الصورة كانت لآڤا فالشبه يحمل على الارتجاف. كان هذا سراً أكثر من أي شيء، تطابق كامل، أو الأسوأ من ذلك، وهو الذي لم نكن نجرؤ على تصوره، أن يكون للشخص نفسه وجهان وقدر واحد. آڤا كينزه رفضت أن تنظر إلى الصور.

ابتسامة خفيفة ارتسمت على وجه العجوز. ارتاحت بشكل واضح وهي الآن تستطيع الرحيل. آڤا ـ كينزه، إيدي، إيزا عادت وركعت مع جينو عند قدميها وانضممت إليهما. وبمجهود أخير وضعت العجوز يدها اليمنى على كل واحد منا على التوالي. مومو أراد أيضاً أن ينال مباركتها الأخيرة. زفرت زفرة قوية وتصلبت نقرتها وأسلمت الروح. مومو عوى وأخذ يصفع وجهه بيديه ويتدحرج على الأرض مقبلاً قدمي العجوز المبللتين بالبول. ثم ساد الصمت، ساد في العنبر وفي النزل كله. وخرجت الجرذان وأتت لتلحس أصابع قدمي الميتة ثم غادرت العنبر من الباب.

جفف مومو دموعه وذهب باحثاً عن ربّاني ومفتٍ لأن العجوز كان لها الحق في طقوس الديانتين في نظره. بعد كل شيء هي يهودية اهتدت إلى الإسلام لتبعث السرور في قلب مومو. والواقع أنها لم تكن مؤمنة بالله وأنبيائه ولكنها لم تحب أن تعارض هذا

العملاق الذي تسكنه الطفولة. كانت مؤمنة بالحب وغالباً ماتحدثت عن القدر. جينو وكينزه وضعا في العنبر شيئاً من النظام ثم اختفيا وبقيت وحدي مع العجوز، نظرت إلى كل هذه الأشياء المكدسة وهذه الفوضى العمائية التي ليس لها مثيل. اقتنعت بأن كل هذا هو لي وأنني سأرث مومو أيضاً، ذلك الطفل الكبير الضائع الذي لم يترك دغله قط. ماالذي سيؤول إليه بعد العجوز؟ متخفٍّ مخالف للقانون بين العديد من المهاجرين المنحرفين، حطام مركب لايكف عن الجريان مع ضوء صغير يشتعل في نهاية رواق، على أمل أن يطفو وأن يغدو مواطناً بين هؤلاء المواطنين. مومو ينتظر أوراقاً ولكن ليس له عمل وليس له الحق في أن يكون على أرض هذه البلاد. إنه بعض من هذه الشرذمة من الظلال غير المدعوين إلى الوليمة. ليس له حرفة ولايعرف أن يعمل شيئاً بيديه الطويلتين، بل هو يبتسم للناس متفائلاً لايقلقه شيء، وربما يستطيع أن ينتصب مثل شجرة وسط ميدان كبير لينشر التفاؤل بين المارة الذين يملكون كل وسائل السعادة ولكنهم حزينون قلقون قليلو الثقة بالمستقبل.

نظرت إلى الأشياء، إنها مألوفة لدي. شعرت كأنني عشت طول حياتي في هذا المكان. أخذت خرقة لأمسح الغبار وكان يوجد منه الكثير فتخليت عن التنظيف. خلعت حذائي الذي يؤلم قدميّ ولبست غندورة قديمة كانت العجوز تستعملها منامة أو سترة منزلية (روب دي شامبر). إنها قصية وتنبعث منها رائحة كريهة ولكن ذلك لم يزعجني ففيها رائحة العجوز. جلست في مقابلة الميتة وأفدت من غياب الآخرين لأقول لها مارغبت أن أقوله لها منذ بداية هذه القصة:

«شكراً لاستقبالك إياي والأخذ بيدي في هذه المدينة المضطربة المعقدة. أتيت لأكتشف نابولي ولأكتب، وقعت في مصادفة قوية وهذا بفضلك أنت وبفضل فطنة قلبك وحضورك المترع باللطف. أريتني الطريق لأتعرف على نفسي. اكتشفت كائناً سلبياً يتخيل الحياة بدلاً من أن يحياها ويواجه الآخرين. عندما قررت أن أخرج

من جلدي القديم التقيت بالحب، هوى عابر وكثيف وضعني بقسوة أمام نفسي، سأواظب على التفكير بك وبكل ماعلمتني إياه وأنا أعيد النظر في قصتك آملاً أن أفهم الرباط السري، الرباط السحري القائم بينك وبين كينزه، تلك التي أحببناها كلنا في لحظة من حياتنا. كينزه نور النيزك الهارب الذي مر في اللحظة نفسها التي لم نعد نعرف فيها أين نحن وماذا نفعل، وهج وضعنا أمام أنفسنا، ومعه نافذة مفتوحة على الحب الكبير الذي دفع حياتي وجعلها أفضل. أعرف أن كينزه ستتابع طريقها المرسوم، طريق التبانة وأنها لن تعود أبداً لتخفف عن جينو دموعه المرّة، ولالتأخذني من يدي لتحبس نفسها معي في شرفة أدار لنا الزمن فيها ظهره لكي لايزعجنا. أعدك أنني سأعتني بمومو، سأفعل كل شيء لكي لايبقى مجروراً في شوارع نابولي مثل متسول أو متشرد. أعدك بأن أعيده إلى أرضه وقريته وعائلته، هناك حيث يصبح أخيراً نفسه، هادئاً ومتصالحاً مع أفريقيا التي يحملها فيه مثل بديهية دون أن يعرف كيف يحبها. أما الآن فسأصغي إلى ما تضج به نابولي».

ركعت على ركبتي ووضعت رأسي على بطن العجوز. أذني طنَّت. لم يكن كل شيء قد مات فيها، فهذا يقرقر وهذا يغلي وهذا يتحرك. سمعت صراخاً وجلبات وموسيقى وصفيراً يضخمها كلها الصمت الكبير. عيناي كانتا جافّتين لارغبة لي بالبكاء. البطن مازال فاتراً، كل ضجيج المدينة كان يمر عن طريق هذا البطن البالغ الاتساع، البالغ العرض، الذي لانهاية له. إنه يرنّ، إنه بطن نابولي، نابولي في زمن الطاعون والكوليرا، نابولي المجتاحة المقاوِمة، السرية الخفيّة. نابولي التي تتجلى في جنون الأطفال القتلة، بملل الأرامل المتسربلات بالسواد، نابولي التي يكدّها العرق، ذات البطن السمين والعيون نصف المغلقة والسيقان المنفرجة مقدمة نفسها لريح المساء. سمعت قلب نابولي يخفق بإيقاع بطيء ترقِّطه بين الفينة والفينة انقطاعات مفاجئة كما لو أن كل شيء قد توقف ثم

مايلبث كل شيء أن يبدأ من جديد. الضجيج كان بعيداً ويزداد غموضاً أكثر فأكثر، أما أنا فقد كدَّني العرق بينما ثقُل رأسي الموضوع فوق بطن إحدى الأساطير.

المأتم كان فخماً. كل الطائفة الأفريقية تقريباً وصلت في الصباح الباكر إلى ساحة النزل الكبرى. الأميرة مليكة رقصت حول التابوت وتبعها حوالى العشرين من البنات الجميلات الأنيقات اللواتي أنشدن «ترتيلة الأبدية السعيدة». وبعد هذا الإنشاد أحضر جينو الذي ارتدى السموكنغ على قد قامته، وكان حليق الذقن ونظيفاً، أحضر شاحنة وضع عليها بيانو، وكان سائقها ناقل أثاث مرَّ من هناك ووقف للاستماع إلى الأغاني والتراتيل. جينو صعد إلى خلفية الشاحنة وجلس على مقعد وعزف سوناتا رائعة حزينة ومفرحة في الوقت نفسه هي سوناتا التحرير. شعرنا أنه غدا شخصاً آخر، رجلاً حراً، فناناً ارتبط ثانية بفنه، رجلاً هادئاً رائق البال. عزف بدون تردد ولااضطراب. شُدهنا كلنا بموهبة هذا الغريق القديم، وبكى مومو وهو ممسك بيدي كما لو أنه يمسك بي مخافة أن يجد نفسه وحيداً ومهجوراً. كينزه كانت تقف بلا حراك متسربلة بلباس أبيض وتضع على عينيها نظارات شمسية. لم تكن تبكي. وقد حمل نعش العجوز مومو وثلاثة من الأفريقيين، وتركنا النزل قبل الظهر واجتزنا المدينة على الأقدام بينما السيارات تقف مفسحة الطريق لهذا الموكب. واعتقد رجال الشرطة أن الجنازة هي لإحدى الأميرات الأفريقيات. كينزه قالت لهم إنها ملكة تلك التي يدفنونها. وقد تأخر الدخول إلى المقبرة لأن الحارس ظن أنه كرنفال أخطأ العنوان، فالأفريقيون كانوا يلبسون ألبسة ذات ألوان صارخة ويغنون، وبعضهم كانوا يتقدمون وهم يرقصون. ووجب تقديم إجازات الوفاة والدفن، ولم يكن أحد قد فكر بالحصول على هذا النوع من الوثائق. ومن حسن الحظ أن البواب كان هناك وأبرز بطاقتها. على أن الحارس لم يكن بإمكانه على كل حال أن يمنع هذا الجمهور من

الدخول. وبحسب ذاكرة حفاري القبور فإنهم لم يروا مثل هذا من قبل، إذ أن العجوز تابعت إدهاش الناس حتى إلى مابعد مماتها. وكان الربّاني يمشي إلى جانب المفتي، وهو من مالي طوله متران. روبيرتو أخو المتوفاة كان يتبعنا فوق كرسي متحرك، ولم يستمر الدفن إلا وقتاً وجيزاً إذ قرأ الرباني الصلاة اليهودية وقرأ المفتي أولى سور القرآن، ورفعنا أيدينا المضمومة ونطقنا ببعض الأدعية. وفي هذه اللحظة انبثق كاهن من بين الجمهور وقدّم نفسه وهو يعتذر لأنه حشر نفسه في هذا المأتم الخاص وطلب أن يتلو صلاة عن الكنيسة الكاثوليكية على هذه المرأة التي بجمعها فيها ديانتين توحيديتين لاتستطيع أن تستثني الديانة الثالثة. قرأ بعض الجمل المحمَّلة بالرموز الجميلة وأبدى أسفه لأنه لم يتعرف جيداً على هذه السيدة الكبيرة من قبل.

لاأعرف من هو الذي أعطى الأمر بالتفرق. رأيت جينو خارجاً من المقبرة دون أن يلتفت. كان وحده. وبقيت هناك، يدي في يد مومو نبحث عن كينزه بأعيننا. كانت قد اختفت. عبق من عبير الجنة غمرنا، وقد هبط المساء بلطف على نابولي. رفعت عينيّ نحو السماء وكذلك فعل مومو وقد دفع بصرخة: «نيزك هارب! لم يكن لدي الوقت لأقدم أمنية».

15

بعد خمس سنوات تركت النزل ونابولي. أُغلق العنبر بأمر المحافظة لدواعي الأمن. وكنت قد قمت بترتيبه ترتيباً حسناً، أبدت منه الجرذان وأعدت طلاءه وخاصة جعلت منه شيئاً مختلفاً عن مكان للمهملات ومستودعاً للقصص. فالعجوز كانت قد حملت معها كل أسرارها، الصندوق فارغ، والجماجم اختفت، وأنا أشك بأن مومو هو الذي باعها أو أعطاها للأميرة مليكة لاستخدامها في جلسات السحر واستحضار الأرواح. لقد حولت هذا المكان المكتظ بالذكريات إلى تراتوريا (مطعم شعبي) غريبة يستطيع المرء فيها أن يأكل أطباقاً إيطالية وكذلك طاجناً مغربياً. أنا مولع بالطبخ، وهذا يريح أعصابي ويعفيني قليلاً من الكتابة. وقد عرف العنبر ساعة مجده في الوقت الذي كان يعرض فيه فيلم إيتوري سكولا. فمارسيللو ماسترورياني كان يحب كثيراً المطبخ المغربي، إذ حدثني عن عشاء له في مراكش عندما كان يعرض فيلماً لليليانا كافاني، وقد لاحقته هذه الذكرى فصار يرتاد العنبر لبضعة أسابيع ثم اختفى. وجاء الإغلاق عندما مللت من كل هذا، وكنت احتفظت ببعض المال على حدة، وبدون الكثير من التفكير حصلت على تذكرة قطار للعودة إلى المغرب. ولكن لِمَ القطار؟ ذلك لأن العودة يجب أن يهيأ لها، فينبغي أن أُعدَّ نفسي لفكرة العودة وترك هذه المدينة التي ارتبطت بها وتعلقت. كنت بحاجة للوقت قبل الوصول إلى مراكش،

فبدلاً من يومين قررت أن هذه العودة ستدوم أسبوعين في رحلة بطيئة وطويلة. كانت هذه فكرة فالزمن لاينخدع. كان الأمر كأنني أمشي على قدمي. ربما استطعت أن أجد مهنة أخرى وأستقر في إيطاليا ولكنني اشتقت لمراكش، احتجت لضيائها وغبارها وسماع ضجيجها الصباحي. أصوات الأطفال الذين يصرخون وهم يلعبون بكرةٍ من الخِرق، صراخ باعة الأسماك. احتجت لأن أشم عطر أشجار البرتقال مصعداً في الهواء، أن أشم روائح الحياة. احتجت لأن أسمع هذه الجلبة الغامضة الصاعدة من المدينة والتي تعيدنا إلى الطفولة. أحياناً يكفيني أن أقوم بدورة بين المحطة والمرفأ في نابولي لأفرغ هذا الحنين وأتلقى في وجهي كل بلاد مولدي. أقول لنفسي: «يكفيك قلقاً، فإيطاليا هي المغرب». كنت أشتهي أن أجد بلدي حيثما ذهبت. كلما اشتقت إليها كلما ازدادت جمالاً في خاطري. ولقد توصلت بعد غياب هذه البضع سنوات التي قضيتها في نابولي ألا أهتم بعد ذلك بفطومة. لم أرغب بمعرفة إلامَ آلت إليه. كانت أمي قد ذكرت لي ذلك بعبارات قاسية، فأكدت لها وقلت بأن ذلك ليس خطيراً. فقالت لي: «عليك أن تفهم يابني أنها لم تعد تأتي لرؤيتي حتى لتقدم لي تمنياتها بالعيد! يالها من قلة تربية! والداها تعيسان لايعرفان ماذا يفعلان لإعادتها إلى رشدها. إنها من يسمونها جاحدة ناكرة للجميل. نسيت كل شيء، نسيت المعاملة الحسنة التي عاملناها بها، انزلقت قدماها. وقعت مع رجل أجنبي!»».

أما أولادي فقد نجحوا في امتحاناتهم وهم يحادثوننا بالهاتف من حين إلى حين. وقد قدموا مرة لزيارتي وأدهشوني بأنهم قرروا أن يعيشوا في كندا. إنهم لايشتاقون إلى المغرب إلا نادراً. تناقشنا طويلاً في أهمية الثقافة والجذور فذكروا لي حالة العديد من رفاقهم المجازين الذين عادوا إلى الوطن ولم يجدوا عملاً، ولم أكن في موقع أستطيع معه معارضتهم ولكنني كنت على ثقة من الأرض المغربية ومن الجذور التي نحملها فينا والتي تقودنا دائماً إلى أرض وطننا ومولدنا. إنني حريص جداً على ألا أتدخل في القرارات التي

يتخذها أولادي تماماً كما فعل والداي معي ومع أخوتي. سأذكر دائماً ذلك الصباح من الشتاء حيث البرد شديد جداً وقد جمعنا والدي الذي لاحظ أننا لانقيم الصلاة. لابد أنه كان لي من العمر سبع سنوات. قال لنا: «ياأولادي، أعرف أنكم لم تقيموا صلاة الفجر، وأعرف أن الماء متجلد وأن الوضوء ليس سهلاً. لست فخوراً بكم ولكنكم الآن كبار، إذا كان لابد من توبيخكم فإن الله وحده هو من يفعل ذلك. أما أنا فقد قمت بواجبي كأب ودللتكم على طريق التقوى وعلمتكم التمييز بين الخير والشر. ديننا قائم على الخوف كما هو لدى اليهود والمسيحيين. وقد أقول إن الإسلام قائم على المسؤولية. تعلموا واحترموا قيم الحياة وهي سهلة: لاتكذب، لاتسرق، لاتسيء لإنسان، ساعد من يحتاج إلى المساعدة. ستكونون مسؤولين وحدكم أمام الله يوم الحساب الأخير، فالصلاة وصيام رمضان هما مسؤوليتكم. وكما قال المثل السائر: كل دابة معلقة من عرقوبها. فاتعظوا». ولم يعد يوبخنا أبداً. أصبحنا أحراراً في أن نقيم أولا نقيم الصلاة، وقد أفادنا مفهوم الحرية هذا الذي سعيت لترسيخه في أذهان أبنائي، وأنا أعرف اليوم أنهم أحرار.

كنت في سبيل تهيئة أشيائي عندما تلقيت زيارة عجيبة. امرأة صبية سمراء ذات شعر كثيف متمرد أسود على شكل حلقات صغيرة (مفلفل) مع انعكاسات لامعة حمر تركتها الحناء، عيناها فاتحتان ونظرتها مستقيمة، دخلت إلى المطعم على كرسي متنقل على عجلات يدفعه رجل عجوز حسبته والدي للحظة خاطفة. الهيئة نفسها والنظرة نفسها، نظرة طيبة يراد بها أن تكون حازمة ولكنها ليست كذلك. فركت عينيّ، لاحظت أن الرجل العجوز عنده كل أسنانه بينما والدي لم يحتمل أن يضع في فمه فكاً مستعاراً. المرأة الشابة ألقت نظرة على علب الكرتون المكدسة، قامت بجولة في المكان وقالت:

ـ يومك سعيد. أنا إيزا ابنة أخ الأستاذ دورنا وهذا أبي. علمت أنك كنت في نابولي ولكنني لم أتجرأ على إزعاجك. أتيتك برسائلك

وبعض البسكويت الذي صنعته بنفسي وآمل أن تحبه. وضعت فيه من الزنجبيل وحبات من السمسم وقليلاً من السكر.

لم أعرف ما أقول. مدت يدها بلفة الرسائل فلم أشعر بالرغبة في فتحها، اللفة كانت كثيفة ولاأذكر أنني كتبت كل ذلك، وقد لاحظت دهشتي وقالت:

ـ فيها أيضاً بعض الرسائل التي كتبتها لك ولم أرسلها. ستقرأها فيما بعد.

أبوها كان له لحية لم تحلق منذ بضعة أيام، ويلبس معطفاً عتيقاً. لم يكن مرتاحاً، وعندما أنظر إليه يخفض عينيه.

ـ إيزا، هي أنت!

ـ نعم أنا. أنت تذكر صوتي على الأقل.

ـ لِمَ اختفيت؟ بحثت عنك مدة طويلة.

ـ لم أكن في حالة صحية جيدة ووجب علي أن أبقى متمددة ليلاً نهاراً، ولم أتمكن من التنقل على الكرسي إلا منذ بضعة أشهر، ثم إنني أحببت أن أبقى في الغيوم. لقد تخيلتك أطول قامة. عجيب ماتزرعه فينا مخيلتنا. وأنت كيف كنت تتخيلني؟ أعرف، إنه السؤال الذي ماكان عليّ أن أطرحه. منذ مدة طويلة لم يعد لدي أي وهم رغم ماكانوا يقولونه ويعتقدونه.

ترددت برهة:

ـ لم أكن أتخيلك على كرسي متحرك.

ـ هل خاب ظنك؟

ـ تأثرت. هذا غريب! تظهرين تماماً في اللحظة التي أستعد فيها لمغادرة البلاد، حتى ليمكن القول إنك تعمدت فعل ذلك، أخيراً، لنقل إنها مصادفة. أرغب في أن أراك ثانية وأن نتحدث كما كنا نفعل في مكاتباتنا.

ـ لاأعتقد أنها فكرة حسنة. قررت أن أقدم لك نفسي بعد الكثير من التردد. إنه الخادم المغربي الذي يعمل عند ڤيسوڤو من أعطاني عنوانك، هل تذكر توني؟ لقد تركت لي رسالة على العنوان الذي كنا نتكاتب عليه وكان عليها اسم الفندق. لم أفكر بلقياك. والآن وقد التقينا نستطيع أن نقول وداعاً.

ـ ليس بهذه السرعة. أستطيع أن أقدم لك شيئاً تشربينه؟ شاياً بالنعناع مثلاً....

سعل العجوز وقال لي بهجة آسفة:

ـ يجب عليها أن تتابع إقامتها في المستشفى. لقد بذلت اليوم جهداً كبيراً لمقابلتك. يجب أن نذهب.

ـ قولي لي أين ستكونين، أحب أن آتي لزيارتك.

ـ كلا، خاصة هذا. اقرأ رسالتي الأخيرة. أعتقد بأنها تحمل نيزكاً صغيراً هارباً في أعلى إلى اليسار، وستفهم بشكل أفضل لِمَ لاأرغب أن يزورني أحد، وداعاً ياصديقي.

تركا النزل دون أن يلتفتا. لم أعرف بمَ أفكر وماذا أفعل. كنت مضطرباً. كل صور الماضي اختلطت في رأسي ثم مالبثت أن تلاشت في هاوية ولم يعد لدي إلا غبار من صور. نظرت إلى لفة الرسائل وانتابني إغراء لحرقها. كانت مرتبة بحسب تواريخها. فتحت مصادفة واحدة من رسائلها. كانت رسماً بقلم فحمي: غولة تشبه العجوز تأكل أطفالاً. كانت قاتمة، حزينة. فتحت تلك التي طلبت مني أن أقرأها، خطها فظ غير واثق. وقرأتها:

صديقي العزيز

نقمت على نفسي لأنني لم أقل لك الحقيقة، لأنني صنت ورعيت، بدافع من ضعفي، وهم علاقة قائمة على صداقة ليس فيها منغصات. وإنني لأحرص على شكرك لأنك كتبت لي كثيراً وخابرتني بالهاتف. لاتستطيع أن تتصور كم كنت أنتظر رسائلك ثم نداءاتك الهاتفية، كم كان ينتابني الفرح عندما أشعر بأن إشارة منك ستصل إليّ. كرهت

أيام العطل ونهايات الأسابيع لخلوها من ساعي البريد. كم أحببت عباراتك ومشاعرك رغم علمي بأننا كنا نبني قصة حب كما يفعل المراهقون السذج، ولكنني كنت بحاجة لهذا الهواء النقي الذي يأتيني من مراكش، تلك المدينة التي أعرفها الآن دون أن تطأها قدماي. أعرف كل شيء عن هذه المدينة. قرأت عنها مالايقل عن عشرة كتب وشاهدت العديد من الأفلام. مافضلته ليس فيلماً وثائقياً بل هو فيلم رائع لألفريد هيتشكوك، ذلك الرجل الذي يعرف عنها الكثير. وبدايته تجري في ميدان «جامع الفنا JAMAAEL FNA» حيث نشاهد مكاناً يعج بالناس وخاصة نشاهد امرأة مراكشية محجبة ترتدي جلّابية، تمر راكبة عجلة (بيسكليت)، (وأعتقد أنها تحمل على رأسها مكنة خياطة من نوع سنجر). هذه الصورة استولت على تفكيري مدة طويلة. كثيراً ما اعتقدت أن هذه المرأة هي أنا، وطبعاً كنت أروي لنفسي القصص، وأقول بيني وبين نفسي على الأقل إنها كانت قصصاً رائعة خارجة عن المعتاد.

هو عمي الذي خطرت له فكرة أن يجعلنا على اتصال. لاأعرف ماذا قال لك ولم أجرؤ على سؤاله. في ذلك الوقت كنت مكتئبة محبطة النفس، والأطباء متشائمون، ولم تكن لي رغبة في الحياة، ومع ذلك كانت شهيتي للحياة على أقصى اتساع. عندما تلقيت رسائلك الأولى حاولت أن أحدثك عن مرضي وأن أضعك في مجرى ماأعانيه، ولكن أن أعيش معتمدة على احتمال التزود بشيء يشبه قصة حب أعطاني النشاط والإرادة. لقد كنت أفضل وأقوى من الأطباء دون معرفة منك.

عندما حدثتك عن هذه المسابقة كنت مقتنعة بأنك قد لاتكسبها، ولم تكن لدي الرغبة في أن أكسر هذا الرباط السعيد، تلك القصة التي لاتشبه شيئاً آخر. كذبت عليك عن إهمال مني، تلك هي جريرتي وخطئي، يحدث لي أن أعيد قراءة رسائلك فكانت تشعرني غالباً بالاضطراب. أنت شاعر. حزرت بأنك قد لاتكون سعيداً جداً في حياتك الزوجية. استخلصت هنا وهناك بعض الانطباعات المرة عن حياة زوجين، وأنا إلى جانبك. إنني لم أرغب قط بارتباط قسري من نوع الزواج حتى ولو كان مبنياً على حب كبير، بل أقول: خصوصاً

إذا كان وراءه حب كبير. ولقد انتهيت إلى اعتبار أننا كلانا مسوقان إلى التخلص من القسر عن طريق الخيال. أما أنا فلجأت إلى التصورات لأنسى مرضي، ولجأت إليها أنت لتتخلص من زواج تعيس. وهنا نقطة التقائنا. هنا قدرنا، الفرار إلى عالم داخلي، إلى عالم من الحرية والإبداع. أنا أرسم وأنت تكتب، ولكن عندما لايكفي الرسم ولا الكلمات يأخذ المرء طريق الفرار إلى الهذيان، إلى نفق الرعب والموت، إلى الهلوسات.

سآتي يوماً لأراك، وسأكون مصحوبة بأبي الرجل الوحيد في حياتي.

أود أن أقول لك شكراً ووداعاً. وسيكون ذلك أفضل.

جلست على أريكة العجوز القديمة وأحسست بجسدي يبرد ويقشعر. لدي جارة أولى هي العجوز التي كانت تبتسم لي وهي تكلمني دون أن أسمع ماتقول، إنها تقوم بحركات من يدها لأنضم إليها أو لأقترب منها وكنت عاجزاً عن الحراك.

والجارة الثانية تقبع هناك، في مراكش: فطومة التي تقوم بالدوران حولي فوق عجلتها تحمل فوق رأسها آلة كتابتي التي تخرج منها أوراق تضيع في ساحة «جامع الفنا». ثم سقطت منها كلمات في فقاعات من الصابون، رسائل تتحرك دون أن تشكل كلمات متماسكة. تتحطم تاركة بقعاً على الأرض. فطومة كانت تزدريني. قوية من الناحية الجسدية. تدور بدون توقف وتضحك بقهقهات والآلة الكاتبة مثبتة على رأسها. لم أستطع أن أتحرك أو أنطق بكلمة، أغلقت عينيّ وتوقف الدوران.

صورة إيزا في المقعد المتحرك كانت تستولي على تفكيري، وقد نقمت على نفسي لأنني لم أعرف إبقاءها.

لقد فهمت بطريقة حاسمة أنه لم يبق لي شيء أفعله هنا وأن عليّ الرحيل، لا بالقطار ولا على قدميّ ولكن بالسرعة القصوى، بالطائرة.

وضعت لفافة الرسائل في كيس من البلاستيك وزلقته في حافظة الأوراق التي رتبت فيها دفاتري.

مومو عاد إلى السنغال، وقد أصبح كبير فرقة الأميرة مليكة. ففي اليوم الذي شعرت فيه بأن ساعتها قد دنت اكتفت بحمل صندوق صغير مليء بالذهب والفضة ورحلت معتمدة على ذراع مومو. وقد علمت فيما بعد أن مومو حصل على إرث كبير وأصبح غنياً فعاد إلى نابولي واشترى ليس كامل النزل بل اقتصر على العنبر الشهير الذي أقامت فيه العجوز، وكانت البلدية قد ختمته بالشمع الأحمر واستعدت لإجراء مناقصة عن أعمال إصلاح في النزل. وجرت شائعات بأنه قد يصبح متحفاً للفن الحديث، وآخرون قالوا إن الكامورا اشترته من المدينة لتجعل منه فندقاً فاخراً مخصصاً لعملائها العالميين. وفي خلال بضعة أيام اهتمت الصحافة كثيراً بهذه المؤسسة بسبب مأساة ناجمة عن الغيرة، فقد فَقَد حارس موقف السيارات أعضاءه التناسلية أثناء نومه إذ هاجمه رهط من الكلاب الجائعة. وقال آخرون إن امرأته المريضة بالغيرة سوَّت مشكلة الخيانة الزوجية على هذا الشكل. أما أندري المتسكع فقد أكد أن جماعة من خُلد النزل هي التي هاجمت هذا الشخص الشرير. الشرطة أوقفت الزوجة التي أنكرت بشدة كل مشاركة لها بالمأساة. وهكذا، وبلمح البصر، لم يعد نزل المساكين مجهولاً من السائحين، ووعدت البلدية بأن تجعل منه مكاناً مكرساً للثقافة.

مومو كان متضجراً، يبكي في أغلب الأحيان موت العجوز. يرتدي ألبسة حسب الدارج ويدخن اللفائف الأمريكية ويشرب النبيذ الرديء. لم يعد له من صُوى ترشده إلى الطريق ولايعرف ماذا يفعل فيجر قدميه في الطرقات. حاولت أن أرشده وأقنعه بأنه ربما يكون أفضل حالاً في بلده ووطنه ولكنه أراد أن أكون في رفقته. فكرت لبرهة أن أقترح عليه المجيء معي إلى مراكش لقضاء بضعة أيام ومن هناك إلى دكار ولكنني فهمت أنه دخل إيطاليا بدون تأشيرة

وأن من الصعب عليه العودة إلى بلده دون أن يعتقل. وهو يعتمد على نصحاء من السوقيين الفاسدين الذين يسلبون ماله ببيعه أي شيء وخاصة أشياء مسروقة يحاول بيعها على الأرصفة. وقد اعتقلته الشرطة بتهمة السرقة وإخفاء المسروقات فسجن ثلاثة أشهر قبل أن يُطرد إلى دكار، وهو الذي روى لي هذه الأحداث في رسالة بعثها إليّ:

أخي ومع ذلك صديقي

أتمنى لك يوماً سعيداً والصحة والزهو والسعادة. أنا مشتاق إليك، مشتاق إليك وآمل أن تكون في شوق إليّ. الطقس حار كأنه فرن بيتزا ولكن الشجرة تعطي ظلاً لمن يعرف أن يسند ظهره عليها. أنا لم أتوصل لأن أتربع في جلستي كما يفعل الآخرون. أنظر وينظرون هم إليّ ويضحكون. أنا لاأضحك ياأخي لأنني أفكر دائماً بك وبماما رحمها الله وتقبل روحها الرحمن الرحيم. أحلم بك، أحلم بها، آه ياصديقي، الإيطاليون ليسوا لطفاء مع مومو! سقوني جعة مليئة بالسم، وعندما مت، عندما لم أعد أتحرك، سلبوني كل شيء. وبعد ذلك أتمت الشرطة العمل. استيقظت في طائرة مضيفتها سوداء مثلي وهي تقول لي بأنني عائد لبلدي مروراً بالشرطة الوطنية. أوه ياأخي! انتابني صداع في رأسي وأصبح يدور، يسقط وألتقطه، وضعته أمامي ولكنه عاد وسقط. أخيراً لاأدري ماإذا كنت أشرح لك جيداً، ولكن رأسي كان يؤلمني ولاأعرف أين أنا. بطني أيضاً كان يرتفع وينخفض، كل شيء يدور.

المضيفة السوداء بدت لي مثل بقرة في يوم السوق، تصرخ ولاتريد أن تتقدم. ولدى وصولنا إلى البلاد كنت آخر الخارجين من الطائرة. قالوا لي «لاتتحرك» فلم أتحرك. ووصلت الشرطة. آه ياأخي! لاأعرف كيف هي الشرطة في بلدك، أما هنا فهي ليست حسنة اللباس. دفعني أحدهم واعترضني آخر. كانوا يتكلمون التاكيواكي، أنت تعرف هاتف البورصة. قالوا ابق هنا بعيون واسعة حمر، وبقيت ثلاثة وثلاثين يوماً في السجن. لن أقول لك ماهو لأنني

أعرف أنك ستتقيأ بسهولة. إذن لن أحدثك عن الجرذان والعقارب والعناكب والنمول والبول وحتى الشيء الآخر. أخيراً خرجت وذهبت إلى قريتي مشياً على الأقدام. قضيت في المسير يومين وليلتين. ولكن الناس طيبون، أعطوني الأكل والشرب، حتى أنني قابلت امرأة أرادت أن تتبعني ولكنها جرباء. يجب على المرء أن ينتبه. أعطيتها ساعتي الرولكس فغدت راضية. وفي القرية كان عمي العجوز غاضباً، قال لي بأنني فاقد الشرف في القبيلة، وأنني العار الذي يصعد إلى وجه العائلة، وأن عليّ أن أذهب لأواري وجهي في البئر، القديم لا الجديد الذي فيه ماء. كنت عطشاً ولاأجرؤ على طلب الماء. أواه ياأخي ومع ذلك صديقي! لقد علمتني العجوز كل شيء وأعتقد أنها ليست راضية عني. رأيتها في المنام فكانت مقطبة الوجه. تهددني بعصاها. أخاف ولاأشعر بالفخار منذ موتها ولم أعرف إلا الشقاء. لاأعرف كيف تعيش أنت الآن. أما أنا فلم أجد الظل تحت الشجرة، أنتظر غروب الشمس لأذهب إلى تحت الشجرة حيث أشعر بالحماية والأمان وكأن أوراقها وأغصانها يدا ماما المفتوحتان.

لن أستطيع الخروج من البلاد. لاجواز سفر، لانقود، لايوجد سوى الشمس والصمت. عمي قال لي إن حصانه مات وإنني أستطيع أن أحل محله. عليَّ أن أجر العربة، وقد أعطاني قبعة كبيرة وأعطاني ظلاً. في أحد الأيام سأتزوج ولاأدري ممن، ولكن عدني يا أخي أن تأتي لتحضر حفل الزواج فهذا مهم. تصل إلى دكار وتأخذ طريق المدينة، وتلتفت في أول طريق إلى اليسار وتتابع لمدة نصف ساعة ثم ترى لافتة أتيت بها من نابولي «بيتزا ليبيرتو»، لاتستطيع أن تنخدع، اللافتة مدقوقة بمسمار على الشجرة الأكبر قبل مدخل القرية، هناك تسأل عن مومو فتجدني. أتمنى لك الصحة السلامة والحب الخالي من المنغصات.

مومو أخوك ومع ذلك صديقك

عندما وصلت إلى مراكش تلقيت في وجهي قبضة من الرمل

الأحمر كانت الريح العنيفة تنزهها عبر المدينة. كانت مثل تصفيقة ترحيب، بعضاً من تراب بلادي وضع نفسه في منخريّ وعينيّ. لاشك إذن أنني أصبحت في وطني، في بيتي. مشيت وأنا أشعر بثقل في قدميّ لأن الأرض تمسك بهما. نظرت إلى الجبال البعيدة التي مازال عليها الثلج فوق قممها، بينما السماء ذات لون أزرق نقي. يقول بعضهم إن مراكش لاتملك بحراً ولكنها تملك سماء البحر. تقدمت ببطء على أرض المطار فتنافس حمّالان على حمل حقائبي. لم أقل شيئاً أمام موظف الجمارك وتركته يفعل مايشاء، فتش ولم يجد شيئاً. لايوجد إلا ثياب عتيقة وكتب وأسطوانات، كما يوجد أيضاً ثلاثة قمصان جديدة ملفوفة بالسيلوفان. وضعها على حدة وقال لي: «يجب أن تدفع الجمرك»، وبهدوء قلت له إنني قد لاأدفع. «هذا ماسنراه»، صرخ فيّ وأدخلني إلى غرفة صغيرة وخلع عني ملابسي فأصبحت في تمام عريي. تركته يفعل. وعندما عدت لارتداء ملابسي قال لي بصوت منخفض: «أنت عنيد، أضعتَ وقتي، إذن بثمن قدح صغير من القهوة قد تصبح في منزلك». تظاهرت بأنني لم أفهم، تناولت القمصان وفتحتها وأريته لصاقة مخبأة كتب عليها «صنع في المغرب». وهكذا أُغلق الحادث. تركني وانقض على مسافر آخر بدا أغنى مني وربما أكثر تعاوناً في زحلقة ورقة نقدية في اليد. أخذت سيارة أجرة من نوع «فيات أونو» مخلّعة بما يكفي وسائقها له هيئة مضحكة يستاء من كل شيء ويبدو أنه ليس سائق سيارة أجرة في الأصل. يمكن القول إنه أُرسل إلى هناك ليلتقطني عند باب المطار. كان غاضباً وربما كان ينتظرني هناك في هذه السيارة العتيقة الصغيرة منذ سنوات. وبدون أن يسألني رأيي اعتبرني شاهداً: «أنت تفهم، هنا عندما تسوء الحال يلتفت الناس كلهم إلى «السيّد». أنت ترى كيف أن السماء زرقاء تماماً بدون أثر لسحابة، لاشيء، أتدري ماذا يعني هذا؟ يعني أن عدد الشحادين سيتضاعف هذا العام لأن الجفاف هنا، إنه في السماء وفي الجيوب. إذن، هم يقولون في التلفاز بأن علينا أن نصلي كي تسقط الأمطار. هذا سهل،

سهل جداً، أنا لاأصلي ولكنني أصوم رمضان، وأقسم لك بأن الصلاة لاتُسقط قطرة واحدة من المطر، فلو كان هذا صحيحاً لتاجرت أمريكا بها، نعم، فقد تبيع علباً صغيرة من الصلوات والأدعية مكتوبة بكل اللغات ولكل الديانات. بلى ياعزيزي، هنا يعتقدون بأي شيء. بصراحة، أنت الذي لك هيئة رجل متزن وجاد، أنت الذي تعود من الخارج، هل تؤمن بهذه الإشاعات؟ لاحظ السيد، ذلك الذي في الجبل، إنه يحب الإشاعات، حتى أنه هو وحاشيته من ينشرونها، أخيراً يا عزيزي، الحياة في هذه البلاد حلوة على شرط أن يكون لديك المال وأن تعرف أناساً ذوي مكانة عالية ومراكز عالية، وألا تقول ما يسيء للحكومة ولا للشرطة ولا للجيش ولا لموظفي الجمارك... أن تخيّط فمك. أنا لم أتوصل إلى ذلك. عندما أرى هؤلاء الأولاد يركضون وراء السواح بدلاً من أن يكونوا في المدرسة، وعندما أرى رجال الشرطة ورجال الدرك يبتزون المال من سيارات الأجرة والشاحنات، وعندما أسمع ماأسمعه وعليّ إغلاق فمي فإنني أتكلم، على أنني أكثر من الكلام حتى يصل الناس إلى عدم الثقة ويعتقدوا أنني من الشرطة وأنني أنتقد لأجعلهم يتكلمون، كلا ياعزيزي، إنني أكره الشرطة وإذا كنت لاتقول شيئاً فإنني أرى في مرآتي أن وجهك على اتفاق معي، لابد أنك رجل نزيه وشريف، أعرف ماأقول، أخيراً لقد وصلنا والحساب اثنان وأربعون درهماً».

هذه الجمل المقولبة التي تفتقد الأصالة عن حالة البلاد هي جزء من المشهد. طالما سمعت هذا النوع من الخطابات التي لم أولها أي اهتمام لها ولما تعنيه. على كل حال لابد أن سائق سيارة الأجرة هذا له وظيفة أخرى، ليس شرطياً ولكنه واحد من آلاف المواطنين الذين يحتاجونك شاهداً ليقولوا لك مافي قلوبهم ويخففوا عنهم. هذا الهوس بالنقد المرتبط بالنوادر والمُلح والنكات لم يتغير قط.

خمس سنوات على غيابي ولم يتغير شيء. هذا مايُقال. ولكن فقدان المساواة يزداد أكثر فأكثر. بعض السكان رأوا قامتهم تطول.

شعروا بالغبن إن احتفظوا بتوازنهم كتجار إذ خافوا من هبّات الريح. وعلى بعض الوجوه يبدو نوع من الشراسة والاستسلام، شيء يشبه الانتظار المشحون بالعنف. وجوه أخرى كانت مستكبرة وأجسادها متورمة منتفخة من تكديس الأموال السهلة التي جُمعت عن طريق الخداع والاستخفاف بالناس. هذه الوجوه حمر بلون المغرة وتشبه التراب. وعلى الجلد تُرى ثآليل تتضخم شيئاً فشيئاً وبثور وحتى ثقوب.

أكان علي أن أسافر لكي أرى في العودة مالم أكن أراه؟ كنت أنا نفسي أيضاً مفتوناً بالسيد، الكبير، الذي لايعرف الناس وجهه بل يظهر نفسه من حين إلى حين عن طريق خطب يقرؤونها في الجوامع. أولياء مراكش القديسون السبعة هم تحت الرقابة الرمزية للسيد الكبير الذي ينزل إلى المدينة مبرقعاً كما هو الأمر في زمن هارون الرشيد. كنت قد نسيته تماماً لأن نابولي شفتني من هذه التقاليد البالية، ولكن المراكشيين بقوا تحت نفوذ ولي الأولياء وقديس القديسين. مامن أحد يضع وجوده موضع الشك. طبعاً هو موجود وهو دائماً إلى جانب القادرين الأقوياء، ولكن الفقراء يتدلهون بهذا النوع من الشخصيات.

أصبحت أمام منزلي. لم يفتح لي الباب أحد. واحد من طلابي القدامى كنت قد عينته معاوناً أتى للقائي. في هذه البلاد تصل الأخبار سريعاً. كان ذكياً وشجاعاً وأصبح محاسباً وكاتباً عاماً وهو يعيش حياة مريحة، وهو الذي أعطاني الأخبار الرئيسية. لخص الموقف في جملة واحدة: «أولاً أنت شطبتَ من ملاك الجامعة على يد الوزير ثم على يد زوجتك التي استنتجت لطول غيابك أنك متَّ فتزوجت ابراهيم البقال الذي كان يقدم لك حاجاتكم المنزلية على الحساب والذي بقيت زوجته الأولى في البلد ولم تعد تعجبه، وقد رغب في أطفال جدد ولكن فطومة لم تنجح في إنجابهم بسبب السن، فاستمرت في زيارة مشايخ الإخصاب في طول البلاد وعرضها على

نفقة ابراهيم البقال المعروف بالبخل وبحسه المرهف في ميدان الأعمال، فجعلها تبيع البيت، بيتك، وكان من لطفها الزائد أن نقلت متاعك إلى غرفة المؤونة، ولم يجد المالكون الجدد في ذلك مانعاً كبيراً لأن فطومة تنازلت لهم عن جزء من ثمن الشراء. والواقع أن الغرفة مؤجرة باسمك في حال أن تبعث حياً في أحد الأيام. ذلك هو الوضع، وإنني لأشعر بالفرح والسعادة في أن أراك أمامي بلحمك وعظمك يامعلمي وصديقي!».

وهكذا لم يعد لي مركز في الجامعة إذ أصبحت كما يقولون «مشطوباً من الملاك». ورجل مشطوب هو رجل حر، أي خال من المسؤولية. وزوجتي التي أرسلتُ لها رسائلي لجأت في الوهلة الأولى إلى أهلها. وقد باعت البيت. والمالكون الجدد الذين نقلوا متاعي إلى الغرفة الصغيرة التي كنا نستعملها للمهملات استقبلوني بحفاوة. لم يحدثوني عن الإيجار. بدا أنهم متأسفون لظهوري من جديد وقد تركوني في الغرفة وحدي في مواجهة حياة صغيرة جداً منكمشة في متاع ليس له قيمة تذكر. نظرتُ إلى كل ذلك وضحكتُ إذ لابد من تقليل المأساة. ثمة لفة من الرسائل غير المفتوحة موضوعة على طاولة عتيقة هي جزء هام من الرواية التي انتهيتم من قراءتها. ثيابي ملفوفة على شكل كرة في كيس قمامة أسود. كتبي مكومة في إحدى الزوايا تالفة من الرطوبة. صور العائلة المرمية على الأرض كانت صورتي منزوعة منها، لقد حذفتني فطومة. بدلاً من الرأس يوجد ثقب متعمد، ولابد أنها اجتهدت مدة طويلة لتقطع رأسي. في طرف من الطاولة غلاييني ونفاضات سجائري. لم أعد أدخن ولكنني كنت أحب هذه الغلايين المهداة لي من صديقي هارفي قبل موته. هناك أيضاً قدح قهوة من دون غسيل أصبح فيه السائل الأسود أخضر اللون. كل شيء ينشر رائحة التخزين والعفونة. وراء الباب عُلِّق أعتق معطف مغربي لي. لم يكن عليّ أن أبقى طويلاً في غرفة الانتقام تلك، وهذه الأشياء ليست إلا بقايا زمن الفرار. بعد كل شيء هذا أفضل، فلا مشاحنات مفتوحة ولامشاجرات ضاجة، وقد حدثت

الأمور التي لاتسر في غيابي ومن غير وجودي. لم أشعر بأن بقايا حياتي البائسة تخصني، ومن بين كومة الكتب أخذت رواية جيمس جويس «أوليس»، بنصها الكامل المنشور في (كتاب الجيب) في الأعداد 1435 ـ 1436 ـ 1437 ، سبعمئة وثلاث صفحات مليئة، وعلى الغلاف الأخضر ـ البرتقالي ـ الخبيزي هذه الأجزاء من جملة: «...البيوت الوردية والزرق والصفر والـ... بنت وزهرة... مراكشية... لبست الـ... كل شيء حسن... الفتيات الأندلسيات... مازلن يسألنني نعم...»، وضعته في حقيبتي ومضيت. حتى أنني لم أشعر بالحزن. لقد شُطبت وشعرت بأنني على مايرام. أولادي لم يعودوا بحاجة إليّ، وهم في الخارج وما من أحد يحدثني عنهم. وما الفائدة؟ لابد أن تستمر حياتهم بي أو بدوني فلِمَ أقلق على مستقبلهم. لقد أصبحوا كباراً ويمكنهم أن يبنوا حياتهم ولابد أن قدراً يسهر عليهم ويرعاهم. لم أسع إلى رؤية فطومة. لقد نبذتني وتخلت عني كما أعلمني مساعدي القديم، إذ بموجب قانون الأحوال الشخصية إذا تغيب الزوج أكثر من سنتين دون الاهتمام باحتياجات عائلته (لقد تركت نقوداً ودفتر اعتماد عند البقال ابراهيم) ودون أن يرسل أخباره (لم أنقطع عن الكتابة إليها) فيعتبر مطلقاً لزوجته في نظر القاضي. ولاشك أنها أتت إلى المحكمة في حالة من التعب والإرهاق. تجر قدميها، تسندها أمها من جانب وأخوها من جانب، شاحبة هزيلة، ولابد أنها ماانفكت عن البكاء، فتأثر القاضي فأعطاها الحق في كل النقاط ذاهباً لأن يضع تعليقاً شخصياً حاقداً ضد «هؤلاء المثقفين المتأوربين الذين لايعرفون حتى لغة أمهم ويجدون ملجأ لهم في أوروبا الكافرة». وهكذا طُلِّقت وأدهشني ذلك. رُميت في الشارع على يد زوجة مهجورة مدعومة بثلاثة وعشرين من أعضاء عائلتها كلهم سعداء لأن الفرصة سنحت لهم ليتكتلوا ضدي. كان معها حق. تخلصت من عبء. لامواجهة ولامجادلة ولادموع. لقد أحسنتْ صنعاً بالتخلص مني على هذه الطريقة، لم أعد أنفعها في شيء. أصبحت عبئاً، رجلاً لم يعد يتكلم،

زوجاً فقد كل رغبة، أصبح خيالاً مهزوزاً، شبه رجل. وهكذا صفّتني وتخلصت مني وانتهى الأمر. إذا كان لابد من تصفية الرجال أشباه الرجال فلن يبقى في الشوارع الكثير من الناس. أواه! «حالة المرأة في أرض الإسلام» كما تُعنوِن أحياناً بعض المجلات الألمانية أو الإيطالية! أتذكر العصر الذي كنت أعاني فيه من خور في الكفاح. لقد أردتُ يومئذ أن تقف على أقدامها نقابة للأزواج الملغيين على يد نسائهم في أرض الإسلام. بعض زملائي أيدوا الفكرة ولكنهم لم يذهبوا إلى أبعد من ذلك. كانوا تحت السيطرة، بعضهم يعيش في الخوف ولايتحرك. كلا، فطومة قامت بالأمر خير قيام، ردّت لي حريتي حتى بدون أن أطالب بها، تخلصت. لقد اشتقت إلى هواء مراكش وإلى ضيائها ضياء الغسق المراكشي الذي يأتي الناس من أستراليا ليتمتعوا به بينما لم أعد أنا إلا من ضواحي نابولي. جلست على رصيف المقهى الرئيسي في ميدان جامع الفنا وسرحت في أحلامي المعتادة. رأيت نفسي في وسط الميدان في جلابية جميلة من الصوف وبلحية كثيفة ونظرة محمومة أروي للمارة القصة الحقيقية المؤثرة لأنّا ماريا المسماة بالعجوز، تلك المرأة الرائعة ذات القلب الأكثر سعة من هذا الميدان، بينما المارة يقفون لحظة ويتابعون المسير. لم أعد مطلعاً على الأحوال، فالمرء عندما يغيب طويلاً عن بلده يفقد الصوى والمعالم ويكسب بعضاً من الوضوح وتمييز الأمور. على أن الناس يحتاجون إلى الأحلام ونسيان شقائهم، يحبون أن تُروى لهم الحكايات كما لو أننا مازلنا في عهد ألف ليلة وليلة. قصصي كانت تسقط إلى جانب من يستمعون إليها، وأنا لاأملك إلا الأحاسيس والشكوك بدون أي يقين. كنت مخلصاً لحدسي وأحسست أنني أمسيت غريباً في مدينتي. تعرفت على الناس وحييتهم وردوا عليّ التحية بأدب ولطف ولكنني لست متأكداً من أنهم يتذكرونني، فمن أنا لأتلقى تحيتهم؟ كنت مجرد مغربي أتيحت له الفرصة لأن يقوم برحلة. غيابي لم يلحظه أحد ولم يأسف عليه أحد. ومن هو الذي يمكن أن يقلق عليّ بعد كل شيء؟ فكرت أنهم

استطاعوا أن يقرؤوا على وجهي آثار قصصي القريبة العهد. وعندما غادرت المقهى التقيت وجهاً لوجه بسائح إيطالي مرح ومبتسم. نظر أحدنا إلى الآخر وشعرت أنني أرى فيه صورتي الشخصية في مرآة. ابتسمت وابتسم. ضحكت وضحك. كانت في يده خريطة مطوية عن الجنوب المغربي. سألني بالإيطالية كيف يذهب إلى «الكثيب الذي دُفنت فيه قصص على يد مسافرين طائشين». وأجبته بأنني لاأعرف شيئاً عن ذلك. حياني وهو يتظاهر برفع قبعته ومضى. كنت واثقاً أن هذا الرجل هو «قريني MON DOUBLE». ومع ذلك فهو مرح حر ذو نزوات خفيف وسعيد بحسب مايبدو، بالاختصار هو مالم أكنه، ولكنني واثق من أنه أنا في حياة أخرى. قررت أن أنسى هذا الحادث العرضي المضحك. لم أكن قد عدت إلى بيتي لأجد نفسي مرة ثانية أمام قريني، فصورة مومو وهو يحمل العجوز على ظهره اجتازت تفكيري. هما أيضاً لابد أن يجدا قريناً لهم في هذا الميدان. ربما أراهما وقد نصبا خيمتهما في وسط حدائق المأمونية، فالعجوز تجلس هناك لالتقاط قصص الممثلين المتقاعدين في هذا الميدان، ذلك لأن البؤساء ليس لهم أن ينفردوا وحدهم بالألم.

لدى خروجي من المقهى وجب عليّ أن أتجنب ثلاثة من ماسحي الأحذية وأن أعطي قطعة من النقود لكل واحد من الشحاذين الأربعة الذين ينتظرون عند الباب. بينهم ظننت أنني تعرفت على واحد من طلابي القدماء. كلا إنها صورة أتت لتضاف إلى صور أخرى من الشقاء. يبدو أن على المرء ألا يتحدث عن بلده بالسوء وخصوصاً للغريب، لذلك فإنني أمحو الجملة التي تتعلق بالشحاذين وبالشقاء، فأنا لم أر شيئاً من ذلك ولم أكتب. إن التسول كارثة اعتادت عليها المغرب. يبدؤون باليأس سبباً لمد اليد، ثم يحنون الظهر، يعفرون الجبين أمام القادرين، ينسحقون، يفرغون من كل كرامة كما يفرغون من دمائهم، يتركون الأمور تجري، يبكون حظهم ويرفعون عيونهم للسماء، تلك هي المصيبة التي تجري. هاهو ذا رجل ينبطح

وينزلق كالثعبان، عيناه تلمعان، لسانه يلفظ حبراً أسود على أرجل الناس وما من أحد يندهش أو يُصدم. يقال إنها عائلات من الفلاحين تركوا دوّارهم بسبب الجفاف وصنعوا من التسول مهنة لهم، يَصفّون الأطفال، يعرضون ذوي العاهات، يسحبون كل الخيوط ثم يدعون إلى الله ويسألونه رحمته. رأيت في إيطاليا فقراء ولكنني لم أر متسولين. رأيت فيها أطفالاً مغاربة ينقضّون على السيارات الواقفة عند الإشارات الضوئية الحمر ليغسلوا الزجاج. انتبهوا! يجب ألا يغتاب المرء بلده! فهذا مايسمى بالجحود ونكران الجميل. إذن انسوا قصة الرجل المنبطح، كلا، لابد أنني رأيت هذه الصورة في إحدى الوثائق عن الهند، هذا هو الأمر: في الهند إنما يتسول الناس.

قمت بجولة في الجامعة. على الطريق رأيت سائحين يضايقهم مرشدون مزيفون، شتائم، كلمات وإشارات بذيئة. هؤلاء لن يعودوا إلى المغرب. وفي كلية الآداب صدمت عندما شاهدت أن إحدى قاعات الدرس تحولت إلى قاعة للصلاة، فيها حصر ومسابح وكتب. سألت الحارس عما جرى فأرسل زفرة وقال لي: «أواه ياأستاذ! منذ رحيلك تغيرت الأحوال كثيراً. فهذا الذي كانوا يسمونه بنغلاديش لأنه هزيل مثل مسمار، جاف ويكاد أن يكون زنجياً، ذلك المخلوق الذي ليس لك في قلبه ذرة من محبة قد ارتقى إلى منصب سام في الوزارة، سيارة مع سائقها، سكرتير يحمل له حافظة الأوراق، وكل شيء، وكل شيء. إنه حسود لأنه يريد هو أيضاً أن يكون كاتباً مثلك ولكن خاب حظه فإن أي ناشر لم يشأ أن ينشر له. أنت تذكره، لم يكن كريماً. عندما رحل تنفس الأساتذة الصعداء. ووقعت نقابة الطلاب بين يدي الإسلاميين. كل الناس أصبحوا مراقبين. لم أعد أستطيع تدخين السيبسي بهدوء لأنهم قالوا إنها محرمة بالدين. ماتت السيدة هاشمي في حادث طريق. هنا نحن نضرب القياس العالمي في حوادث الطرق، فهم يعطون الترخيص لأي إنسان، وهناك من يشتريه وهذا معروف. هذا لم يتغير وبقي مثلما كان. أخيراً الطلاب

يحيرونني فقد غدوا عقلاء أكثر فأكثر ويأتون للصلاة كما لو أنهم في مسجد، وليس ثمة ما يُفعل للاعتراض على ذلك. الديانة مقدسة وأنا مؤمن بالله ولكنني أحب أن يدعوني وشأني... أواه ياأستاذ! يقولون إن المغرب تتغير، المغرب تتحرك وأنا دائماً هنا ولم أر تغيرات تذكر. لاحظ، إنني لاأتذمر... وأنت أين كنت؟ يقال إنك قمت بجولة حول العالم، هل هذا صحيح؟»... بقيت برهة على عتبة الجامعة والنظرة غائبة والرأس مليء بالضجيج. استعرضت صورة بنغلاديش المسكين وهو يتحدث إلى المدرسين بحذلقته وتصنعه إذ كان يحب أن يعرض معلوماته القليلة. لقد جعله الحسد يزداد نحولاً مع الأيام. هو يحسد كل الناس وسُمْعته أنه يحمل الأذى لكل الأشخاص الذين يبادلهم الابتسام.

خرج الطلاب على زمر صغيرة. فتيات محجبات يمشين مطرقات الرؤوس، أخريات يرتدين فساتين جميلة يتبعنهن. ورغم هذا الحجاب كن مرحات يضحكن ضحكات عاليات ويهزأن من الرجال ذوي اللحى الذين يحملون أنفسهم على محمل الجد. نظرت إليّ برهة فتاة ترتدي فستاناً جميلاً أحمر اللون. كانت جميلة وطريفة. تقدمت نحوي بشكل طبيعي وصافحتني ثم قالت: «إذن، أوليس، لقد كتبت أوديسيتك؟» لاحظتُ خضرة عينيها وبُهرت بتألقهما. وضعت يدي على جبيني وأغلقت عينيّ، هذه الفتاة رؤيا. كنت تحت تأثير هلوسة ناجمة عن قلة النوم. وظن الحارس أنني تعِب فقدم لي كرسيه بينما كانت الفتاة قد اختفت وضحكتها، ضحكة ريعان الصبا، تصلني من بعيد. وعندما استرحت سألني البواب من جديد عن رحلتي ومشاريعي ولكنني لم أكن أملك الرغبة في الكلام بل الرغبة في أن أكتب.

نابولي ـ طنجة ـ باريس

نيسان أبريل 1997 ـ كانون الثاني يناير 1999



نُزل المساكين

«نُزُل المساكين، نُزُلُ غرقى الحياة، وساحة لتجمع اللصوص أو بعض الأشخاص اللذين ضربتهم اللعنة، يقبعون فيه ليدفعوا ثمن أخطائهم... إنه ليس مطهراً بل يشبهه».

هذا ما يقوله الطاهر بن جلون، لكن ونحن نعيش مع سطور هذه الرواية نجد النُزل رمز ساحة العالم الآن، بكل ما لوثها من الصراعات التي تجمع بين المسلم والمسيحي واليهودي... وفيهم الكثير من بشاعة الفرد والجماعة.

الفرد الذي امتلأ كيانه بتعقيدات الحياة وقذارتها ظاهراً وباطناً، مما ولَّدَ تعقيدات الأديان وصراعاتها...

لكن ونحن نبحث عن الخلاص مع شخوص روايات الطاهر نجد أن الحب الذي تلوَّث في هذا العالم أضحى هو الملاذ والهدف... الحب الإنساني النقي والطاهر، والبعيد عن جميع أنواع الصراع.